# نَوَادِرُ مِنَ الكُتُب

ومقالات، وحوارات، ورحلات، ونصوص

# نَوادِرٌ من الكُتُب

ومقالات، وحوارات، ورحلات، ونصوص

بقلم

أحمد القاسمي

عنوان الكتاب: نوادر من الكتب، ومقالات، وحوارات، ورحلات، ونصوص.
المؤلف: أحمد القاسمي
الهاتف: 212661707826+
البريد الإلكتروني: elkacimiahmed63@gmail.com
رسم، وتصميم الغلاف: المؤلف
الرقم الدولي المعياري للكتب (ISBN): 978-9920-25-546-2

الطبعة الأولى؛ 1446هـ؛ الموافق لـ2024م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

# مُقَدِّمَة

كثيرا ما تترك مضامين بعض الكتب آثارا في دواخل القارئ؛ بمجرد ما ينتهي من القراءة، وبحسب مستوى فهمه، ورغبته في التركيز على مضمون هذه الفقرة دون غيرها، وللإمتاع والمؤانسة يقرأ، والدافع أيضا إلى معرفة الأشياء؛ بعلمها أو التعمق والتأمل فيها؛ لفهم كُنهها، وقد يظل ما اطلع عليه في ذاكرته؛ يستحضره متى يشاء، وقد يكون نموذجا له في سيرته التي يتّبعها في تعامله وتواصله مع الآخرين، ونبراسا يُضيء له الطريق، أو يتخذه منه؛ فهو يزن ما تقع عليه عيناه غالبا بميزان ما قد قرأ عنه؛ لذلك كانت هذه هي فائدة القراءة.

البعض مما كَتبْتُ عنه في هذا الكتاب يعود اطلاعي عليه في بعض الكتب إلى أربعين سنة خَلت تقريبا، ولم يغب عني في عالم النسيان؛ لأنه ترك الأثر في النفس، وتعلّق القلب بمحتوياته الشيّقة والممتعة، ونشّط الفكر، وأجّج القراءة والاطلاع على أكثر من مضمون أو موضوع آخر، كما أثار الكثير من الأسئلة، وكانت الفكرة التي طرأت علي هي أنني اعتبرت ما أثار انتباهي وإعجابي مما قرأت نوادرا؛ لتميّز أحداثها وأفكارها، واعتبرتها -وفي حينها- أندر ما أتى به هذا الكتاب أو ذاك، وكانت منهجيتي في الكتابة عنها، وجمعها في الكتاب الذي أقدمه الآن بين يدي القارئ؛ أني أستحضرها وأكتب انطلاقا مما تركته من أثر نفسي، ثم أُطعّم ما أحيطت به من معلومات بالبحث عنها في كتب أخرى ورقية؛ أو في بعض الكتب الرقمية؛ هذه الأخيرة أعود إليها كأنها تبعث الذي قرأت عنه منذ أربعة عقود من جديد غضا طريا، وتُتيح المواقع الإلكترونية تدفقا في المعلومات بكيفية كبيرة جدا، ولتفادي المعلومات الخاطئة المحتملة؛ فإني أقارن بينها من كتاب إلى آخر، ومن موقع إلكتروني إلى آخر؛ حتى أتثبَّتُ من صِحّتها، وتعدُّد الرواية -ومن مصادر

مختلفة- يزيد من صحتها أو صدقها، ودون القارئ الكثير من وسائل التدقيق والتدوين الورقية منها والرقمية ليُصدّق أو يُكذّب.

وقد اختلفت مواضيع هذه النوادر وتعددت، ولا تتناول مجالا بعينه، فهي ضاربة في تكنولوجية الطاقة النووية، وفي المعارك البحرية التاريخية، وفي الرحلات الاستكشافية، وفي التراث البحري عند بحارة المحيط الهندي العرب، وفي حروب الغِيلة في بلاد الأندلس في زمان وجود المسلمين بها، وفي تداول كتاب الحضارة العربية والإسلامية؛ في المشرق والمغرب، وفي نموذج غواصة أُطلِقت بعد الحرب العالمية الثانية لاستدراك خَفْر البحار والمحيطات، التي باتت مجالات مائية لا تُسْتُأْمن، بعد الدرس الذي لقّنته ألمانيا النازية لدول الحلفاء؛ في غزو أعماق البحار والمحيطات بغواصاتها التي يُستعصى التقاطها بأجهزة التجسس؛ لتَقَوقِعِها في غشاء اصطناعي، وفي موضوع مثير تناول فقدان عيّنات من هيكل إنسان (بيكين)[1] القديم؛ خلال الحرب العالمية الثانية، وفي مغامرة أحد العلماء أو أحد الصحفيين الغربيين في إفريقيا، التي كانت تُنعث بالقارة المظلمة، وفي معركة حربية جرت قبالة ساحل الإسكندرية؛ في خليج (أبو قير)[2]؛ بين بحرية فرنسا وبحرية انجلترا في نهاية القرن الثامن عشر، وهي تعطي فكرة عن الحروب البحرية الضارية والقاسية التي خاضتها الامبراطوريتان البحريتان طيلة القرن الثامن عشر، للاستباق نحو الهيمنة على بحار ومحيطات وقارات ما وراء البحار، والمضايق البحرية... إلخ.

ثم أَتْبعْت هذه النوادر بمجموعة مقالات، وحوارات صحافية، ورحلات، وخواطر؛ متعددة المواضيع هي أيضا -مادام الكتاب مُناسبة لتقديم تنوُّع في العرض- يجد فيها القارئ مبتغاه من لذة في القراءة والاستفادة، انطلاقا من كون كل كتاب هو مستقل بمضمونه ولغته وأسلوبه عن الكتب الأخرى،

---

[1] عاصمة جمهورية الصين الشعبية.

[2] جاءت هنا (أبو) مضمومة؛ لأن جعل الكلمة بين قوسين يحملنا على الاختيار، إما أن ننصبها أو نجرها تبعا لموقعها من الجملة، أو نرفعها.

لأنه أُلِّف من طرف كاتب له ثقافة معينة، وبمستوى معين، ويحيا في بيئة ليست كباقي البيئات، وفي واقع مغاير ليس كوُقَّع أخرى، واعتكف في محراب غير محرابات الإبداع الأخرى، وفي لحظات تفكير واستحضار ليست كباقي لحظات وجود الإنسان في مكان ما، وبحالة نفسية ما.

فالمقالات أثارتها أحداث سياسية وقعت، ولا بد للكاتب الذي يحرن به قلمه أن يخط شيئا عن ما يُستجدّ، والبعض منها حفزته إليها هموم أو اهتمامات ثقافية، وإنه يُطالع الكتب فتثور فيه أسئلة ومواقف عدة، وفائدة أخرى، فالكاتب على وعي بدور الكتابة؛ إنها تعيد ترتيب الواقع ترتيبا منطقيا، فهو يعرض من جديد أحداث وحوادث ذلك الواقع، ليتبين أين، وكيف أخطأ الإنسان، أو أصاب، الكتابة مرآة نرى فيها خُلُقنا وليست خِلْقَتنا، فهذه في تبدل وتقلب، لطول الزمن.

ويجد القارئ نفسه بعد هذه المقالات؛ قد وصل إلى حوارات صحافية؛ سأل فيها صحفيان من صحيفتين مغربيتين يوميتين الكاتبَ؛ عن شأنه مع فن القصة والرواية اللتين يكتب فيهما نصوصا، ومع طبعها في كتب؛ وما تطرحه من قضية وجود موزعها، وتوزيعها في المكتبات؛ لتطرح قضية وجود القارئ؛ ومدى وجود الناقد، والقطاع الذي يُسأل عن مدى دعمه للكتاب، وتقريبه إلى القارئ، وترغيبه فيه.

والرحلات؛ لم أجتز فيها حدود المغرب السياسية، قمت بها إلى بعض مدن الشمال، وصفت فيها ما شاهدته، من مظاهر الحياة، وذكرت من التقيت بهم من الشخصيات، وعبّرت عن ما تركته من مشاعر، وآثار في النفس.

أما الخواطر؛ فعادة ما تخطر على بال الكاتب صورة شيء ما أو شخص ما؛ فيكتب عن ذلك، لأن ما تراه عين الكاتب ليس كما يراه الآخرون، فيكتب -وهذا الغالب- بنزعة إنسانية، وبموضوعية، لأن نفسية الكاتب هي

نفسية الإنسان في فطرته، وفي أصله الذي ربما تغيّر لظروف متقلبة وقاهرة، ووقُوع[3] متغيرة.

ومن شروط الكتابة دائما، وبهذا الشكل الذي يقدمه هذا الكتاب أن تكون سلاسة في الأسلوب بدون فظاظة أو الناشز من الألفاظ، أن يكتب الكاتب بنفس سمحة وبقلب كبير، وإذا أراد أن ينقُد فلا مناصّ من أن يكون نقده موضوعيا وبنّاءً، ولا ورود لنية الهدم، وأن يُشجع، ولا ينطلق لسانه بحرية فوضوية؛ عندما ينطق -كالبعض الذين اختصوا أو احتكروا مجالا- فيقول: «من هبّ ودبّ»، ولا يمكن إطلاقا أن أنطق بهذا الكلام لمبدع في مجال الأجناس الكتابية، لأنه يحبِط، فكل ما يكتبه المبدعون يجب أن يُقرأ، والناقد يُقوّم، ويصقل، ويوجه، ويُرشِد.

فإلى القارئ هذه الحُزمة من هذه النصوص المتنوعة في مضامينها، وفي أشكالها، وجنوسها، أو فنونها؛ كما يُطلق عليه إخواننا في المشرق العربي، وخاصة في مصر؛ أرجو أن تطيب نفسه بأريجِها.

أحمد القاسمي؛

المغرب؛ في عام 1446؛ الموافق 2024 م.

[3] وُقوع؛ جمع لواقع.

# ما ندر من صفحات الكتُب

# غواصة الجليد (نوتيلوس؛Nautilus)

المجتمع الأمريكي مخلوط اِمتزجت فيه عناصر عرقية شتى، واتخذ ماهية ذلك الذي تستخلصه المختبرات الكيماوية، أو حجر مشحوذ ومصقول اِتخذ شكلا متناسق الوجوه، وتُرك صانع التماثيل يُشكل الصخر على سجيته؛ بدون أن يقتحم عليه أحد محراب إبداعه؛ فقد انصهرت في تلك القارة الجديدة ذهنيات صدرت بموروثات متنوعة عن حضارات العالم القديم التي يحكمها المحرم والمحظور، وصوفية الشرق المتوسط والشرق الأدنى الدينية.

فما الذي أنتجه ذلك المخلوط، أو تلك الصُّهارة، أو ذلك الشكل المشحوذ؟

لقد تفتّق عقل الأمريكان عن أفكار كانت حُلما يراود شعوب العالم القديم منذ عصور ما قبل التاريخ، وأثمرت ما خرج إلى حيز التنفيذ؛ أَلَيْست (نوتيلوس؛ Nautilus) غواصة الجليد؛ أحد إنجازات عبقرية الإنسان الأمريكي؛ تكون قد ضاهت نزول الإنسان على سطح القمر، ووطآت خطواته الأولى التي خلفها قالب حذائه المدرّع في أتربة جِرم القمر، وقد تعقبها خطوات أخرى وهذه المرة بأمان مخطط له؟

لماذا أعطاها القلم الذي حاول أن يُدبّج هذه النادرة اسم (غواصة الجليد)، ومتى بُني هيكلها وأين، وما هو وقود محركاتها الذي ميزها عن باقي الغواصات الأخرى، والذي كان ثورة في طاقات دفع المحركات، وفي أي مياه من بحار العالم غاصت، وفي غطسها رحلة؛ فكم دامت، وما هو خط إبحارها في الأعماق، ولأي غرض؟

حدث ذلك سنة 1958م؛ أي منذ ذلك التاريخ وإلى حين كتابة هذا النص اثنان وستون سنة؛ أي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بثلاث عشرة سنة؛ أي بعد أكثر من عقد من الزمن، وطالما نبهنا المؤرخون إلى أن فترة العشر السنوات تستحق قراءة كرونولوجية لأحداث تقع، وأن تطورا يحدث،

وأن تحولا يطرأ، فلم تنته الولايات المتحدة من توظيف التكنولوجية النووية؛ بتركيب القنبلة الذرية وتفجيرها على رؤوس اليابانيين في النصف الثاني من القرن العشرين؛ بل تكون قد دشنت بها بداية عصر تلهث فيه الدول التي لها من الإمكانيات ما يُؤهلها إلى امتلاك هذه التكنولوجية القاهرة والرادعة، وتسخيرها في ميادين عدة، ونذكر على سبيل المثال أن فرنسا لم تلحق، وبعد خطوات حثيثة بذلك العصر إلا في ستينيات القرن العشرين، عندما فجرت قنبلتها الأولى بصحراء الجزائر في 13 فبراير 1960م، فلم يتأخر كل من السوفيات البلاشفة والأمريكيين في استعمال الطاقة النووية كوقود لمحركات الغواصات.

لماذا، وكيف؟

وقبل الإجابة على هذين السؤالين؛ لابأس من أن نستحضر صورة كثيرا ما تناقلتها وسائل الإعلام؛ تُظهر فيها غواصات نووية موروثة عن العهد السوفياتي؛ رابضة بفوضوية وإهمال بإحدى موانئ بحر البلطيق؛ كأنها سرب منهك من الحيتان ذوي الظهور المحدبة قدم عائما من بعيد، ثم الحدث الآخر المأساوي وهو غرق إحدى الغواصات النووية الروسية، واسمها (كورسك؛ Kursk) في مياه بحر (بارينتس؛ Barents)؛ في المحيط (الأركتيكي)؛ الواقع في شمال النورفيج وغرب روسيا؛ في 12 غشت 2000م، وعلى متنها مائة وثمانية عشر بحارا روسيا، وقد رأينا كيف وقف الثّكالى والأرامل يَبكِين بوجوه بائسة؛ عليها آثار أزمة نهاية العهد السوفياتي.

فالدافع إلى ابتكار الغواصات الذرية هو ذلك العيب التقني الذي اتسمت به الغواصات التقليدية؛ حَدَّ من أدائها، فأنهى زمن صناعتها؛ هو أنها كانت تعتمد في غوصها على محركات كهربائية؛ تُشغل ببطاريات مشحونة، وحين تُستهلك طاقتها بالكامل؛ فإن الغواصة تطفو لتُشَغّل محركات (الديزيل) التي تُعبّئ البطاريات من جديد، وهكذا من حين إلى حين، وطاقم الغواصة وهو في إحدى المهمات السرية؛ لا يريد أن يظهر على سطح الماء من وقت لآخر

فتلتقطه أقمار التجسس، وقد تطور أداء الصواريخ العابرة للقارات المصيبة للهدف بدقة متناهية، فكان الحل في الطاقة النووية، وذلك بتخصيص إحدى حجرات الغواصة لمفاعل نووي يمد الغواصة بالطاقة، وتُبحر في الأعماق بدون حاجة إلى مُولّد آخر ميكانيكي للوقود الكهربائي، فهذا إذن ما دفع الأمريكيين إلى أن يبتكروا أول غواصة نووية من هذا النوع أسموها (نوتيلوس؛ Nautilus).

وللقيام بأول رحلة يُمتحن فيها أداء الغواصة، فإنهم لم يكتفوا بالغطس بها في مياه اِرتادوها سابقا، وأصبحت مألوفة لديهم؛ بل رسموا مسار رحلتها في عمق المياه في الدائرة القطبية للكرة الأرضية؛ أي الإبحار بها تحت القشرة الجليدية، فلا تُقب بها تحاول الغواصة الإفلات منه إذا طرأ حادث، فكانت بحق أشبه برحلة في قناة مائية تحت الأرض؛ تمتد على مسافة مئات الكيلومترات؛ لا منفذ لها إلا ذلك الذي يُنهي تلك الرحلة.

هل يستطيع أحد أن يتكهن بنتائج رحلة غواصة نوتيلوس؟ أستُكلل بالنجاح أم تفشل؟ لا أحد إذن يقطع في قوله بجواب على أحد السؤالين؛ إذن فذلك من علم الغيب، ولذلك فالسرية خير ما يُلجأ إليه في مثل هذه المهمات؛ فأُحيطت الرحلة بها، ولم يكن يعلم من طاقمها ذو المائة وستة عشر بحارا إلا قائد الغواصة (وليام. ر. أندرسون 1921م- 2007م؛ William. R. Anderson) ، ذو الستة والثلاثين سنة من العمر في ذلك التاريخ، ولم يُبلِغ هو الآخرين بالهدف الذي من أجله تُبحر الغواصة إلا بعد أن غادرت خليج (بوجيت ساوند؛ Sond Puget) ، وهو امتداد لمياه الشمال الشرقي للمحيط الهادئ داخل غرب قارة أمريكا الشمالية. إن ما حفّز الأمريكيين على صنع غواصة نوتيلوس؛ هو ذلك النجاح الذي لقيه مخطط تطوير استعمال الطاقة النووية في الدفع؛ والذي أُنجز من طرف علماء ومهندسين بِفرْع المفاعلات البحرية التابع للجنة الطاقة الذرية؛ بقيادة رائد طاقة الدفع النووية الكابتان (هيمان. ج. ريكوفر 1900م- 1986م؛ Hyman Grorge Rickover)،

وبالطبع وفي يونيو من سنة 1951م؛ سمح مجلس الشيوخ الأمريكي ببناء أول غواصة نووية، وفي الثاني عشر من شهر دجنبر من نفس السنة؛ أعلن قطاع البحرية على أن الغواصة السادسة في البحرية الأمريكية ستحمل اسم (نوتيلوس)، وتم الشروع وفي عهد الرئيس (هاري. س. ترومان؛ 1884م-1972م؛ Harry.s.Truman)؛ في بناءها بمدينة كروتون (Groton)؛ بولاية (كونيكتيكوت؛ Connecticut)؛ في 14 يونيو 1952م.

وبعد ثمانية عشر شهرا، وفي يناير 1954م؛ والغواصة شامخة بكامل تجهيزاتها؛ تتمدد على بطنها على دعامات منصة الإطلاق؛ بطول ثمانية وتسعين مترا، وبعرض ثمانية أمتار وخمسة سنتميترات، وبوزن أربعة آلاف وخمسمائة طن؛ إذ تقدمت زوجة الرئيس الأمريكي السيدة (مامي إيزنهاور)، كما كان يناديها الأمريكيون تَدلُّلا، وقبضت بيديها على قارورة الشمبانيا؛ ثم كسرتها إلى شظايا على جانب الغواصة المعدني[4]؛ الذي اِنساب عليه بعض سائل الجِعة؛ وأسال لعاب الآلاف من الأمريكيين الذين وقفوا ينظرون بفرح وبسعادة إلى ما أنجزوه؛ ثم حرروا الغواصة من حبال الشدّ؛ فضربت بمقدمتها المكعبة في مياه مرسى (نيولندن؛ Newlondon)؛ على ساحل المحيط الأطلنتي؛ إلى الشمال الغربي من مدينة نيويورك؛ لتتقدم بعد ذلك في نهر (التايمز؛ Thames River).

ويجدر بنا أن نذكر أنه في 20 يناير من سنة 1955م؛ تكون قد غطست هذه الغواصة في عمق البحر من المسافات ستين ألف ميل بحري؛ مُحققة ما تخيله علميا الكاتب الفرنسي (جول فيرن 1828 م- 1905م؛ Jule Verne) من عشرين الألف فرسخا التي قطعتها غواصة روايته (نوتيلوس) التي تحمل عنوان (عشرون ألف فرسخا تحت الماء، Vingt mille lieues sous les mers) ؛ فكان ما أنجزته الغواصة الأمريكية هو الداعي إلى إعطائها نفس

[4] هذا تقليد في الغرب في إطلاق السفن الجديدة من منصة الإطلاق.

الاسم؛ وتقديرا أيضا لذلك الكاتب الفرنسي، الذي كان أول من ألف في أدب الخيال العلمي.

ولن نشعر بمدى جسامة المهمة التي أُنيطت بها غواصة نوتيلوس، والتهيُّب من المغامرة التي إذا ما نتجت عنها كارثة؛ فهي تضحية من أجل الوطن – وكثيرا ما ذاق الأمريكيون الويلات في اندفاعاتهم إلى مثل هذه التجربة– إلا إذا رافقنا الغواصة في رحلتها في أعماق مياه القطب الشمالي؛ تحت قشرة الجليد الصلبة التي يتراوح سمكها ما بين ثلاثة وخمسة عشر مترا.

غادرت نوتيلوس الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية، ولا يحسب أفراد طاقمها البالغ عددهم مائة وستة عشر رجلا؛ إلا أنهم في إحدى الخرجات البحرية الروتينية، وبعد أن اجتازت قناة (بناما) بوسط القارة الأمريكية؛ اِتجهت إلى ميناء (بيرل هاربر؛ Pearl Harbor) بجزر هاواي، ومن هناك وفي يوليوز 1958م أبحرت مرة أخرى الغواصة صوب مدينة (سياتل؛ Seatl) الأمريكية؛ الواقعة ما بين خليج (بوجيت سوند؛ Puget Sound)، وبحيرة (واشنطن) على الساحل الغربي لأمريكا، وربضت بهذا المكان بعض الوقت؛ ففي الحادية عشرة وأربعة عشر دقيقة في صباح يوم 3 غشت 1958م نادى قائد الغواصة الضابط البحري (وليام. ر. أندرسون؛ William .R.Anderson) في بحارته قائلا: «من أجل العالم والوطن والبحرية...الشمال القطبي»؛ آنئذ علم أفراد الطاقم ما هم مُطالبون به، والوجهة التي يمضون إليها، فانكفأوا يجُسون نبضات الآلات الميكانيكية والإلكترونية؛ بثقة أن الهواء الذي يُعاد تعبئته بواسطة جهاز خاص داخل الحجرات الفولاذية سيجعلهم يتحملون، وهم يعلمون أنه ما تزال في طريقهم محطة أخرى أُستنفد لها صبرهم؛ وهي رأس (ليسبورن؛ Lisburne)؛ في الشمال الغربي لشبه جزيرة (ليسبورن)؛ على شاطئ ساحل بحر (شوكشي؛ Chukchi) بألاسكا، بعد أن اجتازته بهم الغواصة؛ ولا ندري هل وقفت به لكبت رعشات الخوف التي دبت إلى قلوبهم أم لا؛ غاصت في غياهب بحر

القطب الشمالي؛ لا ينفعهم في تحديد الموقع والاتجاه إلا أجهزة الملاحة الأوتوماتيكية التي كانت من طراز آخر ما ابتُكر إلى حدود ذلك التاريخ.

وقد أعاقت رحلة نوتيلوس الباطنية في أول المراحل جبال الجليد؛ وما يزال القائد يراوغ هذه التضاريس الجليدية الخطرة حتى وصل إلى واد يسمى (بارو)، ولم يكن الانطلاق في هذه الرحلة بمخاطرة عمياء؛ فلها وقت مخطط لها؛ ليُتابع خط الرحلة في عمق مياه القطب الشمالي، وفي صباح يوم 5 غشت 1958م تطفو الغواصة في بحر (كَرينلاند؛ Greenland)؛ إلى الشمال الغربي من جزيرة انجلترا؛ لتهتز أغشية جهاز الصوت الحساسة مُعلنة الكلمات التالية: «نوتيلوس؛ تسعون درجة إلى الشمال»؛ أي ما معناه أن من شاهد قبل يومين الغواصة نوتيلوس وهي في بحر (شوكشي) بألاسكا؛ فإنها الآن في مياه بحر (كرينلاند)؛ عند خط عرض تسعين درجة؛ الذي يرسم الدائرة القطبية، وبهذا تكون الغواصة النووية الأمريكية قد أنجزت ما لم يكن قد تحقق في تاريخ الغطس البحري، وظلت كلمتا (تسعون درجة) كلما نُطق بها تُذكر الأمريكيين برحلة نوتيليس.

فما المآل الأخير لهذه الغواصة؛ التي تلمست دفء جلدها الفولاذي في مقاومة برودة مياه ذات أدنى درجة حرارة تسجل على الكوكب الأزرق؟

لقد أنهى الأمريكيون أمرها في 3 مارس من سنة 1980م؛ بعد أن أدت من سنوات الخدمة خمسة وعشرين سنة، وأُعلنت إرثا تاريخيا في 20 ماي من سنة 1982م، وفي 6 يوليوز 1985م تم قَطْرها إلى مدينة مهدها (كروتون) بولاية (كونيكتيكوت)، ورُكّنت في إحدى جوانب قاعدة (نيولندن) البحرية متحفا عائما؛ يجذب أكثر من مائتي وخمسين ألف من الزوار سنويا.

وما أريد أن أنتهي إليه؛ هو سؤال كثيرا ما يُؤرقني هو: لماذا يُنجز الغرب تكنولوجية المستقبل، ويتقدم في ذلك حثيثا؛ وماذا يُقعدنا نحن العرب المسلمون عن التهيؤ لمثل تلك الابتكارات؟ فما زالت إذن أرضنا كما كانت منذ ستة قرون قاعا صفصفا؟

# عالِم من الغرب الإسلامي

لا أحسب، وحتى لا أفتري على إنسان هو الآن من الأموات؛ ذلك البحار العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي، والملقب بـ(أسد البحار)؛ رحمه الله، ونفعنا بعلمه -الذي عاش في القرن التاسع الهجري، والموافق للخامس عشر الميلادي (ولد في سنة 838هـ[5])- إلا أنه يَقعُد الْأُرْبُعاء (مُتربِّعا)، وبيده اليمنى؛ بين سبابته وإبهامه وظهر أُصْبُع الوسطى قلمه الذي براه، وبيده اليسرى قُرطاس، وعلى يمينه دَواتُه؛ يَنظِم عِلمه البحري رَجْزا؛ فيُجري حروف كلماته مدادا على الورق.

وهو المحرر لأفكاره؛ لا يكون إلا في خَلوة هادئة، وفي وقت خال من تجاذبات الانشغالات اليومية، وقد تخفف من أثقال عمل كان قد أُنجزه، وقد آب من رحلة بحرية تجارية طويلة؛ كان يجري به مركبه (الدّاو)[6] في غير وهن في مياه المحيط الهندي؛ من جزر (القُمُر) أو جزيرة (زنجبار) أو من الساحل الشرقي لإفريقيا السوداء، أو من أرخبيل الفليبين وماليزيا، أو جزيرة (جاوة)، وفي يوم من أيام فصول غَلق البحر؛ أي يُمنع الإبحار فيها لرداءة الطقس؛ وهو القائل في أرجوزته المسماة بِـ«حاوية الاختصار في أصول علم البحار»:

**وَينْبغي معرفةُ الأرْيَاح * ومغْلق البحْرِ والمِفتاح**
**فغلْقه يمكُث ربعَ عـام * مُدّة تِسعون من الأيـام.**

ويقول بعد ذلك في نفس الأرجوزة:

---

[5] حسب تحقيق أنور عبد العليم في كتابه (ابن ماجد الملاح)؛ من سلسلة أعلام العرب؛ عدد شهر مارس؛ سنة 1967م؛ مصر

[6] سفينة شراعية؛ يتميز شراعها بأنه مثلث الشكل؛ تُصنع بطريقة تقليدية في منطقة الخليج العربي، وهي تلك المراكب التي كانت تُبحر للتجارة قديما ومازالت في بحر العرب؛ ما بين سواحل شبه الجزيرة العربية، وسواحل شبه الجزيرة الهندية، وسواحل إفريقيا الشرقية.

**فهذه التِّسعين فَها الغَلْقا * حقيقٌ من جاز بها أن يشقى**
**من مَضَض الوحشة والتندُّم * وكثرة الوسواس والتألم**
**أما الضّرورات فكم منها جرى * كم جاز فيها أحْمقٌ وخاطرا.**

فلا شيء يشغل تفكيره الآن إلا تدوين ما اكتسبه من تجارب؛ وهو الربان الذي لا أحد غيره خبر البحر، وتقعيد ما اكتسبه مِراسا، وما لاحظه وامتحنه واحتك به، وأدرك ماهيته وسلوكه، وقد يكون في أيام دفعت فيه الرياح الموسمية الآتية من عمق المحيط الهندي غيوما كثيفة، والمُعيقة للسفر في البحر؛ حُبلى بذرات الماء؛ فيكتب على إيقاع زمهرير الريح، ونقرات المطر؛ يُحدِثها سقوط القطرات على سقيفة كُوّة بيته المبني بلبنات من التراب، وهو يَنظِم أرجوزته المشهورة في علم البحار، التي عنونها بِـ«الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»؛ إذ يرفع قلمه وقد داهمت ذهنه فكرة، فيسرح بخياله؛ يمتطي صهوتَه ليُحلّق به إلى هنالك؛ إلى حيث يمتد الغرب الإسلامي؛ الذي لايحُدّ بطائحَه إلا بحر الظلمات (المحيط الأطلنتي) بأمواجه الصاخبة؛ في بلاد يعرفها هو القاطن بالشرق الإسلامي باسم (مراكش)؛ فنتساءل ماهو ذلك الشيء الذي يشد انتباه البحار ابن ماجد -الذي أرشد الربان البرتغالي (فاسكو دو كَاما؛ 1469م- 1524م؛ Vasco de Gama) إلى ساحل الهند إذا صح هذا، وقد نفى هذه الواقعة من نفاها من المحققين- إلى هذه البلاد التي تبعد عن ساحل عُمّان بآلاف الأميال البرية؟ وهل كان لزاما أن يأخذ بلُبه هذا الشيء، ولا يفكر في غيره في هذه اللحظة من لحظات استحضار تجاربه في خوض البحار، وتقعيدها في كتاب؟

هناك بجانبه على رف الكتب المجلدة والمسفرة كتاب مخطوط، أو هو بين كتب أخرى راكمها أمامه؛ لاندري؛ يُدمن قراءتها ليستزيد من علمها، ويسترشد بما صاغته من قواعد ونظريات في علم البحار، أو ما يُطلق عليه

حاليا بِـ(الأوسيانوغرافيا؛ Océanographie)[7]؛ تنفعه في رسم المسالك البحرية الآمنة؛ وفي علم الأنواء وعلم الفلك وعلم الرياضيات، وهو من أجل بُغيتِه يجدّ ويكدّ ويسهر الليالي كما قال في هذا البيت من إحدى أراجيزه:

**سُهاد حكت عيني عُصارة عَنْدم * وكل نجوم الليل تسأل عن دمي.**

وتعني كلمة (اَلْعَنْدَم) الواردة في هذا البيت، وحسب معجم لسان العرب: «وقال بعضهم: العندم دم الغزال بلِحاء (الأرطَى)، و(الأرطَى شجر ينبت في الرمل، زهره طيب الرائحة، وثمره كالعُنّاب يُستعمل في الدباغ[8])؛ يُطبخان جميعا حتى ينعقدا فتُختضب به الجواري، وقال الأصمعي في قول الأعشى: «سخامية حمراء تُحسب عندم».

ويقول أيضا البحار ابن ماجد في أرجوزة أخرى:

**تأمّل وشاوِر واسْهر الليل واعزم* وحقّق ودقّق واحفظ السر واكتُم.**

اسم ذلك الكتاب هو «جامع المبادئ والغايات في علم الميقات»؛ لعالم الرياضيات أبي علي الحسن بن عمر المراكشي (تاريخ وفاته 660هـ/1262م)؛ الذي ألفه حوالي عام 627هـ الموافق لِـ1220م، فيقول ابن ماجد في كتابه «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»: «بل إنّا نقول للمعالمة ونُعرّف الغافلين منهم ونَدُلّهم على الكتب الكبار التي لم تتم صَنْعتُهم إلا بها مثل كتاب المبادئ والغايات تصنيف رجل مغربي من أهل مراكش...».

فماذا يُستخلص من هذه الحكاية التي فيها القليل مما هو مُتخيل؟

---

[7] كلمة يونانية مركبة من إثنتين: (Océan) وتعني إله البحر، و(Gráphein) وتعني فعل (يكتب)، و(الأوسيانوغرافيا) هو علم البحار والمحيطات.

[8] الشرح مأخوذ من: www.almaany.com

**أولا**: عندما تُصنف أفكار المؤلف على الورق وتتخذ شكل كتاب؛ فيرى النور بعد أن كان حبيس المسودات والسراديب والرفوف الغبراء؛ فلا عائق يحول بينه وبين وصوله إلى جمهور القراء من العلماء والطلبة وغيرهم؛ سواء في عصر أوج الكتاب المخطوط، والمكتوب، والمرسوم بالحرف وباللغة العربية، أو بحروف (غوتنبر) المتحركة فيما بعد.

**ثانيا**: اللغة العربية والخط العربي اللذان يؤلف بهما الكتاب؛ هما ما أُنزل بهما الوحي، وأول ما يحفظه الصبية المسلمون، ويُجوّدونه على يد شيوخ العلم الشرعي هو كتاب الله عز وجل، ويؤهلهم آنذاك إلى ارتياد جوامع العلم والمعرفة.

**ثالثا**: ومن ثَمّ فما كتبه أبو علي الحسن بن عمر المراكشي وهو من أقصى الغرب الإسلامي، حيث بلاد (مراكش)، وحيث جامع القرويين؛ أقدم جامعة في العالم؛ حسب ما أقره الغربيون أنفسهم؛ ليس عسير الفهم على الربان العربي ابن ماجد وهو في أقصى الشرق الإسلامي، وما يُستشف من هذا هو جمالية وبلاغة اللغة العربية التي فُتن بها حتى غير العرب والمسلمين من المستشرقين؛ ذات الجملة المركبة من كلمات فيها الفاعل والفعل والمفعول به والمفعول فيه والحال وهلم جرا؛ لا ركاكة فيها، فأسلوب اللغة العربية صاف ينفذ إلى باطن النفس، فيُطربه ويمتعه، لأن مصدره تلك الجملة المحكمة البناء الواردة بالقرآن الكريم، وهي كلام الله سبحانه وتعالى، وفي خطابه ما يمرّنُنا على القول السديد والطيب؛لا غلظة فيه، فتأمل هذه الآية وهي الخامسة من آيات سورة (الصف): «وإذْ قال موسى ياقوم لما تُؤذونني وقد تعلمون أنّي رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين»؛ نداء عفيف اللسان؛ يقع على القلوب المتحجرة؛ فيُذيب قساوتها ويُحيلها إلى ما فُطرت عليه من إيمان يتراحم به بنو آدم عليه السلام.

**رابعا**: حب المعرفة الذي يملأ قلوب أهل لغة الضاد، فقد سافر كتاب «جامع المبادئ والغايات في علم الميقات» على ظهور الجمال والخيول؛

يطوي في تنقله الصحاري والسهوب والجبال والسهول، وعلى متن السفن والقوارب؛ يتأرجح بمياه البحار والمحيطات والأنهار الجَلِبة؛ لا يحول بينه وبين وصوله إلى حيث كُتب له أن يصل حاجز، وقد ألح الطالبون المتعطشون للعلم والمعرفة في طلبه.

أليس هذا كفيل بأن تُبعث أمجاد تلك الحضارة وعلومها الناطقة باللغة العربية والمكتوبة بالخط العربي، والرقي بها، التي ترامت أطرافها شرقا؛ في ذلك الامتداد الواسع للقارة الآسيوية، وغربا في ذلك الامتداد الواسع للغرب الإسلامي، وجنوبا في صحراء وسهوب وأدغال إفريقيا السوداء، وشمالا في فجاج أوروبا وأوديتها وسهولها وهضابها الخصيبة؟

هل باستطاعة أهل لغة (الضاد)، ومن يكتبون بها ويؤلفون ويُدرِّسون، ومن يتعلمها من غير العرب؛ من جُنوس وقوميات أخرى؛ أن يحافظوا على استمرار وجود اللغة العربية؟ ويردُّون على من يتنبأ بمآل لا يُطمئِن؛ أقوالهم التي لا تستند على أي تصور ثقافي وحضاري سليم، فأصل اللغة العربية يضرب بجذوره في عهود أمم قديمة، وأصل الحرف العربي ليس تركيبة مخبرية تُفرض فرضا، فأصله يرجع إلى الحرف الأوغاريتي (نسبة إلى أبجدية أوغاريت[9] القديمة المكتشفة بسوريا الحالية)، كما تطورت عنه العبرية واليونانية واللاتينية.

[9] نسبة إلى (أوغاريت)، وهي مملكة قديمة في سوريا؛ يعود تاريخها إلى عام 7500 ق.م؛ عُرِفت أبجدياتها بأنها تحتوي على ثلاثين حرفا.

# سفِينة (الصّليبي Crusader) الشّبح

ماذا أصاب (هِرقل؛ Hercule) الأسطوري، والذي هو نصف إله كما اعتُبر في عهد الرومان، وظهر في ديانتهم في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح (عليه السلام)؛ ذلك العُتلّ الصنديد الذي يحرس بوابة العالم القديم؛ عند مدخل بحيرة الأبيض المتوسط؟

هل ما تزال تطنّ في رأسه ما كان يتفوه به الرومان ويتشدقون؛ حينما كانوا يقولون: «Mare nustrom»؛ أي ما ترجمته باللغة العربية «بَحرُنا»؛ وما معنى ذلك (بحرنا ولا لأحد غيرنا)؛ إلا تعبيرا على هيمنتهم على حوض البحر الأبيض المتوسط؛ في أوج قوتهم البرية والبحرية، فيحرص هرقل، ويأخذ حذره؟

أَراودت جفني هرقل سِنة من الكرى[10]، فغفا مُستمتعا بدفء مغارته المنقورة في صخور شاطئ مدينة طنجيس (طنجة) الصخري؛ فلم ينتبه لسفينة شراعية حربية اسمها (الصَّلِيبي؛ Crusader)، وهي من إحدى قطع الأسطول الأمريكي؛ غافلته وتوغلت في مياه البحيرة المليئة قيعانها بجرار الأمفورات؛ التي احتوت فيما مضى من القرون على خمر معتق استُخلص من عنب مُخمّر؛ مما تُثمره كروم سفوح الأراضي المخدوشة بالصخور، أو بزيت مُقطر من حبات الزيتون؛ تَزْدان[11] تلك البِطاح والمرتفعات المتوسطية بأشجارها؟

فما شأن تلك السفينة؛ ومن أين قدمت، وإلى أي ساحل من سواحل البحر المتوسط تتجه؟ ومن أولئك الذين يركبونها، ولأي غرض تُبحر، ومن وراءها من الدُّهاة السياسيين، وأما من أحد ينتظرها؟ والسؤال الرئيس هو: لماذا راوغت فتانا ذاك المغوار المُزمجر الأبدي هرقل؟

وأي كتاب هذا الذي ينقل إلى حفدة المهاجرين الأولين إلى القارة الأمريكية أصدق صورة تملأها رعشات الإيمان الصادق؛ لأمكنة مولد الأنبياء والرسل

---

[10] الكرى: النّعاس.

[11] تزدان: تتغطى.

في فلسطين؟ ما فتِئت تُحلق بخيالاتهم في تلك الأرباع المحيطة بضفاف نهر الأردن، وبحيرة النبي لوط عليه السلام (البحر الميت)، ويراودهم حلم الحج إلى هناك حيث صفاء الخلاء؛ ما يزال يُخيم عليه صفاء قلوب الأنبياء والرسل عليهم السلام؟ ذلك هو (الكتاب المقدس).

فما تأبط أولئك الطُّهْريّون البروتستانت (Les Puritains)؛ المنحدرون من انكلترا؛ وهم مسافرون إلى العالم الجديد في سفينتهم التي سموها تيمنا بزهور ماي (May Flowers)؛ غير ذلك الكتاب، ولقنوا مزاميره في معاهدهم اللاهوتية؛ إلى من تحدر من الرواد المهاجرين الأولين من العالم القديم؛ فكان أحن إليهم هو أحراج ضفاف بحيرات وأنهار الشام؛ التي رعى الأنبياء في سُهوبها الأغنام؛ هذه الأنعام الوديعة والنافعة.

أليس هذا ما لم يُكشف عنه، وما هو غائر في البواطن؟ أليست هذه الرغبة العميقة في النفس البشرية هي التي دفعت ذلك المسمى بِـ(وليام فرنسيس لينش؛ 1801م- 1865م؛ William Francis Lynch) أحد قباطِنة بحرية الولايات المتحدة الأمريكية؛ بأن يقدِّم في الثامن من شهر ماي من سنة 1847م؛ مذكرة يطلب بتحريرها الإذن من كاتب البحرية جون ميسون (John Young Mason 1799–1859)؛ بالقيام برحلة استكشافية لمنطقة الشام؛ التي تمور بالديانات والأديرة والكنائس وبقايا الحضارات القديمة، وبالطبيعة المتنوعة، وبلفحات حرارة تخوم صحراء العرب؟ التي كان يتولى أمر إدارتها في عهد الخلفاء الراشدين؛ معاوية بن أبي سفيان (602هـ- 680هـ)، وهي مهبط الرسالات السماوية إلى بني البشر.

أهو حسد من عند أنفس هؤلاء الأمريكيين؛ لأن لا تاريخ لهم؟

ووراء هذه الرحلة ما ينفعهم في دُنياهم؛ فالأمريكي سجين قارته إذا لم يتغلب على رهبته من البحر؛ فيخوض في لِجاج المياه على متن مركب ينقله إلى القارات الأخرى، ومن أجّج هذه الرغبة فيما بعد الرئيس الخامس للولايات المتحدة الأمريكية (جيمس مونرو؛ 1758م- 1831م؛ James Monroe)؛

بدفع ويلات الحروب والصراعات الدموية خارج القارة الأمريكية؛ هنالك ما وراء البحار والمحيطات الخمس، فهو صاحب أُطروحة رفض أي استعمار للقوات الأوروبية حينذاك للقارة الأمريكية، والتدخل في شؤون القارة الجديدة، وفي القرن التاسع عشر أعطت الولايات المتحدة الأمريكية لهذه الأطروحة صِفةً إمبريالية، وقامت بتدخلات عسكرية في جزر (الكارايب) و(هايتي ) و(نيكاركَوا) و(بورتو ريكو) و(كوبا)... إلخ، وما نعاصره حاليا من سياسة أمريكا في مناطق من العالم السافرة؛ إلا امتدادا لهذه الأطروحة الجهنمية.

فتلقى (وليام لينش) الموافقة في 31 يوليوز من نفس السنة، والأمر بالاستعداد للرحلة في 31 شتنبر، فأخذ هذا البحري المُعتدّ بقوة بلده – كما دلّت عليه مذكرات رحلته التي كتبها فيما بعد بأنه أول من رفع العلم الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط، وتنبأ بالهيمنة القادمة– عُدّته وأبحر من ميناء نيويورك في سفينة كبيرة في 26 نونبر برفقة اثنى عشر رجل من جنود البحرية وطبيب وخبير، وأُحيطت الرحلة الاستكشافية بالسرية التامة.

فماذا كان يشغل العالم إلى حدود عامي 1847م و1848م؟

ألم تكن كل من الإمبراطوريتين البحريتين؛ فرنسا وانجلترا ما تزالا تأخذان نفسا من معاركهما البحرية المنهكة التي استمرت لقرون طويلة؛ في المضايق والأنهار والبحار والمحيطات؟

ألم يكن المغرب الأقصى المطل ساحلُه الشمالي على مضيق جبل طارق، وحيث مغارة هرقل؛ ما يزال يُضمد جراحه هو المنهزم التي أصيب بها في معركة (إيسلي)؛ التي وقعت في 14 غشت من سنة 1841م في عهد السلطان العلوي المولى عبد الرحمان (1789م– 1859م)؛ والتي دارت رحاها–ساحقة إياه– في المغرب الشرقي بينه وبين فرنسا؛ يُعاني من شروط قاسية لحرب خاسرة؟ ودونك لوحة زيتية تصور تلك المعركة؛ رسمها الفرنسي (هوراس فيرنيت؛ 1789م– 1863م؛ Horace Vernet)، ولوحات الرسام الفرنسي كذلك (أوجين دولاكروا؛ 1798م– 1863م؛ Eugene Delacroix)، التي

تفنن في رسمها، واتخذت من الفرسان المغاربيين الممتطين لصهوات الخيول، رافعين لمكاحلهم (جمع لمُكْحُلة وهو سلاح للبارود، وهذا وجه الشبه في مُكحُلة كُحل العين)؛ بخفة ورشاقة الفارس المغاربي المنقطعة النظير؛ موضوعا لها، ولم ينفع أولئك المحاربين ذلك السلاح فتيلا، ولا استنفار الأفراد من القبائل المغربية بدون تدريب ولا تنظيم؛ أمام فرق جيش فرنسا المتحركة؛ المتدربة والمنظمة، وأن المغرب بعمله هذا كان بِنيّة نصرة الأمير الجزائري عبدالقادر المسلم المستجير، وقد أُستفتي علماء (فاس) الشرعيين في ذلك؟

ألم تكن الدولة العثمانية في هم كبير، وهو الشروع في إخماد رغبة متأججة في ثورة سيُشعِل نارَها ثُوّار شبه جزيرة البلقان، والترصد لتمردات اعتادت سحقها، أو فشلت في استئصال شأفتها؟

أليست تلك السفينة هي التي أماطت اللثام عن ضعف الإمبراطورية العثمانية، وانكشفت لها هشاشة أطراف الإمبراطورية العثمانية؛ بتنوع هوياتها وأقلياتها ونعراتها؟

فما كان من أمر (وليام لينش) إلى أن خاتل بسفينته (الصليبي) الشبح تلك هِرقْلنا؛ الذي لا يريم عن مغارته وجاوز بها صروح أعمدته، وألقى مرساة سفينته في مياه عاصمة الباب العالي (إستنبول)؛ في الحادي والعشرين من شهر فبراير من سنة 1848م، وبذلك تكون قد دامت الرحلة ذات الأميال البحرية الطويلة شهر واحد.

كان يقدم وليام فرنسيس لينش نفسه إلى السلطان العثماني على أنه موفد من دولة عظمى، ولابد أن تكون في علاقة الدولتين صداقة تفرض أن يحصل على إذن رسمي لاكتشاف نهر الأردن والبحر الميت، وتدليل الصعاب وتيسير المهمة التي من أجلها قدم من العالم الآخر، وأن يوصى به ولاةَ السلطان؛ خاصة والي صيدا ووالي القدس، وأن تُحمى بعثته من أفعال النهب التي تقوم بها بعض القبائل المحلية.

أبحر بعد ذلك إلى ساحل بيروت، ثم عكا وحيفا ليتوغل في بر الشام، وتنتظم رحلته في مجموعتين؛ إحداها كان قد ركب أفرادها قارِبا يطفو بهم على مياه نهر الأردن المندفعة، والأخرى كان قد سار رهطُها بمحاذاة الوادي؛ فيكون اتجاه رحلة (وليم لينش) البرية من الشمال إلى الجنوب، وفي طريقه يُدوّن ويُوثّق كل ما يُثير اهتمامه، ويجمع مما أنبتته الطبيعية المحلية من نباتات وأشجار فريدة؛ كما دَرَجَت عليه الرحلات الأوربية الحديثة الاستكشافية؛ لتُحفظ في أرشيفات متاحف ومختبرات أمريكا الطبيعة، أو لتُستنبت في الحدائق الواسعة الأرجاء المحيطة بالبنايات الفيدرالية.

فاستغرق سفر فريق هذا البحار العسكري سنتين؛ بدءاً من اليوم الذي دفعت فيه الرياح الغربية للشمال الأطلسي سفينته الشراعية؛ من ميناء نيويورك إلى الخضم المحيط؛ إلى اليوم الذي آب فيه إلى وطنه.

فاستأذن قُوّاده لدى عودته في كتابة مذكراته؛ أثمرت تسجيلاتُه كتابا من خمسمائة صفحة وثمانية؛ عنوانه: (سرد رحلة الولايات المتحدة إلى نهر الأردن والبحر الميت؛ Narrative of United States' Expedition to the river Jordan and the Dead Sea)، فيكون قد استوفى ما التقطته عيناه في بلاد الشام، ونقل إلى ذهن الأمريكيين صورة ما كان يجري في تلك البقاع من الأرض؛ فاتضح لهم ما كانوا يجهلونه.

ألا تكون هذه المذكرات هي مصدر ذلك الشر المستطير؛ الذي خيم فيما بعد ولايزال على عرب الشام؟ وقد كان (وليام لينش) المتدين المسيحي هذا من دعاة توطين اليهود في الأردن وفلسطين، وما يستحق التسجيل هو أنه بعد ثلاثين سنة من تاريخ تلك الرحلة الجسورة؛ دعا (تيودور هرتزل، Theodor Herzl 1860–1904)، وهو صحافي وكاتب يهودي من دولة (النسما- هنغاريا) السابقة؛ إلى عقد أول مؤتمر صهيوني عام في مدينة (بال؛ Bâle) بسويسرا في سنة 1897م، والذي تنبأ بإنشاء وطن قومي لبني جلدته في فلسطين؛ فشهدت سنة 1947م أول طلقة رصاص بغيضة إلى كل مسلم

عربي أبِيّ النفس، وإلا فلماذا انصب اختيار (وليم لينش) على تلك المنطقة بالذات؟ ويكون أيضا قد دشن خطا بحريا ستسلكه فيما أتى من العقود تلك البساطات الفولاذية المتحركة على الماء (حاملات الطائرات)؛ لهبوط ذوات المحركات النفاثة وإقلاعها في عمليات استعراض القوة العسكرية التي لا تُقهر.

وهل يعلم القارئ أن طيلة القرن التاسع، كانت قد سادت الغرب حركةٌ فكرية بمثابة موضة تفكير في ذلك العهد، انخرط فيها العلماء والأدباء والساسة والصحافيون وربابنة عسكريون وقواد جيوش وملوك ورؤساء، تدعو إلى تبني دعوة إلى انهاء الهيمنة العثمانية على منطقة الشرق الأوسط، وأعمق من هذا وهو مناهضة الدين الإسلامي، وبعاطفة دينية مسيحية، ولا نتردد في نعتها بحركة صليبية حديثة، وفي إطار أوسع وهو الحركة الصهيونية العالمية.

فما حكاية هرقل إذن إلا هذيانا وحلما أسطوريا بائدا، أن يكون نموذجا لرجال يأتون من بعدنا؛ يدفعون عنا ويلات الحروب التي كابد أهوالها شعوب منطقة الشرق الأوسط، فذلك ما نَتَوخّاه.

# الصَّحفي الكاتب المقتفي للأثر

منذ أن قرأت مقال عرض وتحليل لكتاب؛ نُشر على إحدى صفحات مجلة «عالم الفكر»؛ في ثمانينيات القرن الماضي، التي تصدر من (الكويت)، وحُلم أن أصير مثل ذلك الصحفي الكاتب؛ يُحلِّق برغبتي في عالم مثالي؛ مِلؤُه السعادة التي لا يُنغصِّها علي أي شيء، وكنت آنذاك طالب علم؛ الذي سلك مساربا وطرقا كانت غير معبدة؛ تخترق أحراشا وغابات، وتحيد عن المستنقعات والبحيرات -كان قد سلكها أحد من قبل- أُوفِد للبحث عن عالم باحث اِنقطعت أخباره، ثم بعد نجاحه في أن يجده تأججت في نفسه رغبة استكشاف المجهول من تلك القارة التي نُعتت بِـ(المظلمة).

فمن يكون هذا الصحفي الكاتب؟

ومن هو ذاك المستكشف المغامر الذي ألف عنه هذا الكاتب الصحفي كتابا؟

ومن هو ذلك العالِم الذي فُقد إلى حين تم العثور عنه من طرف المستكشف المغامر بطل الكتاب؟

وما هي تلك القارة؛ التي ظلت إلى حدود النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجهولة لدى أقوام أوروبا؛ التي عرفت ما امتد من القارات والجزر فيما وراء البحار منذ القرن الخامس عشر، وهاجرت جموع منها وتزاوجت وتناسلت فيها؛ فكان قوادها هم الآمرين؛ فسادوا وعاثوا في تلك البلدان فسادا، وقتلوا وأبادوا؟

(ريتشارد سيمور هول؛ 1925م- 1997م؛ Richard Seymour Hall)؛ هو ذلك الصحفي الكاتب الإنجليزي، والذي تكبّد عناء طَرْق كل مكان كان قد وُجد فيه ذلك المستكشف؛ فكتب عنه هو (هنري مورتون ستانلي؛ 1841م- 1904م؛ Henry Morton Stanley)، والشخص الثالث الذي كان هدف قدوم هذا الثاني هو الدكتور (داود ليفينگستون؛ 1813م-

1873م؛ David Livingstone)، وكانت الأرض التي أنّت تحت وطآت أقدام هؤلاء الثلاثة هي (إفريقيا).

لو لم يَقصد (هنري مورتون ستانلي) شرق إفريقيا وحوض النيل في أعظم مغامرات قام بها في ذلك العهد؛ لما طرأت على (ريشارد سيمور هول) فكرة الكتابة عن حياة (ستانلي) ورحلاته الاستكشافية، ولو لم يغب الدكتور (داود ليفينكَستون) والجهل بمصيره في ذلك الصُّقع من إفريقيا؛ لَمَا اندفع (ستانلي) يتقصى الأخبار عنه، وقد جدَّ حتى وجده.

فمن هو (داود ليفينكَستون) هذا أولا، وما الدافع إلى توغله في هذه البقعة من العالم، ومن أوعز إليه ذلك، ومن يقف وراء سفره إلى إفريقيا، وخطط له؟

فأول ما نمهد به هو القول بأن إنشاء الهيئات والجمعيات من مظاهر الدولة الحديثة؛ فقد وعى مسؤولوا هذه الأخيرة بما ينبغي أن يقومون به، وما تستوجبه الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الآنية؛ كذلك ولأغراض تم تحديدها أُسّست في بريطانيا (الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية) في سنة 1830م؛ من طرف مستكشفين وإداريين؛ منهم ثلاثة: السير[12] (جون براو، 1764م- 1848م؛ Sir John Barrow)، وهو مُستكشف وإداري بريطاني، والسير (جون فرانكلين؛ 1786م- 1847م؛ John Franklin)؛ مُستكشف هو أيضا؛ سبق وأن رسم كارطوغرافية ساحل القارة الأمريكية الشمالي، والسير (فرانسيس بوفور؛ 1774م- 1857م؛ Francis Beaufort)؛ وهذا كان أميرالا للبحرية الملكية البريطانية؛ وهو الذي اِبتكر سلم قياس قوة الرياح؛ انطلاقا مما تتركه النسائم والرياح من أثر هبوبها على مظاهر سطح الأرض الطبيعية، أو على منشآت الإنسان الصناعية؛ من

[12] (السير؛ Sir)؛ لفظ استخدم في أواخر العصر الحديث؛ في مخاطبة أشخاص ذوي مكانة اجتماعية أو رتبة عسكرية عليا، ويُخاطب به حاليا أي شخص احتراما، وتقابله كلمة «السيد».

أشجار وأعلام وأمواج البحار وأشرعة السفن؛ يُعرف باسمه (سلم بوفور، L'échelle de BEAUFORT)؛ يتدرج من درجة (صفر) حيث تكون الرياح هادئة؛ إلى درجة (12°) حيث رياح (Ouragan) العاتية؛ أُعتُمد فيما بعد من طرف بحارة السفن الشراعية والسفن البخارية؛ ويُستعمل حاليا من طرف علماء الطقس والمناخ؛ بهدف البحث العلمي والاستكشافات والدراسات الجغرافية.

وبهذا فَـ(الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية) هي المؤسسة التي كانت وراء البعث بالعديد من المستكشفين إلى قارات ما وراء البحار والمحيطات منذ إنشائها، والرحلات البحرية والقارية العلمية؛ منهم (شارلز داروين، 1809م-1882م، Charles Darwin)، الذي كان ضمن فريق من الباحثين الذي أبحر في رحلة علمية على متن سفينة اسمها (ذو بيگل، The beagle) طافت به حول العالم؛ والتي دامت خمس سنوات، و(روبير فالكون سكوت؛ 1868م- 1912م؛ Robert Falcon Scott)؛ الذي كان أول من نظم رحلة بلغ بها القطب الجنوبي في 17 يناير 1912م، ثم صاحبانا قبل ذلك الدكتور (داود ليفينگستون)، و(هنري مورتون ستانلي).

وُلد أول الثلاثة وهو الدكتور ليفينگستون في سنة 1813م، وتوفي في فاتح ماي 1873م؛ كان يشتغل بالطب ويُبشر بالمسيحية، ويستكشف المجهول من القارة الإفريقية؛ لعل ما يُذكر عنه مما قام به من هذه المهمات جاءت بعد أن حقق إنجازات؛ فيها الشيء الكثير من التبشير بدين المسيحية، ومثل ذلك الشيء الكثير في الاستكشاف، وبغرض القيام بهذا الأخير؛ كانت (الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية) قد رأت فيه الأنسب؛ لتُوفِده إلى إفريقيا في سنة 1866م؛ هل لأنه دكتور طبيب، وبتطبيبه سيُرحَّب به من طرف زعماء وشيوخ القبائل الإفريقية؟ وسيستكين أفارقة المناطق التي سيحُلّ بها؛ إلى ما سيُقدمه من أعمال صالحة وخدمات إنسانية يُمليها عليه الدين المسيحي المُبشَّر به، والغاية أن تتديّن الجموع البشرية الوثنية؛ التي ربما كانت

ما تزال منتشرة في تلك البقاع من إفريقية؛ حيث لم يصلها دين سماوي على الإطلاق؛ إذن فحسب الأهالي إلا أنه رجل له علم بالأدْواء ويصف الأدوية الناجعة، أما ما بينه وبين الجمعية الجغرافية هو كشف إفريقيا، تلك الجمعية التي تمثل إحدى الهيئات التي غدت الدولة الحديثة الناشئة، التي وصلت إلى أوج كيانها؛ تؤسسها للدراسة والاستنتاج –كما سق وأن قيل– وبناء على هذا تُلجِم وتُحكِم شعوبا وقبائل ما وراء البحار؛ التي كانت ما تزال في مرحلة البدائية، ويتم دراستها وتحليلها؛ كما تدرس الأنثروبولوجيا الفيزيائية تطور الإنسان؛ مأسورة في ذلك بنظرية (شارلز داروين) في تطور الإنسان، ثم نعلم ماذا حدث فيما بعد؛ بأن جميع رحلات كشف جغرافية إفريقيا كانت تُمهّد السيطرة على بلاد (الكونغو)؛ البؤرة الدموية لاستعمار إفريقيا، وحُكمَها من طرف ملك بلجيكا (ليوبولد الثاني، 1835م– 1909م؛ Léopold II).

لم يكن ما قام به (ليفينكَستون) من أعمال استكشافية هيّنا ويسيرا؛ فما تعترضه من صعوبات تُمتّ بصلة بطبيعة المنطقة لا يُستبعد، وقد حصل أن مرِض؛ والمرض يُقعِد؛ فانقطعت أخباره عن من بعث به للمغامرة؛ فغدا مصيره مجهولا؛ فمن ذا الذي يستطيع أن يقتفي أثره؛ فيعود بالخبر اليقين؛ أهو من الأحياء أم من الأموات؟ فلم تتأخر إحدى جرائد العالم الغربي أن تُوفد أحد مراسليها الصحافيين للبحث عن المسْتكشِف المفقود، وتقصي أخباره؛ كانت تلك هي الجريدة الأمريكية (نيويورك هيرالد)، وكان ذلك الذي يعمل بها هو (هنري مورتون ستانلي)؛ ثاني الثلاثة.

فلا يلي هذا الكلام غير القول بأن (ستانلي) نجح في الاهتداء إلى مكان وجود الدكتور (ليفينكَستون)، وبما أن ما قام به كان مشروعا أشرفت عنه إحدى صحف الغرب المشهورة عالميا؛ فقد انتشر الخبر، ونظر العالم المسَيْطر آنذاك بتكنولوجيته العسكرية وبإمكانياته وبما يُؤهّله إلى هذا الرجل بطلا؛ لأنه أنقذ من انتُدب من طرف جمعية تحاول أن تُحافِظ على سُمعتها، وأن تبقى ناجحة دوما، ولم تُؤسَّس إلا لبلوغ هذه المرامي. كان لقاء (ستانلي)

بـِ(ليفينكستون) حدثا تاريخيا، دَوّن قصته (ستانلي) نفسه في كتاب عنوانه: (كيف وجدت ليفينگَستون؟ How I Found Livingstone)، ووُثّق بتمثالين أحدهما (لستانلي) والآخر لِـ(ليفينكستون)، أُقيما في نفس المكان الذي التقيا فيه.

عاد (ستانلي) من رحلته، وآثر (ليفينگَستون) البقاء في إفريقيا؛ فلم يكن للأول بد من أن يفي بوعده وهو إرسال مساعدات إلى الثاني؛ حيث وصلت إلى هذا الأخير في شهر غشت من عام 1882م.

دفع نجاح (ستانلي) في العثور على الدكتور (ليفينگَستون)، والعود بأخبار عنه تُثلج صدور المنتمين إلى الأوساط العلمية والسياسية الغربية؛ إلى الخوض في عمل هو بمثابة مغامرة محفوفة بالمخاطر؛ كان مشروعا يسيطر على همّ الدول الأوروبية العظمى طيلة القرن التاسع عشر، وعلى عقول وألباب شعوبها؛ وهو إزالة ذلك الستار الصفيق الذي كان ما يزال يُخفي تضاريس وجه القارة الإفريقية، ومعرفة شبكة حوض (الكونغو) وحوض (النيل) المائية ومنابع هذا الأخير، وشرق إفريقيا، وكارتوغرافية سواحلها الشرقية والجنوبية والجنوبية الغربية؛ لماذا؟

لأن الأنهار كانت؛ كما هي أنهار أوروبا الدائمة الجريان تخترق القارة، وتمتد ولا يُوقِف تقدمها ولا تنتهي مياهها المتدفقة إلا في بحيرة داخلية، أو في بحر، أو في محيط مفتوح؛ فهي ممرات سريعة وآمنة؛ إذا ما قورنت بطبيعة البراري المتوحشة، وقد حقق (ستانلي) ما سيجعله من رجالات وعظماء عصره، وهو كشف منابع نهر النيل، وشلالات بحيرة (فيكتوريا)، التي سُمِّيت باسمه فيما بعد؛ بهذا كان مُستكشفًا وقائد فريق الاستكشافات، ويعقد الأحلاف ويُشارك الجماعات البشرية الإفريقية المتحاربة والمتناحرة والمتضادة، وقتّال وسفّاح؛ سافك بلا رحمة لدماء الأهالي المستضعفين والمستعبدين، وإنه لتناقض صارخ بين (ليفينگَستون) المبشر المسيحي البروتستانتي والطبيب؛ الذي كان يدّعي محاربة استعباد الإفريقي ذي السُّحنة السوداء، وبين

(ستانلي) المستكشف المغامر الذي حل لغز إفريقيا، وأذكى شهوة ملوك أوروبا الغربية في استغلال خيرات هذه القارة البشرية والطبيعية، ومهد لمن يأتي من بعده من الأوروبيين السُّبل والطرق لآستعمارها فيما بعد في أوائل القرن العشرين.

وما دفع (ريتشارد سيمور هول)؛ ذلك الصحفي الكاتب؛ والثالث الثلاثة؛ إلا ما تداعى عن تلك المرحلة التاريخية الدامية والمقيتة؛ وهي ثورة (الكونغو) الساعية إلى الاستقلال عن بلجيكا؛ ليُغطي أحداثها؛ مُصطحبا معه كتاب (هنري مورتون ستانلي): (كيف وجدت ليفسنگستون؟)؛ فنتساءل: لماذا فكر (ريتشارد سيمور هول) في أن يتأبّط هذا الكتاب وهو في البلاد التي جاب أرجاءها مؤلفه (هنري ستانلي)، والتي تعيش أطوار حدث الثورة؟ الغالب هو أن يعرف (هول) أخلاطها البشرية، ومكوناتها القبلية، ونُخبتها الإثنية والسياسية كما عرفها (هنري ستانلي)؛ لأن هذا الأخير خالطها وعاش بينها في لحظة تحولها ولقائها بالآخر الأوروبي الوافد، وكان ثمرة هذا التفاعل، وتمثُّل (هول) لِـ(ستانلي)، والتنقل في المسالك والأمكنة والأفضية التي طرقها ستانلي قبله؛ كأنه يقتفي أثره؛ أن ألف كتابه: (ستانلي المستكشف المغامر، Stanley An Adventurer Explored). إنه لعمل فيه ذلك الحس الصحفي المكتسب؛ أنجزه الصحفي الذي خبر مستلزمات المهنة؛ كان ما حدث لم ينته بعد موت (ستانلي)، أو بعد أن صُفيّت النزاعات الأوروبية حول إفريقيا؛ فالحدث ما يزال مُمتدّا، والمؤلِّف لم يُهمل جانبا؛ وقد تصادف وجوده مراسلا بتلك البقعة من إفريقية؛ فيكون قد وفى الحدث التاريخي والسياسي الآني حقه، واستوفى هو ما يتطلب النبوغ الصحفي، فكان مُلهما ومحفّزا، وحلم يقظة كما قلت في البداية.

أُبتُكر الكثير من وسائل التوثيق والتثقيف وعرض المعلومات في وقتنا الراهن، وتَحقّق ما افتُقد في ذلك الزمان فبحَثْت؛ فما تزودت منه عن كل ما كُتب من أخبار عن هذا الصحفي؛ فمن هو وما تعليمه وأين تعلم وتكوّن، وفي

أي مستويات علمية اِرتقى، وفي أية سلاليم ترقّى، وما هي إنجازاته الصحافية الأخرى، وما هي الكتب الأخرى التي خط فقراتها؟

ولد (ريشارد سيمور هول) في مدينة (ماركَات، Margate)؛ الواقعة على ساحل انجلترا الجنوبي الغربي؛ في 22 يوليوز 1923م. قضى سنوات طفولته ببلاد استراليا؛ وما حدث أن أمه انفصلت عن أبيه؛ فعادت به إلى المملكة المتحدة، وفي هذه العودة إلى الوطن ما من شأنه وبدون شك أن يُتيح له ظروفا ملائمة للتعليم؛ فانضم إلى فصول مدرسة (كيبل؛ Keble Collège)؛ إحدى المؤسسات التعليمية التابعة لجامعة (أكسفورد) العريقة، بعد أن تخرج منها نائلا درجة شرفية في اللغة الإنجليزية؛ اِشتغل في أول الأمر لفائدة جريدة (الديلي ميل، Daily Mail) بلندن، ثم سافر إلى شمال (روديسيا)؛ ليساعد في تأسيس جريدة (أفريكان مايل، African Mail)، والعمل محررا لها. بعد استقلال (زامبيا) عن بريطانيا؛ أصبح رئيس تحرير جريدة (تايمز زامبيا؛ Times of Zambia)؛ عاد إلى انجلترا في سنة 1967م؛ وعمل مراسلا لجريدة (ذي أوبسرفر؛ The observer)، أسس في سنة 1986م مجلة (Bulletin Africa Analysis)؛ للشؤون المالية والسياسية، كما خدم خلال الحرب العالمية الثانية في إحدى مُدمِّرات البحرية الملكية البريطانية. ألف عدة كتب للكبار وللشباب؛ تتناول في معظمها مواضيع سياسية تتعلق بإفريقيا، وأخرى في التاريخ وفي السِّير. تزوج مرتين؛ فخلف خمسة أبناء من زواجه الأول؛ توفي في 14 نونبر 1997م عن عمر ثلاثة وسبعين عاما.

مما نُقل عن من كَتب عن هذا الصحفي، ومن خلال عناوين كتبه يظهر على أنه لم يألُ جهدا في الكتابة عن ما يمُتّ بصلة بإحدى جهات القارة الإفريقية؛ وهي شرق إفريقيا وحوض النيل وحوض الكونغو؛ سبق وأن ذُكر أنه كان مُوفدا من إحدى صحف الغرب ليُغطي أحداث ثورة بلاد (الكونغو)، ولم يتأخر في أن يُنشئ نظام كتابة تترابط عناصره؛ وقد وعى بدوره كصحفي، واستثمر ما عاينه وسمعه وقرأ عنه، وهو موجود في المكان

الذي وقع فيه أكثر من حدث وحادث، وقد أضحى استحالة فصل (ريتشارد هول) عن ما جرى في السنوات التي اكتُشفت فيها تلك الرقعة الجغرافية من إفريقية، فينقل هو أخباره وتفاصيله وحيثياته؛ كتابة على صفحات الصحيفة، وما كان يُحتمل أن يقع في المستقبل، وفي ثمانينيات القرن العشرين؛ أي ما يمكن أن يكون عصرا له مميزات؛ ففيه كانت دور النشر في بلدان الغرب في أوجها؛ تلهث وراء الكتابات المثيرة التي تحقق أرباحا طائلة؛ وفي ذلك العهد نشر (هول) كتابه: (ستانلي المستكشف المغامر)، وعرف (هول) إلى جانب كتابات أخرى أوج نشاطه في ميدان التأليف والكتابة.

وما يزال قُرّاء بلاد الغرب يتشوقون إلى القراءة عن عوالم الشرق، ولم يكن الوافدون الغربيون إليها؛ كالصحافيين ورجال التعليم والمغامرين؛ إلا ليكتبوا شغفا؛ ثم تحقيق الشهرة والمال. إن كتبا نُشِرت وما زالت تُنشر في الغرب؛ كمثل كتاب (ستانلي المستكشف المغامر) -وإن لم يطالعه كاتب هذه المقالة إلا أن أهميته تظهر من خلال عنوانه المثير وموضوعه- ذات مستوى عال من التناول والعرض والتحليل، وذات الفكرة المبتكرة والاستشراف؛ لم نقرأها؛ لأن شؤوننا السياسية وأوضاعنا المتردية في هذا المجال أخذت بأغلب اهتماماتنا، والعودة إلى الاهتمام بما هو محلي قد يكون طريقا ملغوما؛ أشبه بالخطو في الرمل؛ فما يُنتج داخل دائرتنا مُتخلِّفا ولا يرقى؛ إلا إذا حاولنا واستطعنا أن نبتكر ونُبدع فوق ما ابتُكر وأبدع الآخرون، ولا يتحقق هذا إلا بالاطلاع على تجارب الآخرين الناجحة، وتطوير مناهج تفكيرنا وبحوثنا وتِقْنياتِنا وتِقانتِنا.

## الغواصة الفرنسية (لاكريول؛ La Créole)

أنقل في البداية ما تحدّث عنه (أندري لوديت، André Le Det)؛ وهو أستاذ فرنسي كان يُدرّس بثانوية (مولاي يوسف) الكائنة بمدينة (الدارالبيضاء) المغربية؛ في سبعينيات القرن الماضي؛ في بحثه الجامعي في موضوع مناخ أو طقس مدينة (الدارالبيضاء)؛ أنجزه لينال به دبلوم الدراسات العليا في علم الجغرافية من جامعة (بوردو؛ Bordeaux) الفرنسية؛ يحمل تاريخ سنة 1962م؛ قال بأن «(فورنستان) يقول-وطبقا للنظرية التي عُرضت سابقا- بأن تصاعد المياه الباردة هي التي تُعطي حيزا لتيار (الكناري) البحري؛ لكن على السطح يكون الماء دافئا؛ والذي لم يفكر فيه السيد (روش). اِرتكز السيد (فورنستان) على معطيات سجلتها الغواصة (لا كريول، La Créole)؛ في سنة 1948م؛ في مسار التيار المفترض، ومن تم سجلت 27° عند مستوى أربعة أمتار من العمق؛ عند جزيرة (لانزاروت[13]؛ Lansarot)، و24° عند جزيرة (فويرتيفونتور[14]؛ Fuerteventur)، و23° في عرض مدينة (مازگان)، وهي مدينة (الجديدة) المغربية الحالية...».

ولما لم يكن بمقدور المغاربة أن يستعلموا عن ما يحدث في محيطهم المائي في ذلك التاريخ؛ أو كانوا في جهل من ذلك؛ اِرتأيت أن أبحث عن ما يمُتّ بصلة بالغواصة الفرنسية (لا كريول)؛ ولو كان قليلا، وأُنقب لعلّي أنتهي إلى ما يفيد وينفع في المستقبل.

إذا تأملنا جيدا في الكلمتين الواردتين في النص -الذي سبق وأن ذُكر والمكتوب بالفرنسية- وهما: «au large de Mazagan»، وأمعنا التفكير في معناهما، وفي سياق كلام الأستاذ (لوديت)، وفيما يريد أن يقصد منه؛ نتوصل

[13] هي إحدى جزر الكناري.

[14] هي أيضا إحدى جزر الكناري.

إلى أن ما يهدف إليه هو أن الغواصة (لاكريول) كانت تغوص في أعماق المياه؛ أو تعوم على السطح؛ على مسافة قريبة من المدينة المغربية (مازاكَان، Mazagan)؛ تُسجل أجهزتُها القياسية حرارة مياه السطح ومياه الأعماق عند نقط عديدة؛ فهي في مياه جزر (الكناري)، وفي مياه (المغرب)؛ وفي عمق نقط متوغلة في المحيط (الأطلنتي)، وما تحصده من معطيات أو بيانات رقمية؛ هو مادة خام لإجراء عمليات إحصائية ودراسات تحليلية مقارنة؛ سيُستنتج منها ما يُثبت وجود تيار مائي يندلق من الشمال (الأطلنتي) إلى جنوبه؛ ويمر بمحاذاة سواحل شمال غرب إفريقيا، ويُؤثّر بشكل مباشر في مناخات وطقوس المنطقة، وهو التيار البحري (الكناري).

هل تكون التكنولوجية التي بُنيت بها هذه الغواصة هي التي اكتشفت التيار البحري المعروف والمسمى بـ(الكناري)؛ الذي نتناوله كثيرا في دراستنا لمناخ بلاد (المغرب) ومنطقة الساحل الافريقي؟ طبعا لا معرفة علمية دقيقة بالأشياء وبالظواهر الطبيعية؛ إلا بتطوير وسائل الرصد والتسجيل والفحص.

لقد خطا الأوروبيون في بلاد الغرب، وأمثالُهم في شمال القارة الأمريكية، ولم يكن المغاربة في ذلك التاريخ قد خطوا؛ كانوا يقفون مُنبهرين؛ لا يدرون ما يفعلون؛ كانت إدارة الحماية الفرنسية تُسيِّر البلاد بإحكام في النصف الأول من القرن العشرين؛ والمغاربة يتوقون إلى التحرر والاستقلال، ولم يكن في متناولهم غير المطالبة بهذا ولا شيئ آخر؛ وهذا إحدى عِبر التاريخ؛ فلنستعبرها.

في أي تاريخ بُنيت الغوّاصة لا كريول؟ وأين؟ وفي أية ظروف؟ وفي أي تاريخ غادرت منصة الإطلاق وطفت على مياه البحر؟ وما مآلها؟ وكيف كان ذلك؟ وماذا يعني اسمها، ولماذا سُميت بذلك؟

الإجابة عن هذه الأسئلة هي قصة الغواصة الفرنسية (لا كريول) التي كانت تجوب مياهَنا؛ في وقت كُنّا لا نبحث إلا عن ما يهمنا وما يلبي حاجاتنا الآنية، وما زلنا كذلك كما تقدم ذكره؛ فإن المحلي المترسب منذ عصور،

وإعادة إنتاجه كما هو من طرف المبرمجين والمجترين لمنافع مادية هو تخلُّف، وصرف لاهتمامات الأجيال عن ما يتحقق وما يُنفّذ في الأمم التي خطت بعيدا.

كانت بداية بناء الغواصة (لاكريول) في سنة 1937م؛ في ورش بناء السفن (نورمان، Normand) بفرنسا؛ أي قبل تاريخ اندلاع الحرب العالمية الثانية وهو فاتح شتنبر 1939م، وقد نشبت المعارك وزحفت جيوش الألمان؛ فدُفع بالغواصة إلى البحر وعلى عجل في الثامن من شهر يونيو سنة 1940م، ولم تكن جاهزة إلا بنسبة ثمانية وسبعين بالمائة؛ فقُطر هيكلها إلى مدينة (بريست، Brest) الساحلية، ثم إلى (نانتيس، Nantes)، وإلى (باليس، Pallice)، وفي عشرين يونيو من عام 1940م؛ كان الألمان قد أوشكوا على الوصول؛ فقَطرَها المركب القاطر (L'Abeille 1) إلى انجلترا؛ حيث بقيت هناك طيلة الحرب العالمية الثانية.

في سنة 1945م، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أُعيدت الغواصة الفرنسية (لاكريول) إلى فرنسا، وأُنهي بناؤها ضمن برنامج إعادة تأهيل أسطول فرنسا البحري، وكان للجنرال (شارل دوكَول 1890م- 1970م؛ Charles de Gaulle) توصيات وتوجيهات آمرة في هذا المجال، ودُفعت إلى البحر للمرة الثانية في الثالث من شهر ماي من عام 1946م.

زُوّدت بأنبوب التزود بالهواء وطرد الغازات؛ الذي يبقى خارج مستوى سطح الماء عند غطسها، وسُلّحت بمدفع ذو قياس ثمانية وثمانين ميليمترا. وُظِّفت للخدمة في بحرية فرنسا العسكرية في فاتح أبريل من سنة 1949م.

يصل طولها إلى ثلاثة وسبعين مترا وخمسين سنتيميترا، وعرضها إلى ستة أمتار وخمسين سنتيميترا، وهي من نوع الغواصات الكلاسيكية الفرنسية التي بُنيت في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين؛ تعمل بوقود (الديزل) على سطح الماء بقوة ثلاثة آلاف حصان، وتغطس في عمق الماء بمحركات كهربائية بقوة ألف وأربعمائة حصان؛ صُنعت للدفاع أو للمواجهة عند السواحل،

وقد اعتبرت كلاسيكية، لأنه ستظهر فيما بعد غواصات جد متطورة تعمل بالطاقة النووية[15]، وكان في صنع الأولى بعض التقليد للألمان؛ خاصة في جهاز التزود بالهواء وطرد الغازات الخارجي.

كانت البحار والمحيطات مسرحا لأحداث درامية على مر التاريخ، ولم ينجح الإنسان في مواجهة مخاطر البحر إلا نسبيا؛ فمياه البحار وفي نوبات هيجانها تبتلع ما يسبح أو يغوص في خِضمّها، وما دام يدور حديثنا عن هذه الغواصة؛ فإن أكثر من ست وعشرين غواصة فرنسية اصطدمت بسفن شحن أو بغواصات أو بأجسام مجهولة، وجميعها تقريبا تتضرر في الكشك الذي ينتصب على هيكلها، وفي أنابيب التهوية ونفث العوادم، ولم تكن الغواصة (لاكريول) بمنأىً عن حوادث البحر؛ فقد تعرضت لثلاثة؛ سيظهر بعد أن تُسرد بعض التفاصيل أنها تمثل ما يتوجب استعراضه عدة مرات في فصول الدراسة والتكوين؛ في ميدان البحرية العسكرية؛ ليُؤخذ في الحسبان دائما، وللحيلولة دون حدوثها مرة أخرى؛ كان قد وقع مثلها، وكثر وتعدد خصوصا في المائة سنة الأخيرة، والذي يسترجعه من الماضي هو تاريخ البحرية العسكرية.

سُميت الغواصة الفرنسية بـ(لاكريول)، ومعنى هذه الكلمة: الأوروبي المولّد في المستعمرات الأوروبية القديمة، أو تعني حلقة أذن كبيرة، أو هي تفيد اللغة الناتجة عن مزج بين لغة محلية ولغات المستعمر الأوروبي، كالفرنسية والانجليزية والاسبانية والبرتغالية والهولندية، والتي غدت لغة أم في تلك المناطق البعيدة. وتدرجت الكلمة من الإسبانية (creollo)، والتي بدورها اشتقت من الكلمة البرتغالية (criado)، وتعني (الخادم). وقد أُعطي ربما هذا الاسم للغواصة الفرنسية لتعني (الخادمة)، وذلك انطلاقا من صورة رمزها والتي هي عبارة عن

[15] أنظر مقالنا المعنون بـِ(نوتيلوس؛ غواصة الجليد)؛ الصفحة (9).

امرأة مُولّدة أو خلاسية -ولدت من أبوين أبيض وأسود- من مناطق ما وراء البحار؛ تبرز من الماء.

إذا قارنّا بين التواريخ؛ فـ(لوديت) يقول أنها كانت قد قاست معدلات حرارة المحيط الأطلنتي في مياه (المغرب) الإقليمية، وفي مياه جزر (الكناري) في سنة 1948م، ومن عاصر أو نقل عن ما صدر عن ذاك يقول أنها غدت ضمن عُدة بحرية فرنسا العسكرية في سنة 1949م؛ فما أنجزته كان خدمة من أجل توثيق ما يَعتمد عليه العلم في تحاليله الاحصائية، وبالتالي كان خدمة للحماية ومواجهة المنافسين والأعداء، وأولئك الذين يُؤجّجون ويُلهبون رغبة شعوب مستعمرات فرنسا في الاستقلال والحرية، وكذلك استخبارها عن قدرات الذي يقود المعسكر الشيوعي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

كان الزعيم العربي الذي أذكى الشعور بالقومية العربية في بلدان شمال إفريقيا (تونس؛ الجزائر؛ المغرب)؛ التي احتلتها فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين؛ هو أحد الضباط الأحرار الذين أطاحوا بملك مصر فاروق بن فؤاد بن إسماعيل (1920م- 1965م)؛ ولم يكن هذا الزعيم غير العقيد جمال عبد الناصر (1918م- 1970م) ذو التوجه الاشتراكي، والذي لم يقم من فراغ؛ كانت قد حمسته قضايا الشعب العربي السياسية آنذاك؛ ومخلفات الاستعمار الغربي بالبلدان العربية التي استقلت حديثا، وخلقُ الوجود الإسرائيلي في بلاد فلسطين، وما تعرض له العرب في ذلك الزمن من انهزامات وإحباطات.

فلن يتحقق إذن الاستقلال الكامل والانفلات من التبعية إلا بخلق اقتصاد وطني موجه؛ فتقرر تأميم قناة (السويس)، وهذا فيه مكسبان؛ اقتصادي وسياسي؛ ماذا يعني امتلاك مصر لقناة السويس؟ هو تجريد دولتين من حصصهما في استغلال القناة، ولم تكن هاتان الدولتين غير فرنسا وانجلترا؛ هذه الأخيرة كانت قد اشترت حصص مصر في عائدات القناة؛ فتعاهدت فرنسا وانجلترا ودولة إسرائيل؛ واتفقوا على سبع نقط، ووقعوا على بروتوكول

اتفاقية (سيفر) السرية؛ في اجتماعهم بمدينة (سيفر Sévres) الفرنسية؛ في 22 أكتوبر 1956م، فهجمت إسرائيل على شرق القناة، واحتلت قوات انجلترا العسكرية (بورسعيد)[16]، ولم يكن لفرنسا بد من أن تُرسل إحدى غواصاتها إلى شرق البحر الأبيض المتوسط؛ فكانت (لاكريول) هي التي ستقوم بما خُطط لها؛ بتنفيذ مهمتين خلال مدة زمنية امتدت من واحد وعشرين أكتوبر من عام 1956م، إلى الثاني عشر نونبر من نفس السنة؛ أولاهما إغاثة ربابنة الطائرات التي ستُغير على مصر وتُقنبل مطاراتها العسكرية؛ بانتشالهم من البحر في حالة هبوطهم الاضطراري؛ ثانيهما التصدي لغواصات العدو التي تتقدم في أعماق مياه القناة؛ فكانت هذه الغواصة إذن داخل الميدان الذي تجري فيه المعركة؛ فأصابتها طائرتان من نوع ( Corsaires 14 F) خطأ؛ أقلعتا من حاملات الطائرات الفرنسية (Arromanches)، ولم تكن بحرية مصر العسكرية في جهل أو في غفلة؛ فهي كانت دائما تدري ما توجبه عليها سواحلها المطلة على البحر الأبيض المتوسط؛ والتي عليها ثغر (الإسكندرية) من تأمين وحماية؛ فأصاب أحد زوارقها الحربية السريعة (Vedette) الغواصة (لاكريول) في أنابيب التهوية والعوادم[17].

يبقى الحادث الثالث؛ فغير بعيد عن ميناء (طولون )الفرنسي المطل على البحر الأبيض المتوسط، وفي البحر اصطدمت –وكما يحدث غالبا– سفينة الشحن الفرنسية (سيدي فروش Sidi Ferruch[18]) بهذه الغواصة في الثالث والعشرين من مارس 1962م؛ مما أدى هذا إلى حدوث ضرر في الكُشك،

---

[16] مدينة تقع في شمال مصر الشرقي ؛ على ساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي.

[17] مفرد الكلمة (عادم)، وهو أنبوب المركبات الميكانيكية؛ يخرج منه ناتج احتراق وقود محركها السائل.

[18] (سيدي فروش) هي شبه جزيرة توجد على بعد 30 كلم إلى الغرب من الجزائر العاصمة، شهدت نزول القوات الفرنسية في احتلال الجزائر في سنة 1830م، وتسمية سفن الشحن الفرنسية بمثل هذه الأسماء معروف، فما السر في ذلك؟ بنيت سفينة (سيدي فروش) في سنة 1949م، وسفينة (سيدي بلعباس) في سنة 1929م، وسفينة (سيدي عُقبة) في سنة 1955م، وهناك أيضا سفينة (سيدي بوسعيد)، وغيرها من سفن أخرى.

وتسرب كميات هائلة من ماء البحر إلى داخل الغواصة؛ وصلت إلى خمسين طنا، وأصيب بعض رجال الغواصة، ولم تحدث أي وفاة؛ روى هذا البعض ممن كان بين أفراد الطاقم وقت وقوع الاصطدام.

بعد سبعة أشهر؛ وفي أكتوبر من نفس السنة (1962م)؛ أُعفيت الغواصة (لاكريول) من الخدمة؛ بأي كيفية تم التخلص منها؟ أبتفكيكها أم بطريقة أخرى؟ نعلم أن الولايات المتحدة الأمريكية صنعت أول غواصة تعمل بالطاقة النووية في سنة 1958م؛ كبديل لعيب في ميكانيكية وهيكل الغواصات الكلاسيكية.

هل كانت الغواصة (لاكريول) تغوص في مياه المحيط الأطلنتي بهدف تسجيل معطيات فيزيائية مياه (المغرب)؛ أم بأغراض أخرى؟ والأرجح أن قائدها ونوابَه كانوا قد حرروا تقارير بجميع مهماتها المدنية والعسكرية؛ ففي أرشيف فرنسا ما يُطلعنا على ما كان يهم بلاد (المغرب) وبلاد (مصر) في خمسينيات القرن العشرين من هذه الناحية، وما كان له الأثر على مستقبلهما الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فتُخول لنا تلك التقارير -كمصادر توثيقية تاريخية- كتابة تاريخ زمننا المعاصر، ولنعرف كيف كانت تجري أمور لم نكن نعلمها، ولم تكن لتتوفر لنا السبل للوصول إلى معرفتها في ذلك الوقت.

# عظام إنسان (بيكين) المفقودة

سَبق وأن قرأت في أحد الكتب؛ قصة استكشاف جمجمة وعظام أقدم إنسان عَمَّر الأرض في أزمنة سحيقة بِبلاد (الصين)، وظللت أستحضرها؛ لأن لها بداية ولم تجد لها نهاية على الأقل في ذلك الوقت؛ ليس المثير فيما اهتُدي إليه من لُقية علمية ضاربة في القدم؛ وإنما ذلك في فُقدانها.

فيظل السؤال: هل ضاعت تلك الموجودات من عظام الإنسان القديم وللأبد؟

لم يصل إلينا خبر العثور عليها إلى حدود كتابة هذا النص، وحسب ما في علم الكاتب ليست هي الشيء القديم، وذو أهمية تاريخية أو علمية أو فنية؛ الذي فُقد أو سُرق؛ وقد ضاعت عظام إنسان (بيكين) القديم تلك؛ في ظروف حرب؛ كما تختفي محفوظات المتاحف، وما احتوته خزانات الكتب من ذخائر علمية، وما جادت به قريحة الأدباء والشعراء، وما تحفظ الخزائن من النفيس من المعادن واللآلئ والمجوهرات؛ في أزمُن الاقتتال والغزوات العسكرية والاجتياحات الكاسحة؛ فكل ما له قيمة مالية وعلمية تمتد إليه الأيد في أي زمان ومكان، فحكاية ضياع جمجمة إنسان (بيكين) الواقعية أندر ما قرأت؛ فإذا كانت أجزاء من هيكل ذلك الإنسان الأول المستكشفة؛ قد فُقِدت على الإطلاق؛ فقد أفلتت أيضا -وبذلك- من أياد العلماء عينة إحدى حلقات تطور الإنسان، والذين يظلون آسري نظرية التطور (الداروينية)، وما تزال الحلقة مفقودة بين الإنسان الذي خلقه الله سبحانه وتعالى في أحسن تقويم، وعلم آدم عليه السلام -جد البشر- الأسماء كلها؛ وبين استنتاجات نظرية تطور هيئات الإنسان؛ من الشبيه بالقرد إلى ما استقام عليه الإنسان الحالي، والانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح.

فما هي قصة استكشاف عظام إنسان (بيكين) القديم؟

إن الذين درسوا جيولوجية الأرض وخصائصها المعدنية، وما يميز أزمنتها وطبقاتها الرسوبية، ومَنْ بحث في تاريخ الإنسان القديم؛ هم من يهتدون إلى الأمكنة والمواطن التي من المحتمل أن توجد فيها بقايا عظام الإنسان الأول وأدوات عيشه؛ ذلك الإنسان القديم الذي عاش منذ مئات الألوف من السنين؛ فهي ضفاف الأنهار القديمة، والبحيرات المنقرضة مياهها، والأودية، والكهوف، وقد يَسبق هؤلاء الخبراء أحدُ المرتادين لتلك الأمكنة من رُعاة ورُحل؛ فيعثر وبالصدفة على البعض من تلك البقايا؛ فتُنظّم على الأثر أعمال التنقيب؛ ضربا بالمَالجَ (المِسجّة) في التراب المترسب، والكشف عن ما هو مطمور تحت تراكمات الأتربة والحجارة، التي حملتها السيول المائية خلال مئات الآلاف من السنين من مكان إلى آخر.

فكان أول من لفت انتباهه غِنى تلك المناطق ذات التضاريس التلية؛ القريبة من عاصمة الصين (بيكين) ببقايا الإنسان القديم؛ أحد الخبراء الجيولوجيين الغربيين؛ سويدي الجنسية هو الدكتور (جوهان اندرسون كونار، 1874م-1960م، Johan Gunnar Andersson)؛ كانت حكومة الصين قد استقدمته في سنة 1914م؛ لخبرته بالمناجم؛ فقام بحفريات؛ حيث عثر في سنة 1918م على عظام بشرية وحيوانية، وبقايا نباتات وآثار لموقد ناري، وفي سنة 1921م لم يكن بمفرده؛ فقد رافقه في عمله كل من عالم المستحاثات السويدي (أوطو زدانسكي، Otto Zdansky)، و(ولتر ويليز جرانجر، 1872م-1941م، Walter Willis Granger) من الولايات المتحدة الأمريكية؛ هذا الأخير كان يعمل في متحف التاريخ الطبيعي بمدينة نيويورك؛ اِستطاع الأول أن يعثر على ضِرسين للإنسان العاقل القديم؛ فكان لما اكتشفه أهمية تاريخية وعلمية.

أَطْلَع الجيولوجي السويدي (أندرسون) أحدَ علماء الإنسانيات على الضرسين وهو الأستاذ (دافيدسون بلاكَ، 1884م-1934م، Davidson Black)؛ الذي رأى في أنهما لإنسان قديم جدا؛ فأشرف على مشروع الحفر

عن بقايا الإنسان، وعلى إدارته منذ ذلك الحين؛ في مكان يُسمى بِـ(زهوكوديان، Zhoukoudian)؛ يقع على بعد اثنين وأربعين كيلومترا؛ إلى الجنوب الغربي من (بيكين).

فمن هو (دافيدسون بلاك، Davidson Black) هذا الذي لاحظ بخبرته أن هناك دليل مادي على وجود إنسان قديم جدا لم يُستكشف من قبل؟

ما كُتب عنه أنه ولد بِـ(تورنتو،Toronto)؛ إحدى مدن بلاد كندا؛ في 25 يوليوز عام 1884م. درس علم التشريح بإنجلترا؛ فكان إلى جانب هذا أنتروبولوجيا وأركيولوجيا؛ ما دام قد اهتم بحضارة الإنسان الأول، والتنقيب عن ما يمكن أن يتخلف عنه.

وما سبب وجوده في الصين؟

الجواب هو أنه كان يُدرّس علم التشريح في جامعة (بيكين).

يُضاف إلى لائحة من مهدوا إلى استكشاف عظام إنسان (بيكين)؛ عالم سويدي آخر؛ كان ما يزال في سن الشباب اسمه (بولين، Bohlin)؛ كلفه (بلاكَ) برئاسة أعمال التنقيب؛ كانت النتيجة هي الكشف عن كهوف وسراديب تحت الأرض، ثم تُوّج البحث بأن عثر (بولين) على سنّ للإنسان القديم؛ فسعى إلى (بلاك) الذي كان يُقيم بالعاصمة (بيكين)؛ مُطلعا إيّاه على هذه السن؛ توصل بها (بلاك) إلى وجود نوع آخر من الإنسان القديم أعطى له اسم: (Sinanthropus Pekinensis)، ومما عُثر عليه أيضا نصف أيمن من فك به ثلاث أسنان وعظام جمجمة.

كان آخر أسماء هؤلاء العلماء هو العالم الصيني الدكتور (باي- ون- شنج، 1904م-1982م، Pie Wenzhong)، وهو الذي عثر على جمجمة سالمة لإنسان (بيكين) القديم، لما سيُعرف فيما بعد بـ(إنسان بيكين، L'homme de Pékin)؛ وكان القدر قد أبى إلا أن يكون من يهتدي إلى هذا الاكتشاف إلا أحد أبناء الصين؛ وفي غياب (بولين) الذي كان يقوم آنذاك برحلة إلى (تركستان)، ثم أن هناك مصادفة وهي أن ما يُحفر عنه ويُزال عنه التراب هي

عظام موتى تُقدّس من طرف الصينيين، وكان يُحرّم على من يحاول النّبش عنها.

لم يكلّ (باي شنج) الصيني؛ ذو الهمة العالية كما شُهد له، أو يفقد الأمل؛ فجدّ وثابر في موقع التنقيب؛ حتى عثر على كهفين، ولوجودهما في أخدود عميق؛ فقد أُدْلي -كما رُوي- من طرف أفراد من فريق البحث بحبال، وقد آذنت الشمس بالمغيب؛ مما يعني أن الليل سيُخفي الممرات والمنافذ؛ فأسرع (باي شنج) إلى الكهف الثاني ليعثر في داخله على جمجمة كاملة للإنسان القديم؛ هذا النوع الذي عاش ببلاد الصين منذ أكثر من نصف مليون سنة؛ فحُمِل الخبر في وقت من مساء ذلك اليوم إلى خبير الحفريات (بلاكَ)؛ الذي وامتثالا للأعراف الأكاديمية والكشوف العلمية، وفي اجتماع أعضاء الجمعية الجيولوجية الصينية؛ أنبأ العالم باستكشاف عظام إنسان (بيكين) القديم في 28 دجنبر من سنة 1929م.

كان (بلاكَ) مُصابا بمرض القلب؛ فانتابته أزمة قلبية وهو في سفح المرتفع الذي يقع فيه مكان الحفريات؛ فحدث أن عاجلته المنية في عام 1934م؛ فخَلَفَه على رأس جماعة التنقيب وإدارة عمليات الحفر الدكتور (فرانز فيدنرانج، Franz Weidenreich)؛ وبذلك استمر النبش في قبور تلك الناحية من العاصمة بيكين مدة عشرين عاما؛ فوصل عدد الأفراد المنتمين إلى أصلاب إنسان (بيكين) القديم الذين عُثر على عظامهم إلى أربعين نفرا؛ إلى حدود سنة 1941م.

وما المثير في هذه القصة هو ما سيأتي ذكره...

اِندلعت نيران الحرب العالمية الثانية في فاتح شتنبر 1939م، واتّسع ميدانُها؛ فدارت رحاها في القارات وفي البحار والمحيطات. دخلت اليابان الحرب في صف دول المحور (ألمانيا وإيطاليا)، ودخلت الولايات المتحدة الأمريكية؛ بسبب المصالح الاقتصادية التي تربطها بفرنسا وانجلترا ساحة الوغى إلى جانب دول الحلفاء (فرنسا وانجلترا واستراليا وكندا...الخ)؛ فتصادمت القوتان

البحريتان اليابان وأمريكا؛ في مجال المحيط الهادئ المائي؛ فحدث أن باغت طيران اليابان العسكري جنود بحرية أمريكا العسكرية في جزيرة (بيرل هاربر،Pearl Harbour)؛ في عطلة نهاية الأسبوع؛ في صباح يوم الأحد 7 شتنبر 1941م؛ ولم يكن من المستبعد أن تغزو اليابان الصين، ومما يُخطّط له في خضمّ هذه الحرب الدائرة هو ما سيُخلّفه دخول الجيش الياباني، وما يمكن أن يُنهب ويُسرق من ذخائر ونفائس وتحف وموجودات، وحفريات أثرية؛ فكان الأمريكي (فرانز فيدنرانج) آخر الموكّلين بمهمة إدارة مشروع التنقيب عن بقايا إنسان الصين القديم كما عرفنا؛ قد غادر الصين إلى بلاده، وأوصى عالم الحفريات الصيني (باي شنج) بالمحافظة على ما تجمع من البقايا الأثرية من العظام؛ خلال مدة ثلاثين سنة، والحيلولة دون وقوعها في أيد الجيش الياباني؛ فخُطّط لنقل تلك اللُّقى من العظام خارج الصين؛ إلى أين؟ إلى أمريكا؛ وكأن ما على سطح الأرض وما تحتها، وما في أعماق البحار والمحيطات ملكا لهذه الدولة العاتية، وكانت هذه الفكرة غير سليمة؛ أن تُنقل مثل تلك الثروة العلمية؛ تحت أمر الغالب والمسيطر والقاهر، خارج بلد وبيئة إنسان (بيكين)، فكانت النتيجة مُحبطة ومُقلقة إلى حد بعيد.

أُحيطت العملية بسرية؛ بالاتفاق مع العالم الصيني (باي شنج) وقائد القوات الأمريكية (وليام اشرست)؛ التي كانت في ذلك الوقت بالتراب الصيني؛ على أن تُنقل الصناديق المحملة بالعظام الآدمية بالقطار الحامل للبضائع؛ والذي سيُغادر (بيكين) في فجر يوم 5 دجنبر 1941م، ويعبر بلاد (منشوريا)؛ لتصل الشِّحنة إلى مرسى صغير صيني يُطلق عليه اسم (شين وانج تو)؛ تكون الباخرة الأمريكية (بريزيندنت هاريسون، Président Harrison) راسية على رصيفه؛ لتُبحر بتلك الصناديق إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ إلا أن الرياح هبّت في غير هذا الاتجاه؛ وكما قيل أن الجيش الياباني البري استولى على قطار البضائع؛ ليُجهل مآل عظام إنسان (بيكين) القديم، وتم أسر القائد

الكولونيل (اشرست) الأمريكي، وأفراد فرقته الذين بلغ عددهم مائتين وخمسين؛ ليُجهل هم أيضا مصيرهم؛ فاختلفت الروايات.

تقول إحداها أن اليابانيين نقلوا صناديق العظام إلى أحد المراكب الحربية؛ أُغرق في خضم المعارك الحربية الدائرة، وأخرى تقول أن اليابانيين ألقوا بالصناديق فيما ألقوا من علب الطعام الأمريكي التي لم يكن مرغوبا فيها، والرواية الثالثة تقول أن اليابانيين؛ وعندما استولوا على القطار الذي كان يشحن البضاعة الأثرية؛ اكتشفوا الصناديق؛ وقد أدركوا أهميتها التاريخية والعلمية.

إن الخوض في موضوع ضياع تلك العظام البشرية القديمة، وفيما يقوده إلى تخمينات تسيطر على المتأمل للحكاية والمتفكر فيها لا نفع له.

أهي محفوظة في مكان ما؟ وهذا فعل مُستحبّ؛ سواء كانت في الولايات المتحدة الأمريكية، أو في اليابان، أو في بلد آخر. أهي ضمن حمولة مركب غارقة في أعماق مياه بحر؟ أكان لدى العامة من الناس وعي بمدى أهميتها في ذلك العهد؛ إذا ما وقعت في يدي أحد؟

هل نكون على صواب إذا قلنا بأنه لم يكن أشدّ اهتماما بالبقايا العظمية في ذلك التاريخ غير الأوساط الأكاديمية الغربية، ومديري متاحف التاريخ الطبيعي المقررين والمنفذين؟

ألا تخرج تلك البقايا عن دائرة ما نُهِب واستُحوذ عليه بشتى الوسائل؛ من طرف الدول القوية التي امتدت توسعاتها الجغرافية في بلدان ما وراء البحار؟ وكانت مؤسساتها الجامعية ومراكز البحث العلمي على وعي مما يُعثر عليه في مناطق العالم؛ من مُستحاثات حيوانية ونباتية وبقايا الإنسان الأول وما تركه على امتداد العصور والأزمنة، وفي مختلف مناطق العالم.

لن يتأخر فيما أوتي خبرة في التحقيق في اختفاء الأشياء أن يطرح سؤالا: أكانت فعلا صناديق العظام في القطار المغادر لبيكين، أم في وسيلة نقل أخرى؟ خصوصا وأنه كان مُخططا أن تُنقل خارج الصين؟

قيل أن الأمريكيين لما احتلوا اليابان عقب هزيمة هذه الأخيرة واستسلامها في 2 شتنبر 1945م؛ بحثوا في أرجاء اليابان بدون أن يعثروا على عظام إنسان (بيكين) القديم.

فما نستعبر به هو أن ما يعثر عليه، وما يكتشف من لُقيات؛ ومن أحجار ومعادن نفيسة، وعظام الحيوانات المتحجرة، وعظام الإنسان القديم وأشيائه، وما يُحفظ في متاحف الآثار والطبيعة، وما يُنقل منه؛ مُعرّض للسرقة والسطو والإهمال والضياع؛ فما يجب على بلادنا هو أن تفكر في أكثر من وسيلة أو طريقة لحماية تراثها المادي؛ فللدّهر نوائبُه.

# الكاتبة الفرنسية وحلم جنّة (عَدْن)

الكتب على الرفوف؛ تعرض مضامينها عناوينا، ومن حبَّر آلة طبعها، ومن درّ بما عنده فأنفق على نشرها؛ إذ تمتد اليد وفي حالة استرخاء واعتياد وشغف بها؛ إلى أحدها؛ فهو كتاب مدرسي باللغة الفرنسية؛ لتلامذة المستوى الخامس من المرحلة الابتدائية؛ كان قد صدر في ستينيات القرن العشرين؛ فتُمرر الصفحات، وتُلفت النظر أبيات قطعة شعرية، وفي صمت تُقرأ؛ تُحيل الكلمة صاحبَ تلك اليد إلى التي تليها، وهكذا؛ فمن كان قد نظم شعرا قال؛ واصفا بالفرنسية؛ إحدى سقايات مدينة الرباط العتيقة:

*Ô voyageur, viens: les arcades sont ouvertes,*
*La fraîcheur règne, sous l'auvent de tuiles vertes.*
*Un peu de jour fait luire, au flanc mouillé du mur,*
*La brique rose et la faïence aux tons d'azur*
*D'où l'eau jaillit en quatre courbes argentines.*
*Pour le repos du pèlerin et du meskine.*
*Viens t'appuyer à cette vasque de granit*
*Qu'un toit protège et que tout voyageur bénit.*
*Tu vas pouvoir laver tes mains, ta face noire,*
*Sans déranger les pigeons blancs qui viennent boire.*
*Viens, la douceur de ces murmures cristallines*
*Fait oublier toutes les pierres du chemin.*

ما ترجمته بالعربية:

يا أيها المسافر؛ أقبل فالأقواس مُشْرعة؛
البرودة تسود، تحث كُنّة من قرميد أخضر؛
قليل من ضوء النهار يسطع على الجانب المبلل من الجدار؛
الآجر الوردي والخزف المزخرف بصوت اللازورد؛

حيث الماء المتدفق بأربعة منحنيات فضية؛
لأجل راحة الحاج والمسكين.
تعالى لتتكئ على هذا الحوض من رخام؛
غير سقف يحميه وكل مسافر يشكر.
تستطيع أن تغسل يديك ووجهك الأغبر؛
بدون أن تُزعج طيور القُمريّ القادمة لتشرب.
أقْبِل فلُيُونة بِلّوْرات الماء المجلجلة؛
تُنسي جميع حصى الطريق.

وتقطع عينا صاحب تلك اليد؛ بياض جزء من الصفحة؛ لتقف عند كاتبتها؛ فهي الشاعرة والقاصة والروائية الفرنسية الأصل (ماري بارير آفر؛ Marie Barrére-Affre)؛ فالشعر إذن جميل، وأصدق من هذا فهو أجمل ما كتبته من كلام شعري؛ وهو من ديوانها المسمى بـِ ( Deux rives au soleil)؛ لأن القارئ منا نحن أبناء هذا الوطن (المغرب) المتعدد الثقافات؛ لهذه الأبيات، وعلى قلتها؛ يذهب به خياله إلى ما تريد أن تنقله هذه الشاعرة؛ وقد فطن لأشياء كان يمر بها، ولا ينتبه إلى ما توحي إليه؛ ليلتفت إلى ما أبدعته يد الصانع التقليدي المغربي عبر العصور التاريخية؛ مُتغلغلا إلى ما كان يدور في خَلداته، وما يجول في خاطره، وما ينبغي أن يعطي لذلك القادم من مظهر فني؛ يُشعره بسعادة لا تُضاهيها سعادة قد يجدها في مكان آخر.

فما تُثير كُنة القرميد؛ التي تُتوج إحدى السقايات؛ بلونها الأخضر البريقي، وما يتركه من آثار نفسية ذلك الخزف بلمعانه المزخرف الذي يعلوه قوس، وتلك الأنابيب المشكّلة من النحاس الأصفر؛ التي تَدْفُق الماء إلى الخارج ببريق الفضة، والمانحة لطعم المعدن للمظة الضمآن؛ ممزوجا بماء بارد عذب؟

أليس هذا أبهاء قصر؛ تصُبّ نوافيره الماء، وتشع حيطانه المزلجة ببرودة، وتبث سُرَره الوثيرة حفاوة لذلك القادم من بعيد؟ وقد تَتعثر خطواتُه بحجر

الطريق، ويُتعِب قدميه حصى المسارب الخشن؛ الذي ألهبته أشعة شمس تلك البلاد وقت الظهيرة.

فمن تكون هذه الشاعرة التي صورت نظما إحدى سقايات مدينة (الرباط) القديمة؟ بوعي ينم على أن صدى موروث تاريخي يتردد في ذهنها؟ فالنافورات فن معماري أبدعته حضارات البحر الأبيض المتوسط، وما الذي استقدمها إلى بلاد المغرب لتُمتّعنا بشعرها التصويري ذاك؟

في بيت من بيوت أحد أحياء مدينة (بيربيكَنان؛ Perpignan)؛ التي توجد في فرنسا؛ والتي تنِزّ حيطانها طُحلبا في فصل الجبال المطير، وتُلهب حيطانَها أشعة شمس صيف البحر الأبيض المتوسط، والواقعة على السفوح الشرقية الشميسة لجبال سلسلة (البيريني؛ Pyrénées)؛ في أقصى جنوب فرنسا الشرقي؛ كان يقيم زوجان؛ لا نعرف إلا اسم الرجل هو (إيدموند آفر)؛ رُزقا بآبنة في 31 يوليوز 1885م؛ أسماها (ماري؛ Marie)، ولما بلغت سبع عشرة سنة من عمرها توفيت والدتها، وبعد أحد عشر عاما مات أبوها؛ أي في سنة 1913م؛ وهي في سن الثمانية والعشرين عاما. ولتتعلم الكتابة والقراءة، ثم تزيد من ثقافتها المعرفية؛ أُلحقت بمدرسة (القديسة ماري) الداخلية بِـ(بيربيكَنام)؛ ولعل التعليم الديني المتأثر بالتعاليم المسيحية هو الذي غَلَب عليها.

وإلى الجنوب الغربي من مسقط رأسها، وعلى بعد مائة كيلومتر؛ في مدينة (ثور؛ Thuir)؛ ولد رجل اسمه (راول بارير؛ Raoul Barrére)؛ في 17 فبراير 1890م؛ كان هو الذي طلب يدها؛ فزُفّت إليه في 9 يناير 1914م، وفي مارس من نفس السنة؛ أطلقت سفينة كانا قد استقلاها الزوجان الشابان؛ من مزمارها البخاري؛ صفيرا يعلن نهاية سفرهما البحري، وأبطأت من إبحارها لتُلقي بمِرساتها بميناء (الدارالبيضاء) ببلاد المغرب؛ التي أُرغم سلطانها على التوقيع على معاهدة الحماية في مارس سنة 1912م، وكان ممثل فرنسا في مراسيم التوقيع الجنرال (أوجين لويس جورج رونو؛ 1857م-

1941م؛ Eugéne Louis Georges Regnault)؛ كان قد توجه إلى القصر الملكي بفاس؛ مُعتليا صهوة جواده؛ بنياشينه وكَتْفياته المرهبة، وقد اصطف على يمينه وشماله خيّالة فرنسا؛ بأبهى الألبسة العسكرية.

هل نبالغ أو ننطق عن هوى النفس، أو نفتري، أو نقول ما لم نعلم؟ فالنفس البشرية واحدة؛ فيما تقاطر على السيدة (بارير) من أسئلة حول تلك البلاد التي ربما قرأت عنها، وسمعت لمن تحدث عنها، وما يخالجها من شعور؛ وهي تطأ بقدميها أرضها التي نسجت عنها في الخيال عالما؛ هو أقرب إلى ذلك الذي تجري فيه؛ حكايات ألف ليلة وليلة؛ فما أمتع قراء بلدان الغرب هو ما تُخيِّل من عجائبية الشرق، وقد حلت بالمغرب الذي هو امتداد لتلك الجهة من الكرة الأرضية؛ فأُلهمت بما عليها أن تكتب لأبناء وطنها؛ المتلهفين لمعرفة ما يسود في تلك المجتمعات ذات الأصل الضارب في الشرق العربي، وفي مناطق ما رواء الصحراء الكبرى، وفي ذات المكان المحلي؛ فهي فرصة لم تُؤت لغيرها، وهذا ما تعكسه عناوين رواياتها وقصصها وأشعارها، وهذا البعض منها: Lalla Aicha, Le balcon sur le désert, Poussiéres dans le Chergui, Zouina la petite Sultane, La koubba des sultanes, Au service du roi, L'aviateur de L'atlas, Timimmet Ksourienne... إلخ.

هل نقول أنها كانت أقرب إلى كاتبة مُستطلعة؟

قد نكون على صواب؛ إذا عرفنا أنها كانت تكتب ما تراه وما تقوم به، وتحرر مذكرات أسفارها، وما خططته ريشتُها من رسوم جُمعت في مجلد؛ طُبع في سنة 1920م؛ تحت عنوان (القصبة من بين الخيام؛ La Kasba parmi les tentes).

تنقلت في غرب البلاد ووسطها، وجنوبها؛ فهي في مدينة (برشيد)، وفي (قصبة تادلة)؛ ثم قاطنة بوادي أم الربيع، وفي مدينة (مكناس). ولعل أمور عائلية أبوية اِضطرت الزوجين إلى مغادرة المغرب في سنة 1920م؛ فهي إقامة

إلى حين؛ في ضيعة اشتراها في شمال منطقة (كاستر؛ Castres)، لكنهما سرعان ما باعاها وعادا إلى المغرب؛ لأن صعوبات اعترضتهما في بلدهما الأصلي فرنسا.

أهي روح المغامرة لإثبات الذات، والاستسلام للكبرياء، أو تحقيق حلم السعادة المثلى التي تراود الإنسان من وقت لآخر؟ في سنة 1927م سكنا بمحيط ساحة فرنسا بمدينة (سطات)؛ كانت كاتبة ومُسعفة مسيحية؛ تقوم بما توجبه ديانتها؛ فقد كانت كما يُذكر مؤمنة، وفي مدينة (تامليلت) على السفح الجنوبي لجبال الأطلس الكبير بنى هذان الزوجان الباحثان عن جنة عدْن؛ بيتا أعطياه اسم (بيت الورود؛ La maison des fleures)، وأسسا مزرعة صغيرة ناجحة. كان زوجها (راوول) يعمل بتعاونية إنتاج زيت الزيتون نهارا؛ وينكفئ ليلا؛ يكتب على آلة كاتبة ما خطته زوجته (ماري) بقلمها، ولما قامت الحرب العالمية الثانية انسحبا إلى مدينة (الصويرة)، ليسكنا في منزل متواضع كان يمتلكاه؛ يحمل رقم 4 بزنقة الحلفاء. بعد انتهاء الحرب عادا إلى مدينة (تامليلت)، واستمرت حياتهما بدون ما يخدش صفوها؛ حتى كان يوم 13 ماي 1955م؛ فماذا حدث؟ لقد توفي (راوول) بمدينة (الصويرة) ودُفن بها.

بعد سنة أُعلن عن استقلال المغرب؛ فما على موظفي إدارة الحماية من الفرنسيين إلا أن يغادروا البلاد المحررة ويدعوها تحيا أفراحها؛ وزوج ابنتها (ماريرون؛ Maryronne) أحد هؤلاء؛ فغادرا هما أيضا بلاد المغرب، ولم يعد للأرملة ماري ما يدعها مقيمة في الأرض؛ التي منحتها أمكنة تخييلية لأبطال وشخصيات قصصها ورواياتها؛ ففي شهر شتنبر، وتحت قطرات أمطار فصل الشتاء القادم الأولى، ورائحة تراب أطفأت سخونته تلك الأمطار؛ تسربت إلى جعبتي أنفها؛ أخذت طريق العودة إلى وطنها الأصلي؛ مُتعقبة ابنتها وزوجها؛ إلى مدينة (سانت سيرز؛ Saint Ciers Dabz Gronde)، وإلى (توس أونطر فال؛ Thués-entre valls) في وادي (طيط؛ Têt)، ثم

توجهت إلى (كوليون؛ Collionne)؛ بشرق جبال (البرانيس؛ Pyrénées)، وفي هذه المدينة وافتها المنية في 23 يوليوز 1963م؛ عن عمر ثمانين عاما، ودُفنت في مسقط رأسها بِـ(يربيكنان).

فقد فرق الموت بين الزوجين بعد واحد وأربعين سنة؛ أمضاياها في بلاد غير وطنهما، وباعدت المسافة الجغرافية بينهما؛ فالزوج الهالك يرقد في تربة غير مدينة (ثور؛ Thuir) التي رأى فيها النور، وهي ترقد بمدينة ميلادها؛ تُرى كم كابدت (ماري) من أحزان المصاب والبعد في أخريات أيامها؛ وقد تركت شريك حياتها هنالك بعيدا ينام نومته الأبدية في مدينة الصويرة؟

وما يجعل هذه الكاتبة حاضرة في ذاكرة من له نظرة إنسانية هو قراءة كتبها؛ والتي كما في علم كاتب هذه السطور نادرة الوجود، وقد بيعت بعض النسخ الأصلية بمزاد بيع التحف بمدينة (الدارالبيضاء) منذ زمن قريب جدا.

وما هذه الورقة إلا محاولة تعريف بهذه الكاتبة إلى القارئ، وهي واحدة من العشرات من الكتاب الغربيين الذين وفدوا إلى المغرب؛ المطلة أراضيه على بحرين، وتستمد ثقافتها العميقة من ذلك الامتداد الواسع للشرق العربي وللعمق القاري لإفريقيا السوداء، وتُيِّموا بطبيعتها المتنوعة العناصر.

# أجران من خشب (البُطم)

إن أهم إفادة يُطْرفك بها الكتاب؛ هي معلومة أو خبر قد لا تسنح لك فرصة الاطلاع عليهما في مكان آخر؛ فكل مضمون كتاب قائم بذاته؛ فريد في لغته وفي صياغة أفكاره؛ بل أكثر من هذا؛ هو يشكل جامعة لأفكاره وألفاظه ومعانيه؛ نادرة هي بعض الأحداث التي تأتي في سياقه السردي؛ لهذا كان للكتاب تلك المنفعة الجمة لمضامينه وأساليبه؛ فإن نُعت بأنه خير جليس؛ لما فيه خير للبشرية؛ فالأجمل أنه يُطلعك على غرائب الأمور؛ فيكون في ذلك كل الجدة في معرفتك للأشياء.

ما ورد في نص إحدى روايات التاريخ الإسلامي؛ أن الأجران التي تُدقّ فيها حبوب البن بِمِدقّ بعد تحميصها على النار لتُسحق، ويُسمع لتتابع الدق أصوات موسيقى متتابعة ومتناغمة الرنات، وفي كل هذا لغة صوتية ورسالة إلى من يُستضاف؛ فيجلس إلى جُلساء؛ تُوزّع عليهم أقداح مسحوق القهوة المغلي في الماء الساخن؛ هي منحوتة من خشب شجرة تسمى بـ(البُطم).

فما هو هذا النوع من الخشب، وما هي شجرته، وأين تنبت، وما هي ثمارها التي ربما تصلح للأكل، وكيف اهتدى إنسان المناطق التي تنبت فيها؛ إلى جعلها مصدرا لخشب تُصنع منه أجران يُهيّأ بها مسحوق القهوة المحمصة؛ هَرْسا بالمهراس؟

نُرجئُ الإجابة على هذه الأسئلة؛ حتى نقول بأن ما مَدّت به الطبيعة المحيطة بالإنسان منذ البداية؛ كان سخاء منها؛ وما تزال على ذلك، وحري به أن يتصرف فيما تزوده به من مواد خام ومستلزمات حياته؛ بروية وبعقلانية؛ فلا إسراف ولا تقتير فيه، ولا ضرر ولا ضرار، ولا مفر من هذا؛ لأنه يأكل ويحيا مما تجود به هذه الطبيعة.

أربعة أشياء صادرة عن الطبيعة كانت قاعدة لنمو وتطور أكبر؛ بل أعظم اقتصاديات العالم؛ ألا وهو اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية الرأسمالي الحر؛

قبل اكتشاف طاقات الأحافير؛ هي قطع الثلج التي كانت تُجلب من مناطق الجليد لحفظ المنتوجات الفلاحية والغذائية السريعة التلف والعفن، ويقال أن هذه الطريقة في الحفظ على طزاجة المواد الغذائية وعلى طراوتها ونقائها؛ كانت معروفة لدى الرومان في العصر القديم، وزيت الحيتان الذي كان يُستخدم في الإنارة العمومية، وفي تعبئة خزانات قناديل إنارة البيوت[19]؛ قبل اكتشاف النفط واختراع الكهرباء، والخشب لبناء البيوت، وأخيرا الذهب، ولهذا الأخير قصة تراجيدية طويلة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية؛ كانت هذه هي العناصر الطبيعية التي استند عليها ازدهار التجارة الأمريكية، وكانت دعامة لإقلاعها الاقتصادي على الأقل في القرن التاسع عشر؛ تناولها بالعرض والتحليل كتاب عوانه: (إمبراطورية الثروة)؛ ألفه (جون ستيل جوردن؛-John Steele Gordon 1944)؛ وهو كاتب أمريكي مُتخصص في التاريخ والتراث؛ نقله إلى العربية محمد مجد الدين باكير، متخرج من كلية الاقتصاد في سورية، ونُشر في سلسلة (عالم المعرفة)، في سنة 2008م.

فإذا حَللْت بجماعة بشرية تُعمّر ناحية من نواحي الكرة الأرضية؛ فابحث في بيئتها، وفيما يحيط بها من كائنات طبيعية؛ كانت نباتا أو حيوانا؛ فستكتشف ما يشدها إلى مكان إقامتها؛ أي مصدر عيشها؛ فمن الطبيعة يستمد ما يُبقيها حية فتُقيم بتلك الناحية، وإلا هاجرت منه؛ فقد يكون حيوانا بريا؛ كشأن قبائل (الإسكيمو) مع الفُقمة ودب براري القطب الشمالي المتجمدة؛ فمن فراء الدب تُدفئ أجسامها ومن شحوم الفقمة تستضيء في لياليها الطويلة المعتمة؛ ويَقْبن أفرادها (بمعنى تنزوي) في قِبان يُقبّبونها بقطع الثلج، ومن جلودها تُغشى قواربهم (الكاياك)، أو نهرا يفيض في وقت من السنة؛ ثم تنحصر مياهه في وقت يلي مُخلّفا طميا خصيبا؛ تُستنبت فيه ما يُنتج الغلل، أو أشجارا كما في شبه الجزيرة العربية؛ تفرز مادة ما يُعرف بالصمغ العربي،

[19] يُحيل المؤلفُ القارئَ؛ إذا رغب في الاستزادة في هذا الموضوع؛ إلى مطالعة رواية (موبي ديك) للكاتب الأمريكي (هرمان ميلفيل1819م- 1891م؛ Herman Melville).

أو مادة لبخور؛ أثرى بهما فيما مضى من العصور عرب تلك البلاد، وغير هذا، فشجرة تنبت فيما ارتفع من تضاريس بلاد الشام؛ تعطي من خيراتها الشيء الكثير؛ وهي ثمار تُزال قشرتها ويُؤكل لُبُّها، وخشب يُصنع منه أجران في غاية الإتقان، بالحفر فيه والنحت عليه وتزويقه، وزخرفته؛ تُدقّ فيها حبوب البن المحمصة؛ فكانت أداة لنشاط يومي ومناسباتي؛ خلق عادات وفُلكلورا توارثته أجيال بلدان الشام والحجاز.

هل تكون حبوب البُن هي التي دفعت قوم تلك البلاد إلى البحث عن خشب يُصنع منه جرن يُرديها مسحوقا قابلا للغلي في الماء الساخن؛ يُستلذ شربُه؟ أم أن تلك الأجران كانت سابقة، فكانت لسحق أنواع حبوب التوابل؛ وهذه جُلبت منذ عهود قديمة من شبه الجزيرة الهندية.

هل في آثار أمم العصور القديمة التي استقرت في بلاد دجلة والفرات وفي الشام، وأنشأت حضارات، وتلك التي قامت بعدها بأزمان؛ مخلفات مادية لأجران ومهاريس؟ وقد تصفحنا صورا فوتوغرافية، وشاهدنا ما يجزم بوجود مثل ذلك، والسؤال الثاني هو: منذ متى جُلبت حبوب البن إلى البلدان العربية، واستُعملت أجران صُنعت من خشب البُطم لهرسها؟

إن في الموسوعات العلمية والتاريخية ما يُغْني معرفتنا بالبُنّ؛ فقد حُرّر بأن الموطن الأصلي للشجرة التي تُعطي ثمارُها حبوب البن هو بلاد (الحبشة)؛ لما يُعطي طقسها الجوي ومناخها من شروط خاصة ومعينة تساعد على نمو تلك الشجرة، وأول بلاد نُقلت إليه للاستنبات هي البلاد العربية- لتنتشر بعد ذلك في بقاع أخرى من العالم- كان ذلك في القرنين السابع والثامن الهجريين؛ الموافق للقرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ومن ثَمّ فأجود أنواع البن الذي تُروّج بضاعةً للبيع في الأسواق العالمية هو نوع يسمى (مُخا؛ Moca)، و البن (العدني)، وبُنّ (الملك؛ Leroy) ، وبنّ (القلعة؛ Kent)، وجميع هذه أنواع من البن العربي؛ أول الأنواع غالي الثمن لأنه ذو نكهة وطعم لذيذين؛ وهو غَلة شجرة؛ كما سبق أن ذُكر أصلها من بلاد الحبشة.

ثم نعود إلى أداة سحق حبوب البن المحمصة؛ الجرن الخشبي؛ فنُحدِّق في شكله؛ ثم نقول أنه سابق لحاجة سحْق حبات البنّ المحمصة؛ بالقياس إلى زمن دخول البن إلى البلاد العربية، وكما لمسنا سابقا فيما تخلف من آثار الأمم السابقة، وإذا تأملنا طويلا في شكله وفي تزاويقه المحفورة على جوانبه؛ نكاد نقول أنها مُستحدثة مع حاجة سحق حبات البن المحمص، ولغرض آخر هو فولكلوري؛ مُتمثّل في الدقات التي يأتي بها الشخص الموكلة له مهمة الطحن بالمهراس؛ متتالية؛ مُصدرة صوتا تطرب له نفوس الذين استُضيفوا لرشف القهوة من أكواب خزفية صغيرة لا أحسب إلا أنها صينية الأصل، ولهذا طقس يتحلق به الضيوف، وتُحمص حبات البن في مَقَالي حديدية أمام عيون الحاضرين على النار، وتُدقّ بالمدق في جرن خشب (البُطم)؛ ثم يُسكب الماء الساخن على مسحوقها؛ فتنقل نسائم النهار أو الليل رائحتها اللذيذة إلى أنوف المدعوين، فتتشممها بشغف.

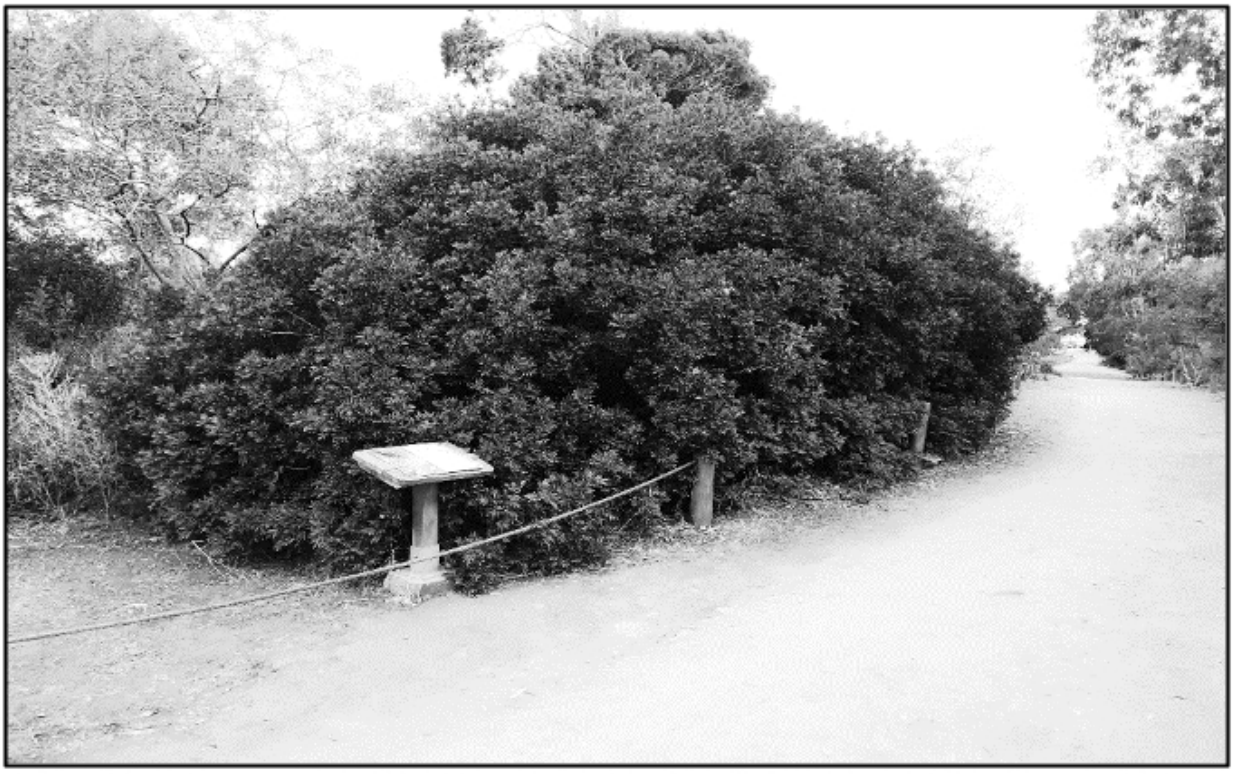

هذه شجرة من أنواع شجر (البُطم): كما كُتب على لافتة عرضها؛ عَثر عليها المؤلف بطريق الصّدفة مُستنبة بغابة (الهرهورة) بمدينة (تمارة)؛ بالمغرب.

ثم نجيب عن أحد تلك الأسئلة التي طرحناها في البداية، فنقول بأن على صفحات الموسوعات العلمية ترد معلومات عن شجرة (البُطم)؛ فهو جنس من الشجر؛ يصل عدد أنواعه إلى عشرة؛ أُشتُهر أحدها بإنتاجه لحبات الفُستق؛ والمعروف بشجرة (الفستق الحلبي)؛ يعرف في العالم بهذا الاسم؛ لأن زراعته بمنطقة (حلب) بسوريا امتدت زمنا ولعدة قرون، ومنها انتشر في بلدان أخرى من العالم؛ تُحمّص حباته وتُملّح؛ لإضفاء لذة في أكله، والإقبال عليه كثير، وتفننت مطابخ الأروبيين في تشكيله بعَقْده بالسكر المذاب في الماء المغلي؛ يُعرف في المغرب العربي باسم البيستاش (Pistach)، واسمه العلمي (Pistacia avera)، ويتراوح طول شجرة (البطم) ما بين أربعة إلى ثمانية أمتار.

أما المعنى اللغوي لكلمة (بُطم)؛ فلم أعثر على ما يُفيد القارئ في هذا الباب، وإذا لذنا بالمعاجم العربية فلا نجد غير أنها كلمة تعني هذه الشجرة التي تحدثنا عنها، ولا ندري أهي كلمة عربية، أم تخلفت عن لغات الشرق القديمة التي كانت سائدة بمنطقة الشام، أو بغيرها من المناطق المجاورة؟ ودون الباحثين هذا الموضوع، فقد يُغني أحدُهم معرفتنا بالاشتقاقات، وبالأصول اللغوية لهذه الكلمة.

# و اقعة (ساحة طريف)

إنها لحرب غيلة (على غفلة من الخصم) تلك التي وقعت في السابع من جمادى الثانية من عام 741هـ؛ الموافق لـ30 أكتوبر 1340م؛ بأرض الأندلس! هذا أدنى مما توصف به، وما نستعبره منها إلا أننا لا نستأمن جانب هؤلاء الأقوام فيما أتى من الأزمان، وهي تدل على أنها من تدبير نفوس مليئة بالضغينة والحقد، والمتعطشة لسفك الدماء أخذا بالثأر، وهي لواقعتين، ولا يفصل بينهما إلا زمن قصير؛ الثانية كانت أشد وطأة من الأولى التي كانت مجلبة لها، ففي سنة 740هـ، الموافق لسنة 1339م؛ أخذ أمير الثغور الأندلسية أبو مالك رأي والده السلطان أبو الحسن المريني علي بن أبي سعيد عثمان (697هـ/1297م- 752هـ/1351م)؛ عظيم دولة بني مرين وفَخْمِهم؛ في أن يزحف على أرض الأندلس؛ بعد استرجاع جبل طارق في سنة 1333م، وقد توغل الأمير في بلاد النصارى؛ فجاوز بجنوده الوادي الذي كان يفصل بين مسلمي الأندلس وبلاد النصارى الأيبيريين، فلما أُخبر النصارى بطلائعه أعدوا العدّة والعُدد، وقد قيل أن ناصحين قالوا له أن «اِرجعْ واعْبُر الوادي فتكون في حيز مدن الأندلس المسلمة»؛ فأبى ولجّ الأمير المقدام، وفي صباح يوم وعلى حين غفلة منه؛ أدرك النصارى، وبأمر من ملك (قشتالة) جماعة الأمير؛ وأفرادَها، وهم في مضاجعهم نائمين، وأدركوا في آن الأمير أبا مالك؛ فقتلوه وكثيرا من القوم؛ هذا ما نقله الإخباريون المسلمون والمؤرخون.

هل يهون هذا على سلطان زمانه أبو الحسن؟ قطعا لا؛ لقد فُجع باستلحام ابنه على أيد (أهل الضلال والتثليث)؛ فأمر على التو بتجهيز أسطول بحري، وطلب مؤازرة صهره السلطان أبو بكر بن أبي زكرياء الحفصي (توفي في 747هـ؛ الموافق لِـ1346م)؛ سلطان المغرب الأدنى (تونس حاليا)، فبَعَث هذا بأسطوله، وعلى مياه بحر مدينة (سبتة) طفت قطع الأسطولين معا، ثم نشَرت أشرعتها، وحمت عضلات مجذفيها، وفي تقريب الأسطولين من بعضهما

البعض؛ في معركة بحرية في عام 1340م؛ جرت على ساحل جبل طارق؛ انتصر المرينيون، ومن الخصم الآخر أُسِر الأميرال وقائد الجند (ألنسو جوفري تينوريو؛ توفي في سنة 1340م؛ Alonso Jofre Tenorio)؛ ثم سُرّح فيما بعد؛ بعد أن افتُدي، ولم ينج من أسطول النصارى إلا ست سفن حربية.

وبعد أن أخذ السلطان أبو الحسن مجلس التهاني بالنصر المحقق والفتح العظيم؛ نزل بـ(ساحة طريف)[20] – كما ينعتها المؤرخون القدامى– بستين ألفا من الجنود المسلمين، وبما شد أزره من جيش (أبي الحجاج يوسف بن الأحمر) صاحب الأندلس، فأحاط المسلمون بساحة طريف التي كانت قد فُقدت من يد الأندلسيين في سنة 1292م.

هل انسحب العدو مهزوما، وتراجع ضامدا جراحه؛ بدون أن يفكر في التخطيط لعملية حربية تحرزه نصرا فاصلا، ويدشن بها بداية عصر تفُوّق؟ ففكر هذا الخصم وخطط؛ لكن ليس لمنازلة الند للند في امتحان للقوة، ومدى استطاعته على الحاق الهزيمة بالمسلمين؛ وإنما رتب لشيء آخر لا يُنعت إلا بكونه يدخل ضمن ما نسميه بحروب الغِيلة.

عاد الأيبيريون من أجل العراك في أسطول آخر، واعترض به ما يمد معسكر المسلمين من مؤن عيش وعُدّة حرب، وكان لهذا بعض النتائج التي رجوها؛ أما ما نريد قوله هو أن الأيبيريين أعدّوا فرقتين؛ الأولى ستُحارب كما جرت به العادة في المواجهات الميدانية، والثانية كمنت في مكان ما لبعض الوقت، ثم تحركت عندما نشبت الحرب، وتسرب أفرادها في طريقهم إلى داخل خيام السلطان أبي الحسن؛ فقتلوا النساء من بينهن حَظيّات السلطان، ونهبوا ما فيها من متاع وأحرقوها، وأنكى من هذا هو أنهم قبضوا على ابن السلطان (أبو عمر تاشفين) وأسروه؛ سيُفتدى فيما بعد ويُحرر، ويعود إلى سِربه

[20] المقصود بـ(ساحة طريف) شبه جزيرة صغيرة توجد في أقصى الجنوب من بلاد الأندلس، ويصلها ببر القارة الآيبيرية رصيف يابسة ضيق، وهي لا تبعُد عن شاطيء المغرب إلا بأحد عشر كيلومترا.

مَوسوسا؛ فتذاع وَسوسته؛ فسُمي بـ (الموسوس)؛ حدث هذا في سنة 1341م، وفي معركة المواجهة أُستُشهِد كثير من غزاة المسلمين؛ فما كان من أمر السلطان أبي الحسن إلا أن يغادر إلى الجزيرة الخضراء[21]؛ ثم إلى جبل الفتح[22]؛ ليُبحر عائدا إلى مدينة سبتة. فأنت تقرأ في كتب التاريخ واقعة (ساحة طريف)؛ فلن تجد في تفاصيلها ما يجعلها نادرة؛ على الأقل في أول وهلة، ولا تجد إلا أنها نتيجة خُدعة حرب كما يتصور البعض؛ فقد فكر العدو في الضرب في خاصرة معسكر المسلمين لإحداث الجلبة فيه ولإضعافه؛ بالتسلل إلى ما يخص السلطان؛ إلى خيام جناحه الخاص بالمعسكر؛ إلى خيام حريمه؛ قد لا يدخل هذا -إذا ما تعمقنا- فيما يسمى بخدعة حرب؛ هذه الأخيرة تُنفذ في عسكرة المتحاربين، وفي مجال تزحزح هذا الجانب أو ذاك، أو تقدمه، وبانتشار عناصره المدججة بالأسلحة والمُقاتلة؛ أما تلك فقد انتهت بخسائر فظيعة في معسكر المسلمين، كانت حرب غيلة، وكان لها وقع كبير في النفوس التي غدت مكلومة بما حدث، وسيكون لها تأثير في خُطة الجهاد بالأندلس.

وأنت تتصور جثث من قُتل غدرا من الخاصة من النساء والرجال، ومن استشهد في ميدان المعركة؛ وهي ملقاة لتُحمل في نعوش؛ في أي مكان أو مقبرة ستُوارى؟ لم يفُت أصحاب القلم، ومن استهواه الرقم على الرق، ولوقع الحادثة الشديد؛ أن يُؤرخ بالتفصيل لقصة نقل أجساد المستشهدين؛ ليُقبروا؛ كيف وأين؟

فالأمر سيكون طبعا للسلطان أبي الحسن الذي عَبر الزُّقاق[23] قائدا لقوات أهل المغرب المسْتَنفرة؛ فتتخيل أثر حادث قتل النساء وحظاياه الشنيع، وأسر ابنه تاشفين عليه، ومدى حرصه على نقل من استشهد في الواقعة. كان من

---

[21] الجزيرة الخضراء منطقة توجد إلى الجنوب الشرقي من إسبانيا الحالية.

[22] هو جبل طارق، الذي كان يسمى على الأقل في عهد المرينيين بجبل الفتح.

[23] هو مضيق جبل طارق.

تلقى ذلك الأمر من أتراح أولئك القوم، والذي صدر بأحزان وكآبة ثقيلة؛ مُخيّمة ومُنفطرة لها القلوب؛ هو الوزير الخطيب ابن مرزوق[24] (710هـ – 781هـ)، ومؤرخ الدولة المرينية، وقد ذكر ذلك في كتابه (المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن)، أو بالأحرى يُفهم من قراءة ما كُتِب أنه كان المأمور، وآخر هو الفقيه القاضي (أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى)، وقد قال أنهما نزلا بظاهر مدينة (طنجة)، وأقاما في ذلك المكان عدة أيام ينتظران رفات الشهداء لينقلانها إلى مدينة (شالة) الأثرية الحالية.

فتلك إذن كيفية نقل شهداء (ساحة طريف)، وذلك كان مكان مثاويهم الأخير.

هل نُبالغ إذا ما قلنا بأن دفيني تربة (شالة) من الشهداء ما يزال يتردد في أذهان الأحياء، وأن للذاكرة إحساس بأن (شالة) مكان أطلال ليس كالأمكنة؟ فهي مدينة الأموات من شهداء قضوا ضحية حرب وقعت على حين غفلة؛ إذ عمدت فرقة من جيش طاغية النصارى خُلسة إلى فسطاط السلطان؛ فأُضرمت النار فيه، ونهبت، وقتلت؛ كما سبق أن ذُكر.

أفرز أمر السلطان أبي الحسن ومدفن الشهداء بشالة قصة مكان محزنة؛ فبقدر ما كان أولئك القوم في نعيمهم؛ إلا أن لحوادث الزمن آثارا سيئة كامنة في أعماق النفس لا تزول؛ كلما استُحضرت في حديث بين صاحبين، أو تراءت الصورة المحزنة؛ فتعود المآتم كما أعقبت حادث المصاب، ولا نستبعد أن السلطان أبي الحسن ظل في غمرة انشغالاته الرسمية يزور قبور الشهداء؛ يجمعه مجلس بالزاوية المتاخمة لقاعة الدفن؛ إلى الأمراء والوزراء؛ يُحيي ليال يُقرأ فيها القرآن، وتلهج الألسن فيها بالدعاء بالرحمة والمغفرة؛ لمن سقط شهيد حرب الغيلة.

[24] هو محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني، كان قد قربه السلطان أبو الحسن المريني واختصه.

إن الفقدان إحساس قد أُجزم بأنه خالج الإنسان منذ أن خُلق، وإلا لماذا بلغ به الحرص ومنذ أزمنة تاريخية غابرة؛ إلى أن يجعل لقبور موتاه شواهد من حجارة منجورة، وأضرحة، وقباب، وبناءات هرمية الشكل، وقد كان لمن ساد من الملوك، والطغاة، والجبابرة؛ حظ كثير من هذا؛ فخُلِّدت أسماؤهم، في جانب آخر من هذا عبرة لمن يريد أن يستعبر.

لولا رغبة الإنسان في معرفة الماضي، والبحث عن ما دُوّن وما رُوي في عصره من وقائع وحكايات وأحداث خوفا من الإخباريين والمؤرخين، ومن استهوته الكتابة في أخبار القدماء؛ أن يطوي ذلك النسيان، لجُهلت الحادثة ولما عُلم منها شيء، وهذا إحساس جميع المؤرخين؛ من عاش في العصور القديمة إلى اليوم؛ فتُذكرنا قبور شهداء ساحة طريف بالنازلة، ولم يَنْبر[25] حتى الآن من يعيد بناء الحكاية بأي صياغة أو شكل كتابة؛ سواء كانت إبداعية فيها نسبة من المتخيل، أو بحوثا تُدقّق وتُحقّق؛ الأولى يُطالعها المتخصص، والقارئ من الفئة العريضة معا.

[25] انبرى هنا تعني تفرّغ؛ وَهَب نفسه لأمر.

# حكاية مخطوط

للمخطوطات العربية الإسلامية حكايات؛ هذا لا يستثنيها عن ما نُشر ابتداء من العصور القديمة التي سادت فيها حضارات على سبيل المثال ولا الحصر: مصر القديمة، وفنيقيا، واليونان، والرومان؛ مرورا بالعصر الوسيط الذي هيمنت فيه الحضارة العربية الإسلامية؛ إلى ما قُبيل اختراع المطبعة من طرف الألماني (جوهانز كَوتنبركَ؛ 1400م –1468م، Juhannes Gutenberg)، والطبع على الورق بالحروف المتحركة، وحتى ما صدر في عصر الطباعة العصرية هذا الذي نعيش فيه؛ فمن الكتب ما وراء تأليفه ونشره حكاية.

ما أُريد قوله، وما أخص به الحديث هو أن ما تزخر به الخزانات العالمية من المخطوطات العربية الإسلامية؛ يطرح أكثر من سؤال؛ كيف انتقلت من بلدان العالم الإسلامي؛ من مراكزه الثقافية ومن جوامعه الكبيرة؛ التي كانت تُعقد فيها حِلق العلم، ومن محلات الوِراقة والنُّسّاخ؛ لتكون نهاية رحلتها في رفوف وصناديق خزانات الدول الغربية خاصة؟

أحيانا أرغب في معرفة حكايتها، وأنصرف عن مضمونها ومُصنِّفِها، أو مؤلفها، أو ناسِخها، وأعرف ما كان يتوخّاه الشخص منها، والذي ظل يُحافظ عليها، وكيف تخلى عنها مقابل شيء ما، أو كان قد عَرضها للبيع، وكلمة (مخطوط) تكاد تخص ما نُسخ باللغة العربية، وقد عرفت الفترة الزمنية التي ازدهرت فيها الحضارة العربية الإسلامية تراكما لا نظير له في نسخ الآداب والفكر والعلوم. إن أغلب ما يوجد من هذه المخطوطات خارج بلدان العالم الإسلامي وبعض بلدان العالم العربي بخاصة قد سُرِق؛ إذا عرفنا أن الضباط العسكريين الذين قادوا فُرُقا من الجند لاجتياح أراضي البلدان الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي الربع الأول من القرن العشرين؛ لهم دور في العملية. لم تكن مهمتهم تقف عند حدود التنظيمات

والأوامر العسكرية؛ وإنما كانت تتعدى إلى الاطلاع ووضع اليد على نفائس هذه البلدان التي استُضعِفت؛ من آثار مادية ومخطوطات منسوخة؛ أحيانا كانت عبارة عن هدايا للتزلّف والتقرّب.

أحد هذه المخطوطات في أهميتها ونَفاستِها محفوظ بخزانة المخطوطات بالعاصمة الفرنسية (باريس)؛ برقم تسلسلي هو: 2292. عن ماذا يتحدث هذا المخطوط، ومن صاحبه؛ أي مؤلفه أو مصنفه، وكيف وصل إلى هذه البقعة من العالم، ومن كشف عنه ونشره؟

ومخطوط آخر لنفس المؤلف الذي سنتحدث عنه؛ يوجد في مكتبة (لينينكَراد؛ Liningrad) بروسيا؛ فمن عثر عليه، وعلى يديه أخذ حظه من النشر؟ ويقال أن مخطوطا آخر من المؤَلّف يوجد بالعاصمة النمساوية (فيينا).لم تكن أقوام هذه البلدان تُتقن اللغة العربية؛ فنُرجّح أن تلك المخطوطات أُقتُنيت في عقود العصر المتأخر، أو سُرقت أو هُرِّبت، وتتعدد الدوافع؛ فهي قد حفظت علوم المسلمين، ونقلتها من مركز تعليمي أو ثقافي إلى آخر؛ فالاهتمام بتلك العلوم وبالمخطوط العربي كان وصية إنسانيي عصر النهضة الأوروبيين (Les humanistes)؛ فقد دعا البعض منهم إلى النهل من علوم اليونان والرومان والعرب، وأحد هؤلاء اسمه (فرانسوا رابلي؛ 1483م- 1553م، François Rabelais)؛ عاصر ملك فرنسا (فرانسوا الأول؛ 1494م -1547م؛ Francois 1er)، و(هنري الثاني؛ 1519م- 1559م؛ Henri II)؛ دعا -وفي إطار نظرته إلى التعليم- بتعلم الخط العربي والاطلاع على كتب الطب العربية، فالاهتمام بعلوم الحضارة العربية الإسلامية يدفع إلى التهافت على أداة تحبيره الأولى؛ وهي هذه القراطيس التي ما يزال بعضها يقاوم البلي وعوامل التحلل والاندثار.

وما يؤدي إليه التطور والتفنن في الوسائل التكنولوجية هو أنه يخدم هذه المخطوطات بمنافع؛ من حفظ وصيانة وتصوير وتسجيل، ولا يُستبعد أن يظهر من هذه الوسائل التكنولوجية والبرمجيات المعلوماتية ما يُدهِش وينشرح

له الصدر؛ فإنه ما هو من الماضي حتى السحيق منه سيُبعث بحالته الأولى والأصلية.

هذا المخطوط هو مجموع تسعة عشر مؤلفا؛ في شكل نظم على بحر الرجز؛ فهي تُعرف بذلك بالأراجيز، وقد درج بعض العلماء المسلمين على تأليف كتبهم نظما؛ لمكانة الشعر عند العرب، وعلى بحر الرجز لسهولته وحفظ المنظوم عن ظهر قلب من طرف المتلقي والمتعلم. يُصنف موضوعه في علم البحر؛ ما يُطلق عليه حاليا بِـ(الأوسيانوكَرافيا)، أو في الملاحة البحرية الفلكية؛ مؤلفه هو الملاح العربي العماني (شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي)؛ تاريخ ميلاده غير مُحدد؛ فمن المحققين من يقربه بين 835هـ و840هـ، ومنهم من يحدده في عام 838هـ؛ أي أنه عاش خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي؛ ثم عند ذكره تُستحضر حكاية إرشاده للملاح البرتغالي (فاسكو دي كَاما؛ مولده في سنة 1460م أو 1469م، وفاته في سنة 1524م؛ Vasco de Gama)؛ الذي وصل إلى رأس (الرجاء الصالح؛ Cape de Bonne- Espérance)؛ في أقصى جنوب القارة الإفريقية؛ سنة 1498م؛ فأبحر في اتجاه الشمال الشرقي؛ بمحاذاة ساحل إفريقيا الشرقي؛ ممهدا الطريق البحري؛ الذي لم يطرقه من قبل أي بحار أوروبي؛ والذي يؤدي إلى شبه الجزيرة الهندية؛ بلاد التوابل، والسؤال الذي أُثير وما يزال: ما مدى صحة قصة إرشاد ابن ماجد للملاح البرتغالي، وهل الذي أطلع الربان الأيبيري على المسلك البحري والسبيل إلى الهند هو فعلا ابن ماجد؟ حتى لا يُجهل هذا، وليس موضوعنا في هذه المقالة.

ألّف ابن ماجد كما ينبغي أن تكون عليه المؤلفات والمصنفات والكتب؛ قدم لها وسطّر الدوافع والأسباب، وأنه لم يؤلف إلا لأنه ورث فن الملاحة عن أجداده، وأنه خبر هذا العمل، وأكثر من هذا فقد اطلع عليه في كتب الجهابذة من البحارة الأوائل؛ هذا جانب في أهمية ما أُلِّف وما ظل مخطوطا لما أُلِّف؛ عدا ما تفتق ذهنه وفكره وذكاؤه عن تفاصيل التعاطي للإبحار في

المحيط الهندي؛ التي ضَمَّنها في كتبه؛ فابن ماجد قارئ ومُطلع على ما في كتب الأوائل، وباحث وممارس لمهنة، ومُتفان فيها، ومغامر ومُستكشف؛ فهو شخصية نموذجية وجب الاحتذاء بها؛ ومثالية في التحصيل والعلم، والرجل مؤمن أشد الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وكثيرا ما ردد في نثره وفي أراجيزه من اللفظ؛ ما يدل على هذا وما يوحي إليه[26]، وفي رأيي أنه لم يوفّ حقه من الاستفاضة في الكتابة عنه، وفي البحث في حياته، وفي سيرته المهنية، وفي التعمق فيما خلفه لنا من كلمات ومصطلحات في الملاحة البحرية الفلكية، ولعل مرد هذا أن الذي سينبري للقيام بهذا العمل أو هذه المسؤولية؛ لا بد أن تتوفر فيه شروط معينة، وهي أن يكون له علم بالملاحة الفلكية وبالجغرافية القديمة، وبكل ما يدخل في علم البحار، وبالجملة لا بد أن تكون له دراية بتاريخ العلوم ، والحاجة أيضا إلى من يُموّل البحث الجامعي الأكاديمي.

يضم المخطوط تسعة عشر كتابا؛ منها كتاب: (الفوائد في أصول البحر والقواعد)، وكتاب: (حاوية الاختصار في أصول علم البحار)، وثلاثين أُرجوزة؛ جميعها نصائح عقائدية، وفي عوائد البشر، وبالأخص في مجال البحر.

قد يكون أول من اكتشف مخطوط باريس هو المستشرق الفرنسي (جبرييل فراند؛ 1864م- 1935م، GABRIEL Ferrand)، ثم نَشَره خلال فترة زمنية امتدت من 1921م إلى 1923م؛ إذن فهذا واحد من أولئك المثقفين الغربيين الذين تُيّموا ووُلعوا بكل ما يمت بصلة بحضارات الشرق؛ من بينها تركات الحضارة العربية الإسلامية، ومن ثمَّ؛ فمن أين جاء اهتمامه بذلك؛ أو من هو؟ وقد قام بعمل فيه خدمة لتلك الحضارة التي كانت مزدهرة؛ يُشكر عليها؛ فالعالِم والمثقف والأكاديمي يستسلم، ويستجيب للإنسانية التي تطبع العلوم، وقلما ما تتجاذبه الأيديولوجيات والميولات السياسية؛ يحكى أن

[26] الرجوع إلى المقالة المعنونة بـ(عالم من الغرب الإسلامي)؛ الصفحة (19).

(كَبرييل فراند) ولد بمارسيليا، وتوفي بباريس عن سن الواحد والسبعين، حصل على دبلوم من مدرسة اللغات الشرقية في باريس، تخصص في دراسة جزيرة (مدغشقر)، وتعلم لغة أهاليها، واهتم بالملاحة العربية في المحيط الهندي؛ طبع من الرحلات الجغرافية العربية كتاب (مروج الذهب) لعلي بن حسين المسعودي (896هـ -956هـ)، ورحلة محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة (703هـ- 779هـ)، وعمل في السلك القنصلي؛ إذ كان قنصلا لفرنسا في مدغشقر وفي ألمانيا وفي الولايات المتحدة الأمريكية؛ من كتبه أحدها عنوانه: (المسلمون في مدغشقر وفي جزر القمر) صدر في سنة 1891م، وآخر عنوانه: (المدخل إلى علم الفلك البحري العربي) صدر في سنة 1928م.

ومن المستشرقين الآخرين الذين اهتموا بمخطوطات ابن ماجد مستشرقان روسيان؛ أحدهما هو الأستاذ (كراتشكوفسكي أغناطيوس؛ 1883م- 1951م؛ Ignati Kratchhovski)، عثر بمكتب الاستشراق في لينينكَراد على ثلاث أراجيز لابن ماجد لم تحظ بالنشر، فالذي قام بنشرها وزاد بأن علق عليها وهو الثاني من هذين المستشرقين؛ تيودور شوموفسكي (1913م- Theodore Chumovska)، في كتاب نشره باللغة الروسية في سنة 1957م، وكانت تلك الأراجيز موضوع رسالة الدكتوراه؛ أنجزها وهو في فترة اعتقاله ونفيه ما بين سنتي 1946م و1948م؛ عنوانها: (ثلاث رسائل مجهولة لابن ماجد)؛ نوقشت في جامعة لينينكَراد، وكان سبب سجنه هو أنه كتب مقالا يدافع فيه عن أستاذه كراتشكوفسكي الذي كان أُتُّهِم بجملة «عبادة الغرب والسجود له».

هذا هو المخطوط، وكان ذاك هو مؤلفه، وذلك هو أول محقق له وناشره...

يبقى أن نسأل؛ كيف وصل هذا المخطوط إلى خزانة المخطوطات الباريسية؟ ثم نجيب بداية؛ بأن في زمن كان الحاكم في البلاد التي تمتد رقعتها الجغرافية من المحيط الأطلنتي إلى الخليج- الذي يتخذ اسمين؛ فهو في خرائط أُناسٍ (عربيّ)، وفي خرائط آخرين (فارسيّ)، وأفراد من قوم ثالث يأخذ بالثاني

نكاية في جنس العرب، وفيما يمتُّ بصلة به- قد غُلب على أمره في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ولم يعد له من سلطان إلا أن يتقوقع ويتحفّظ؛ حماية لعرشه ولصولجانه.

ففي قراءتي لأحد الكتب المنشورة في المشرق؛ في سبعينيات القرن الماضي؛ التي سردت فقراتُها حياة (ابن ماجد)؛ طالعتني معلومة تفيد بأن خزانة المخطوطات بالعاصمة الفرنسية باريس؛ حصلت على مخطوط كُتب (ابن ماجد) البحري من شخص ينحدر من بلاد الجزائر؛ كان يعمل أستاذا بمدرسة اللغات الشرقية بمدينة باريس، حدث ذلك في سنة 1860م، أي بعد ثلاثين سنة من احتلال الجزائر؛ من طرف فرنسا.

حتى لا يثير ما أقدم عليه هذا الأستاذ من سخط في نفوسنا؛ فإننا نلتمس له بعض العذر... كيف؟

فهو التقهقر والتشرذم والإنهزامات والإذعان إلى الآخر القوي؛ في ظل ذلك الحاكم المهزوم؛ التي ابتُليت بها ضفة البحر الأبيض المتوسط الجنوبية؛ فقد احتلت فرنسا الجزائر في سنة 1830م؛ في عهد الملك (شارل العاشر؛ 1757م- 1830م؛ Charles X)، والحادثة الذريعة معروفة عند المؤرخين وغيرهم وهي ضربة مروحة باي الجزائر؛ إلا أن الدوافع الحقيقية؛ فهي مرتبطة بظرفية كان يجتازها غرب البحر الأبيض المتوسط في ذلك التاريخ؛ فالأستاذ الجزائري إذن من القوم المغلوب، والغالب فرنسا؛ تُصرّف أمورها كيفما تشاء في الذي أخضعته بقهرها.

هل كان الأستاذ الجزائري قد فعل حسنا؟

لأن ظروف التخلف السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ التي كانت تمر بها بلدان شمال إفريقيا آنذاك؛ لم تكن ملائمة للتفكير في حفظ ممتلكاتها من المخطوطات، وأشياء أخرى من القديم؛ ذي أهمية تاريخية، وفنية، وأدبية، وفكرية، وأن الكفاح السياسي والمسلح هو ما كان يشغل القائمين بأمرها؛ فالأستاذ كان يتمتع ببعض النعيم في غير دياره، والمخطوط إذا ما ظل في

أرض تمور بالنوائب والحوادث السياسية، التي لا تُبقي ولا تذر قد يُفقَد وإلى الأبد.

ما ذُكر حتى الآن يزيد من رغبتنا في معرفة المزيد عن هذا الأستاذ؛ أين كان مولده من بلاد الجزائر، أين تعلم، وفي أي مستوى من التعليم والتحصيل العلمي ترقى، وماذا كان يدرس بالمعهد الذي كان يُسمى آنذاك بمعهد اللغات الشرقية؟ والسؤال الأهم: من أين حصل على ذلك المخطوط النفيس، وماذا كان يدور في خَلَده عندما تأبطه ورحل به إلى فرنسا، وما بُغيته من ذلك؟

فأما المعهد فما يزال قائما، ويحمل اسم (معهد لغات وحضارات الشرق)؛ يُدرّس به أساتذة من أقطار المغرب والمشرق، وآخرون من أوروبا، وما يزال ينتسب إليه طلبة، وله موقع في الشبكة العنكبوتية هو: (http://w.w.w.inalco.fr)، ويُتيح لمن أراد مراسلته بالبريد الإلكتروني؛ أيتكبد أحد أُطر إدارته؛ مشقة البحث عن بطاقة تُعرِّف بذلك الأستاذ؛ ما تزال محفوظة في قسم أرشيفاته؛ إذا طُلب منه هذا؛ فبيننا الآن وبين سنة 1860م ما يُناهز عن مائة وأربعة وخمسين سنة؟

# معركة (أبي قير) البحرية[27]

عندما يخطر ببالي ما قرأته عن معركة (أبو قير) البحرية؛ أستحضر أجواء ذلك الزمان؛ يقع تاريخه في السنوات الأولى من عقد تسعينيات القرن الماضي؛ كنت ما أزال طالبا؛ أسكن بيتا من بين بيوت أحد الأحياء المتواضعة؛ إلا أنه كان هادئا؛ قليل الحركة والضوضاء؛ فكانت سكينته تساعدنا نحن طلبة ذلك التاريخ بأن نمتع أنفسنا بالقراءة والاطلاع على الجديد، والتزاور من أجل مبادلتنا للكتب والمجلات؛ فكانت ذكرى ذلك الحي وذلك الزقاق التّرب؛ الخالي في أغلب الأحيان من الطارئين والطارقين؛ تداهمني بين حين وآخر؛ كان قد وقع بيدي أحد أعداد مجلة (آخر ساعة المصرية)[28]؛ ما رأيت أن الذي ميز هذا العدد هو استجواب صحافي قام به أحد الصحفيين، وكان المُسْتجوَب هو أحد أعضاء فريق الغوص في أعماق مياه البحر، أو مشرف، أو منسق؛ لا أذكر بالضبط؛ المكون من مصريين وفرنسيين؛ كانت مهمتهم انتشال بقايا حمولة سفن الأسطول الفرنسي؛ هذا الأخير الذي دمّر قِطَعه البحرية الأسطولُ الإنجليزي في معركة بحرية حدثت في اليومين الأول والثاني من شهر غشت من سنة 1798م؛ في خليج (أبي قير)[29]؛ قبالة الساحل المصري؛ فحملت تلك الحرب اسم (معركة أبي قير البحرية).

تندرج العملية في مجال بحث مختص أشمل؛ وهو التنقيب عن الآثار التي خلفها الإنسان في أمكنة نشاطاته وأعماله اليومية، ومن خلال ما يتم العثور

---

[27] المعلومات التي طعّمت هذا النص أستقيت من كتاب Histoire des combats ; d'Abou Kir, de Trafalgar, de Lissa, du Cap Finistère, et de plusieurs batailles navales, depuis 1798 jusqu'en 1813. Paris, 1829. مؤلفه مجهول؛ وكما ذُكر في بداية الكتاب؛ السبب لحساسية الموضوع في تاريخ نشره.

[28] مجلة تصدر من مصر يوم السبت من كل أسبوع باللغة العربية؛ كان أول نشر لها في عام 1934م؛ تهتم بالواضيع العامة؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخبار.

[29] خليج بحري يوجد إلى الشمال الشرقي من ساحل الإسكندرية.

عليه؛ فإنه تتم صياغة القصة الحقيقية؛ أين، ومتى، وكيف، ومن أنجز تلك الأعمال لتلبية حاجة ما، وما نتج عنها من أحداث تستحق التأريخ.

الذي أعطى حرارة للقاء الصحفي المنشور؛ فزاد إغراء بالقراءة فكان شيقا وممتعا؛ لن يوجد بمثل هذه التجربة في محل آخر؛ هو أن ذلك العضو المُسْتجوَب عاش أطوار التنقيب، والتقطت عيناه ما غار في مياه الأعماق، وما ترسب عن المعركة البحرية، وما يزال في مكانه منذ قرنين، واحتفظ بما رأى وسمع، فنقل مراحل المعركة كأنها لم تجر إلا بالأمس القريب.

سأحاول ما استطعت إلى ذلك سبيلا؛ أن أنحو منحاه؛ فأحكي ما حدث اعتمادا على ما استقيته من معلومات من مصادر ومراجع أخرى؛ فأتدرج من السياق التاريخي العام للحدث؛ فالأسباب الآنية المباشرة، ثم نحيا تكتيكات المعركة البحرية، ونهايتها الدرامية.

كان الأسطول الفرنسي هو أول من رست فرقاطاتُه وبوارجُه ومراكبُه البحرية؛ في مياه خليج (أبو قير) الضحلة إلى الشمال الشرقي من شاطئ مدينة الإسكندرية في فاتح يوليوز 1798م، ووصل أيضا إلى الإسكندرية الأسطول الإنجليزي في فاتح غشت 1798م؛ على الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة نهارا، ولم يكن إبحار هذا الأخير إلا عملية تعقب للأول؛ لتجري المعركة البحرية.

فما الداعي إلى وجود الأسطول الفرنسي في شرق البحر الأبيض المتوسط، وبالضبط قبالة ساحل شرق الإسكندرية، أو ما هي أسبابه؟

ثارت فئات اجتماعية في فرنسا في العقد التاسع من القرن الثامن عشر؛ لأسباب كثيرة؛ أبرزها أزمة 1789م الاقتصادية، وهذه كانت بسبب نقص في المحاصيل الزراعية أدى إلى ارتفاع في أثمان الخبز، وهذا كان راجع للأحوال الجوية الرديئة؛ التي أثرت بشكل سلبي على أرياف فرنسا، وكذلك بسبب معاهدة (إيدن راينيفال؛ Eden- Rayneval) التجارية غير المتكافئة بين فرنسا وانجلترا، والموقعة في 26 شتنبر 1786م، والخسران المبين؛ هو الذي

مُنيت به قوات فرنسا الإستعمارية في شمال القارة الأمريكية، ولم تكن فرنسا قد جنت من القارات والجزر الممتدة فيها شيئا ينفعها في الوطن الأم.

كان في تلك الفئات الاجتماعية البرجوازيون والحرفيون وذوو الدخل الضعيف، والذين لا دخل لهم؛ لقد سئم الجميع الأغنياء والفقراء على حد سواء؛ سلطة الملك وسلطة الكنيسة؛ فطُمِر نظام سياسي واقتصادي واجتماعي؛ لم يعد يُلبي رغبات وحاجات نسبة كبيرة من المجتمع الفرنسي، وتم إقرار النظام البديل؛ فحدثت الثورة الفرنسية، وبما أن أسبابها كانت عديدة وظروفها معقدة؛ فإنها مرت بثلاث مراحل؛ في أولاها أُجبر الملك على العودة؛ ذلك أنه فرّ من بطش الشعب الذي تغلي نفوسه المتأجّجة، وأُنشأت ملكية دستورية، في ثانيها أُعدم الملك وهيمن اليعاقبة[30]، وداومت المقصلة ساعات عملها؛ بل طلبت المزيد من رؤوس التُّعساء، وفي ثالثها استولى الجمهوريون وتحالفوا مع الجيش، وكان الضابط العسكري الميداني الذي سيجعل فرنسا تحيا أمجادا تاريخية هو (نابليون بونابارت؛ 1769م- 1821م؛ Napoléon Bonaparte).

أليست مبادئ الثورة حلما سياسيا يراود المستضعفين في أي مكان من البسيطة؟ ولم يعد كذلك في فرنسا فقد طُبّقت بحذافيرها، وبما أن الفرنسيين كان لهم السبق والريادة والاختراع والنجاح؛ فهم الموكلون دون غيرهم بنشرها والتبشير لها، وصارت سمة الرجل الأبيض، فقاد نابليون جيشا جرارا مُحقِّقا به انتصارات على أعداء فرنسا داخل القارة الأوروبية، ومُحتلا به كل من إسبانيا وإيطاليا؛ فيكون بهذا قد بسط نفوذه على ضفة البحر الأبيض المتوسط الشمالية، وبدون ضفة هذا البحر الجنوبية لا يصبح بحيرة فرنسا، وفي ذلك مزاحمة لقوة بحرية؛ لها معها حساب منذ عهد قريب؛ تحتل (جبل طارق) عند بوابة البحر الأبيض المتوسط، وهي بريطانيا، وكانت قد فكرت في مشروع

[30] هم أعضاء ناد سياسي للثورة الفرنسية، وسُمّوا باليعاقبة؛ نسبة إلى دير اليعاقبة؛ Le Club des Jacobins، وهو دير الدومينيكان؛ Le couvent des Dominicains؛ الذي التقوا فيه.

معبر أو ممر أو قناة تصل بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر؛ الذي يقود إلى الهند جوهرة التاج البريطاني، ويكاد يُجمِع المؤرخون للتاريخ العسكري أن أسطول فرنسا البحري ضعيف التجهيز بالمقارنة مع أسطول انجلترا.

فانتصارات نابليون العسكرية في أوروبا؛ حمّسته على أن يحمل على مصر، ولم تكن حملة عسكرية فقط؛ فقد اصطحب معه علماءً مختصين، وهم الذين سيكشفون عن أسرار حضارة مصر الفرعونية القديمة؛ التي كانت ما تزال أشياء كثيرة منها وإلى حدود ذلك التاريخ مجهولة.

لم يتهيّأ أسطول الحملة الفرنسية بكافة عُدّته؛ من العتاد والآلات الحربية، ومن عُدده من الجند البحري؛ في ميناء واحد؛ كقاعدة بحرية فرنسا البحرية الرئيسة في مدينة (طولون؛ Toulon)؛ على ساحل حوض البحر الأبيض المتوسط الشمالي مثلا، وإنما في عدد من المرافئ؛ في (مرسيليا)، و(أجاكسيو) بجزيرة (كورسيكا) و(جنوة) و(باستا) و(تشيفيتافيكا) بإيطاليا، وقد بلغ عدد بوارجه الحربية ثلاث عشرة بارجة، وخمس فرقاطات، وثلاثة (غربان) أو (حراقات)[31]، وستة سفن عَتَادية، وثلاثمائة سفينة نقل، وبلغ عدد الجنود خمسة وثلاثين ألفا؛ من كل القوات المحاربة المؤهلة، والذي كان سيقود قطع البحرية العسكرية الفرنسية هو الأميرال (فرانسوا بول دو برويس؛ 1753م-1798م؛ Francois Paul de Brueys d'Aigalliers)، وكان يُشهد لهذا البحار الضابط آنذاك ما يُبهر، وهو أعماله البطولية البحرية على ظهر البارجة (دي غراس) في السنتين 1781م و1789م، وفي البحر الأدرياتيكي في عام 1797م؛ وقد وردت أسماء مراكب الأسطول الفرنسي الحربي، وأسماء قباطنتها، ووضعها داخل انتظام الأسطول المحارب؛ في الكتاب الذي أنف ذكره في المرجع الإحالي في قدم الصفحة 77، فمن يرغب في أن يطلع على ذلك؛ فدونه هذا المصدر.

[31] شكل من أشكال السفن الحربية.

كان في تحرك الأسطول الفرنسي تسريبات إلى الصحافة الفرنسية؛ لمغالطات غزو جزر بريطانيا، وذلك بهدف التضليل. كانت رياح (الميسترال) التي هبت من بر القارة الأوروبية في يوم 19 ماي من سنة 1798م مواتية؛ وَفّرت طاقة ريحية دفعت بأشرعة قطع الأسطول الفرنسي إلى خارج مرسى (طولون)؛ ليأخذ اتجاهه إلى الجنوب في بحر (تيريني؛ Mar Tirreno)؛ نحو سواحل شبه الجزيرة الإيطالية الغربية، ثم عبر مضيق (ميسينا؛ Stretto de Messina)؛ ما بين جزيرة صقلية وجنوب شبه جزيرة إيطاليا، ويقال أن الجواسيس الإنجليز نقلوا خبرا يفيد بأن نابليون كان ينوي احتلال صقلية، والذي تأكد خبره أن أسطول حملته احتل مالطا، ولم تواجهه أي مقاومة في هذه الجزيرة، وكما أُذيع في البداية من أخبار مُضلّلة للإنجليز في الصحافة الفرنسية؛ من كون الحملة البحرية العسكرية مخططة لها لآحتلال جزيرة بريطانيا؛ فقد اتجه الأسطول الفرنسي إلى الشمال الشرقي في البحر الأبيض المتوسط في الخط البحري المتجه إلى جزيرة (كريت؛ Ile de Créte)؛ مُعرِّجا على سواحلها بهدف تضليل المراقبين والجواسيس الإنجليز أيضا، وقد نجح نابليون في ذلك، إذ أخذ وجهته إلى السواحل المصرية.

وصل نابليون على ظهر مركب قيادته المسمى بـ(جنون؛ Junon)؛ إلى مدينة الإسكندرية في فاتح يوليوز 1798م؛ وكانت أوامره الفورية هي إنزال قواته وأعْتِدتِه على برّ مصر، ودامت هذه العملية ثلاثة أيام؛ ليخوض معركة برية فاصلة مع جيش المماليك، ويزحف في طريقه إلى القاهرة؛ حاضرةُ مصر، وقد انتصر قائد الحملة الفرنسي في حربه، وتابع تحركه في عملية تعقب أولئك المماليك.

لكن الذي حصل وحدد مصير مراكب الأسطول الفرنسي؛ هو ذلك الاختلاف في الرأي والمشورة بين نابليون وقائد الأسطول الحربي (برويس)؛ كانت أوامر الأول هو إيداع قطع الأسطول بميناء الإسكندرية؛ ليبقى قريبا من القوة العسكرية البرية التي توغلت برّا داخل مصر؛ إذا ما طرأ ما يهددها

من البحر؛ أما ما فكر فيه الثاني هو نقل الأسطول إلى ميناء (كورفو[32]؛ Le port de Carfou) باليونان؛ لِتوفُّر شرط الأمان، والتدخل السريع لقُرب المسافة؛ غير أن نابليون وكما يُروى غضب للفكرة المُعارِضة وأمر بإدخال السفن إلى مرفأ الإسكندرية، ولتنفيذ هذا لا بد من سبر أعماق المياه، ومدى عمقها، وصلاحية مياهها الضحلة للرُسوّ، وحتى هذا الحين أمر القائد (برويس) بنقل مراكب الأسطول إلى مياه خليج (أبو قير)؛ إلى الشمال الشرقي من ميناء الإسكندرية؛ في فاتح غشت من نفس السنة، وانتظمت القطع البحرية على مسافة خمسة فراسخ[33] منه؛ في خط يتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي؛ انحرف أقصى طرفه إلى الجنوب.

كانت تحركات الأسطول الحربي الفرنسي؛ في مياه البحر الأبيض المتوسط الغربية منه والشرقية؛ مرصودة من طرف القوة البحرية العالمية الأخرى وهي انجلترا؛ كيف جرى ذلك؟

قبل الكلام عن ما كان يحدث في وسط قيادة البحرية الإنجليزية؛ لا بد من ذكر ما كان يشكل الأسطول الإنجليزي؛ فكان قد وصل عدد مراكبه البحرية إلى أربعة عشر مركبا؛ يقودها قباطنة مثل (إيدوار بيري)؛ الذي كان برتبة تُخوله الترقي إلى درجة ما تحت الأميرالية، وكان هو الذي يقود السفينة الحربية (فانكَارد؛ Vanguard)؛ التي كان يُباشر على ظهرها الأميرال (هوراتيون نيلسون؛ 1758م- 1805م؛ Horation Nelson)؛ قائد الأسطول الإنجليزي أوامره.

كان أول ما بادرت إليه القيادة البحرية الإنجليزية العامة؛ هو تكليف الأميرال (نيلسون) -وكان حسب قواد البحرية العسكرية من خيرة الضباط

---

[32] يقع ميناء (كورفو) في جزيرة (كيركيرا) في البحر الأيوني؛ إلى الغرب من اليونان (ورد إسم مدينة كورفو باسم قُرفُس في كتاب: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لمصنفه أبي عبد الله محمد بن محمد الإدريسي (1100م- 1166م)).

[33] الفرسخ مقياس للمسافة قديم، وأصل الكلمة فارسي، ويقدر بخمسة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين مترا.

البحريين- بالإبحار على رأس مجموعة من مراكب حربية؛ تتكون من ثلاث مدمرات وفرقاطتين؛ إلى مياه ساحل (طولون) الفرنسي؛ لمراقبة وعن قُرب اتجاهات الأسطول الفرنسي، وكان يحدث هذا في جو من الخوف من أن ما بعد انتصار نابليون على الإمارات الإيطالية؛ ستكون جزيرة انجلترا هي التالية؛ في سلسلة الحروب النابليونية؛ وكان هذا كما سبق ذكره ما تم تسريبه للتضليل من طرف القيادة الفرنسية.

إذا تحرك الأسطول الفرنسي في 9 ماي؛ فإن الأسطول الإنجليزي لم يُبحر لتعقب الأول إلا في 24 من نفس الشهر بسببين؛ أولهما عملية الإصلاح التي شملت سفينة القائد (نيلسون) نفسه، وثانيهما انتظار ما يُعزز مجموعة المراكب التي قدم بها للترقب فقط، وكان يعتمد الأميرال الإنجليزي على استقصاء أخبار الأسطول الفرنسي من المتعاونين مع الإنجليز وعلى الجواسيس والمراقبين؛ فبُعِث إليه بخبر عن توجه نابليون جنوبا إلى سواحل إيطاليا في 28 ماي، ولم يأمر بنشر الأشرعة إلا بعد أن ساند قوته البحرية إحدى عشر مركبا؛ فيكون بهذا قد تكوّن الأسطول الذي سيخوض (معركة النيل البحرية) كما تُسميها الإيستوغرافية الإنجليزية.

في يوم من أيام الأسبوعين الأولين من شهر يونيو أبحرت قطع الإنجليز البحرية، وقد نشرت كامل أشرعتها بأقصى سرعتها للحاق بطواقم بحرية فرنسا، وفي 14 يونيو وصلت إلى مدينة (تشيفيتافيكا)؛ على ساحل إيطاليا الغربي؛ إلى الشمال الشرقي من العاصمة روما؛ ليُستخبر أن نابليون عَبَر مضيق (ميسينا؛ Messina)؛ بين صقلية وجنوب شبه الجزيرة الإيطالية، وفي وقت توقف فيه الأسطول الإنجليزي بـ(نابولي) للتزود بالماء العذب وبالمؤن الغذائية؛ أُستعلم أن القائد الذي يتصرف بمعية أو بإيعاز من مجلس الثورة الفرنسي قد احتل جزيرة مالطا، وكانت ظنون وهواجس البريطانيين تختلف؛ فبينما كانت ظنون قيادة البحرية الإنجليزية هي أن نابليون بونابارت ماض في احتلال مواقع البحر الأبيض الإستراتيجية؛ وهذا كان من مبادرة واختصاص

امبراطورية انجلترا البحرية؛ كان (نيلسون) يدرك أن القائد الفرنسي يتجه بحملته العسكرية لهدف واحد هو احتلال مصر، ولغرض عام وهو قَطْع الطرق البحرية والبرية التي تصل انجلترا بشبه الجزيرة الهندية؛ ولضرب مصالح انجلترا الإقتصادية في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، وعندما عُلِم بأن نابليون غادر مالطا مُبحرا في اتجاه الشرق؛ تأكد الإنجليز بصحة توقّعاته؛ فتعجل بالاستمرار في الملاحقة؛ إلا أن الأسطول الفرنسي الذي اتجه إلى الشمال الشرقي ليُعرج على جزيرة كريت أضلّه؛ ولم يجد نيلسون الأميرال الإنجليزي يوم وصوله إلى مياه مرفأ الإسكندرية أثرا للأسطول الفرنسي، فعاد في خط الإبحار المتجه إلى صقلية؛ وقد ظن أنها خُدعة، وأن هدف نابليون كان هو احتلال غرب جزيرة صقلية، ولما لم يقف مرة أخرى على الفرنسيين؛ أبحر ثانية في اتجاه سواحل مصر، وقد أيقن مرة أخرى أن القائد نابليون المُضلِّل قد توجه إلى مصر؛ فوصل إلى سواحلها في اليوم الأول من شهر غشت على الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقية.

لم ينتظر القائد الإنجليزي (نيلسون) ما يُؤخِّره؛ فأمر بالاستعداد لخوض المعركة البحرية، والمُستيْقَن به أن الرياح التي دفعت بسفنه الشراعية في اتجاه مصر كانت مواتية، وأن نيلسون اقتنص بعينيه الخبيرتين ثغرات الأسطول الفرنسي؛ بل كان تعقُّبُه مفاجأة إلى حد ما؛ إذا عرفنا ما كان يجري في المعسكر الفرنسي؛ فما نُقل هو أن القائد الفرنسي (برويس) وبمجرد ما ظهرت طلائع الأسطول الإنجليزي؛ أمر بتنفيذ ما يرفع من عُدة أسطوله الذي سيُحارب به؛ وقد طُبع بشيء من الجلبة؛ وهو أنه أشار على المركب العِتادي (Le Railleur)؛ بتهييء أسلحته، والإبحار للتعرف على الأسطول الإنجليزي، وأرسل ضابطا على قارب إلى البر ليأمر طواقم قوارب الرسو؛ الذين كانوا يحفرون في البر بحثا عن الماء بالعودة إلى أماكن عملهم على ظهر السفن الحربية؛ ذلك أن عددا من بحارة كل سفينة من الأسطول نزل منها؛ لحفر آبار للتزود بالماء، وجنود يقومون بحمايتهم من مباغتتهم من طرف

العرب، وبسبب ما تردى عن هذا أمر برويس قبطان المركب العتادي (Martin)؛ بإرسال مائة وخمسين رجل من طاقمه إلى السفينة الحربية (Tom)؛ التي لم يكن طاقمها بكامل عدده؛ وبالتالي لم تكن في غاية تسلحها.

في الساعة الثالثة أعطى الأميرال الفرنسي (برويس) إشارة بالاستعداد للمعركة، وكان نقاش قد دار قبل هذا الأمر بين برويس ونائبه (أرماند بلانكي دو شايلا؛ 1759م- 1826م؛ Armande Simon Marie Blanquet du Chayla)؛ هذا الأخير رأى أن يَرفع الأسطول الفرنسي أشرعته، ويتحرك ليواجه الأسطول الإنجليزي في عُرض البحر؛ أما برويس فإنه رأى في أن بعض السفن الحربية ينقصها من البَحّارة من يعبيء السلاح، وهذا لا يُؤهل لخوض المواجهة بحرا؛ لذلك استقر الرأي على المحاربة بالرسو في مياه خليج (أبو قير)؛ حتى لا تخترق مراكب الإنجليز صَفّ الأسطول الفرنسي؛ وذلك بالتسرب بين قطعه؛ أمر برويس بمد حبال وعقدها بين كل سفينة وأخرى.

تقدمت سفن الإنجليز على مياه الخليج، وانتظمت وبدأت بالهجوم على سفن مقدمة الأسطول الفرنسي في الساعة السادسة والنصف، وكان جعل هذا الأخير بين نارين هي الخطة؛ لذلك زحف الإنجليز على ميمنة الفرنسيين وميسرتهم، وحاولت الدنو أكثر -حتى قيل بأنه استُعملت المسدسات في المواجهة- لاختراق صف الفرنسيين، ومحاولة تدمير مراكبهم، وبلغ الإنجليز بسفنهم بعد المقدمة إلى الوسط؛ حيث كانت فيه سفينة القيادة الفرنسية (L`Orient)؛ في الساعة الثامنة؛ تهالكت عليها سفينتان انجليزيتان بقذفها؛ فأصابت إحدى كرات القذائف الحديدية الأميرال الفرنسي (برويس)؛ فشطرته إلى نصفين، وفي الساعة التاسعة والنصف أو بعدها رأى البحارة الفرنسيون فرقعة في إحدى سواري سفينة القيادة؛ فصاح البعض بأن النار قد اشتعلت في السفينة؛ فحاولوا إطفاءها؛ بدل الدفاع عن السفينة بضخ المياه؛ إلا أن النار اجتاحت مستودع بارود الذخيرة؛ فاحترقت السفينة وانفجرت

كبركان روّع السكان المقيمين بالبر؛ جزء منها تلاشى شظايا في الجو، والجزء الآخر غاص في أعماق البحر.

لم تكن باقي السفن الفرنسية في كامل دفاعاتها؛ فقد طالتها القذائف الإنجليزية؛ فمنها ثلاث أحرقها الإنجليز، وست أبحروا بها إلى جبل طارق، واثنتان أحرقها الفرنسيون، وواحدة غرقت أثناء المعركة، وأربع سُحِبت وأُنقِذت.

قُتل في معركة أبي قير البحرية التي استمرت حتى طلوع شمس اليوم الثاني من شهر غشت؛ ألف وسبعمائة بحار فرنسي. هناك من يُحمِّل نابليون بونابارت مسؤولية تدمير الأسطول الفرنسي؛ أما هو فقد رُوي عنه وهو في أَسْره بجزيرة (سانت هيلين؛ Ile Sainte- Héléne) -بعد أن هُزم في معركة (واترلو؛ La battaile de Waterloo)، والتي وقعت في 18 يونيو 1815م؛ من طرف الحلفاء (بريطانيا وألمانيا واتحاد البلجيكيين والهولنديين والحيش البروسي)؛ بقيادة الدوق (دو ويلنكتون؛ 1769م- 1852م؛ Duc de Wellington)- أنه قال بأن الخطأ يرجع إلى الأميرال برويس؛ إلا أن مقتله في المعركة شُفِع له. قد يكون هذا الذي تفوه به نابليون صادر عن قائد عسكري خبر ميادين المواجهة مع أعداء فرنسا، وخاصة انجلترا التي أصبحت بعد انتصار أسطولها الحربي القوة السائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

# مقالات

# (شالة)
# المدينة الأزلية

(المدينة الأزلية)؛ هذا هو النعث الذي جعله الجغرافي والرحالة العربي محمد بن حوقل (توفي في سنة 977م)؛ لمدينة (شالة) الأثرية؛ في كتابه (المسالك والممالك)؛ في القرن الرابع الهجري، وقد قُدّر فعلا لهذ المدينة ألا تندرس بالمرة؛ بل تظل آثارها الإسلامية؛ كأسوارها، وأبوابها؛ كالباب الرئيس، وأبراجها الحالية، والتي رُمّمت منذ زمن قريب، وأطلالها الرومانية؛ قائمة مئات السنين؛ تشهد على حضارات سادت، ثم بادت خلال عصور التاريخ الماضية؛ بل ظل الناس مهووسين بهذه المدينة، ومشدودين إليها؛ يزورونها، ويتبرّكون بأوليائها؛ ويتمسحون بأضرحتها، وينسجون حولها الحكايات، كحكاية (السمكة ذات الأقراط الذهبية)، وحكاية (السلطان الأكحل)، وحكاية أميرة السلطان التي اكتنزت الذهب، وحكاية (المساجين السبعة)، وقصة شهداء موقِعة (ساحة طريف).

وكان الرباطيون ما يزالون يدفنون موتاهم من الأئمة، والصالحين، والميسورين، وغيرهم؛ حتى النصف الأول من القرن العشرين؛ في التربة الطاهرة والمقدسة؛ التي ضمت رفات شهداء حرب (ساحة طريف)[34]؛ التي وقعت ببلاد الأندلس؛ زمن السلطان أبي الحسن بن أبي سعيد عثمان؛ في سنة 741هـ؛ الموافق 1340م.

تقع مدينة (شالة) الأثرية على ضفة نهر (أبو رقراق)[35] اليسرى؛ إلى الجهة الشرقية، غير بعيد عن سور مدينة (الرباط) العاصمة الأثري؛ الذي بُني في عهد الدولة الموحدية، ويحمل باب شالة الرئيس نقشَ تأسيسه، وكذلك

---

[34] أنظر مقالنا في الصفحة (71) حول واقعة (ساحة طريف).

[35] ينبع نهر (أبي رقراق) من الأطلس المتوسط، ويصب في المحيط الأطلنتي؛ من جبل (متورنزاك) بإقليم الخميسات، يبلغ طوله 240 كلم، من روافده واد (كَرو) الذي يتفرع عنه بدوره رافدان هما: واد (عكراش) وواد (كريفلة).

الأبراج والأسوار المحيطة بها؛ من طرف السلطان المريني أبو الحسن؛ الذي يلقبه العامة بـ(السلطان الأكحل)؛ في سنة 739هـ؛ الموافق 1338م؛ لا يفصلهما سوى شكل تضاريسي عبارة عن فج؛ كلتاهما (شالة) و(الرباط) تُشرفان على ذلك الاتساع الكبير لوادي أبي رقراق، وتقابلهما ضفة النهر اليمنى التي تقوم عليها (سلا)، وهذا المنظر العام والأخاذ استهوى الجنرال (لويس أوبير كونزالف ليوطي)؛ أول مقيم عام فرنسي بالمغرب؛ الذي أعجب بالحضارة الموحدية، فجعل (رباط الفتح) -التي بنى أسوارها وأبوابها وصومعتها (حسان) يعقوب المنصور الموحدي؛ (1160م- 1199م)؛ في القرن السادس الهجري؛ الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي- العاصمة الإدارية للمغرب الحديث.

## أصل تسمية (شالة)

اِختلف الإخباريون المسلمون القدامى الذين كتبوا عن تاريخ شالة، والمؤرخون المحدثون والأوروبيون؛ في معنى وأصل كلمة «شالة»، ويبقى ما أورده خبير الآثار الإسلامية الدكتور عثمان عثمان إسماعيل؛ الذي قام في ستينيات القرن الماضي؛ بحفريات في موقع شالة الإسلامي؛ أقرب تحليل تاريخي ولغوي للكلمة إلى الصحة، فيقول بأن «كلمة (شالة) كلمة بربرية قديمة معناها (كثير)، ونُطقُها البربري القديم مثبوت، ويقترب كثيرا جدا من النطق الحديث، وقد عثرنا في قاموس باللغة العربية لترجمة الكلمات الآرامية كلمة (شالة) بنُطق يقترب أيضا من النطق الحديث معناها (كثير)، ولما كانت الآرامية جارة الفنيقيين، وبمعنى قريب كذلك، لأنهم انتقلوا من الشرق إلى قرطاجة، وتطورت لغتهم هناك ثم امتد نفوذهم إلى منطقة شالة».

ولم يحسم المؤرخون فيما بين (شالة) المدينة الأثرية الواقعة على ضفة نهر (أبي رقراق) اليسرى، و(سلا)؛ اسم المدينة الحالية الموجودة على ضفة النهر اليمنى، ومما زاد في تعقيد الموضوع هو أن (شالة) كانت تسمى في عهد الرومان (سلا

كولونيا)، وكما صرحت به البعثة العلمية الفرنسية في عشرينيات القرن الماضي؛ أن هذا الاسم كان يُطلق على الموقع الذي يضم (شالة) و(الرباط)، ويمتد حتى المحيط الأطلنتي، ويضيف عثمان عثمان إسماعيل في هذا المجال قائلا: «أما فيما يتعلق بتحول اسم (شالة) إلى (سلا)؛ فإننا نقول بأن اللغة الرومانية كانت بطبيعة الحال من اللاتينية، وهذه الأخيرة ليس بها تشديد كالموجودة في (شالَّة)، ولهذا نَطَقها الرومان (سلا)، ويساعد تحويل الشين إلى سين على تخفيف التشديد فتنطق (شلا)، ثم تتحول بالتدريج إلى (سلا). أما سبب احتفاظ مدينة (شالة) الأثرية باسمها البربري والفنيقي الأصلي، ومدينة (سلا) على الضفة اليمنى»، فهو تطور اسم (شالة) الفنيقي أو البربري على الأرجح إلى (سلا كولونيا) على يد الرومان، ثم كان امتداد هذه العمارة عن ما كانت عليه هو سبب الخلط بين (سلا كولونيا) على ضفة النهر اليسرى، و(سلا) على ضفته اليمنى.

## تاريخ شالة

تعتبر شالة من أهم المواقع الأثرية في المغرب؛ لما لها من مميزات جغرافية وأركيولوجية وتاريخية، فهي أقدم مدينة أثرية؛ يبدأ تاريخها منذ البربر؛ سكان المغرب الأولون؛ كما يُنعتون دائما، في حين يبقى ارتباط ظهور المواقع الأثرية للمدن الأخرى المنتشرة في جزء المغرب الشمالي الغربي؛ بقدوم الرومان وحدهم فقط، كـ(وليلي)، و(بناسا)، و(اللوكسوس)، و(تامودا)... إلخ، و(شالة) بلا منازع نموذج المواقع الأثرية التي تتعاقب فيها رأسيا طبقات آثار الحضارات، وتتجاور في آن واحد؛ التي عمرت المغرب خلال أزمنة تاريخية قديمة، كالحضارة الأمازيغية، والفينيقية والرومانية والبزنطية والإسلامية.

وتتجلى العوامل المحلية الطبيعية والجغرافية التي ساعدت الإنسان على الإستقرار في منطقة شالة؛ في الخاصيات الطبغرافية الآتية:

– توفر المنطقة على عيون لا تنضب، فهي دائمة الجريان؛ سواء في الفصول الجافة أو المطيرة، فالإنسان كان في هجراته ورحلاته على سطح الأرض يبحث دوما على الماء؛ المادة الحيوية لبقائه حيا.

– قُربها من نهر (أبو رقراق) الدائم الجريان، وصالح للملاحة؛ لدخول وخروج السفن، وغني بالأحياء البحرية (الأسماك).

– المنطقة عبارة عن منحدر يُصطلح عليه في علم مورفولوجية السطح بـ(المَتْن)؛ يُتيح انحداره جريان ماء العيون في خزانات وقنوات توزيعه على بيوت المدينة الرومانية؛ كما هي عادة الرومان في تشييد مدنهم.

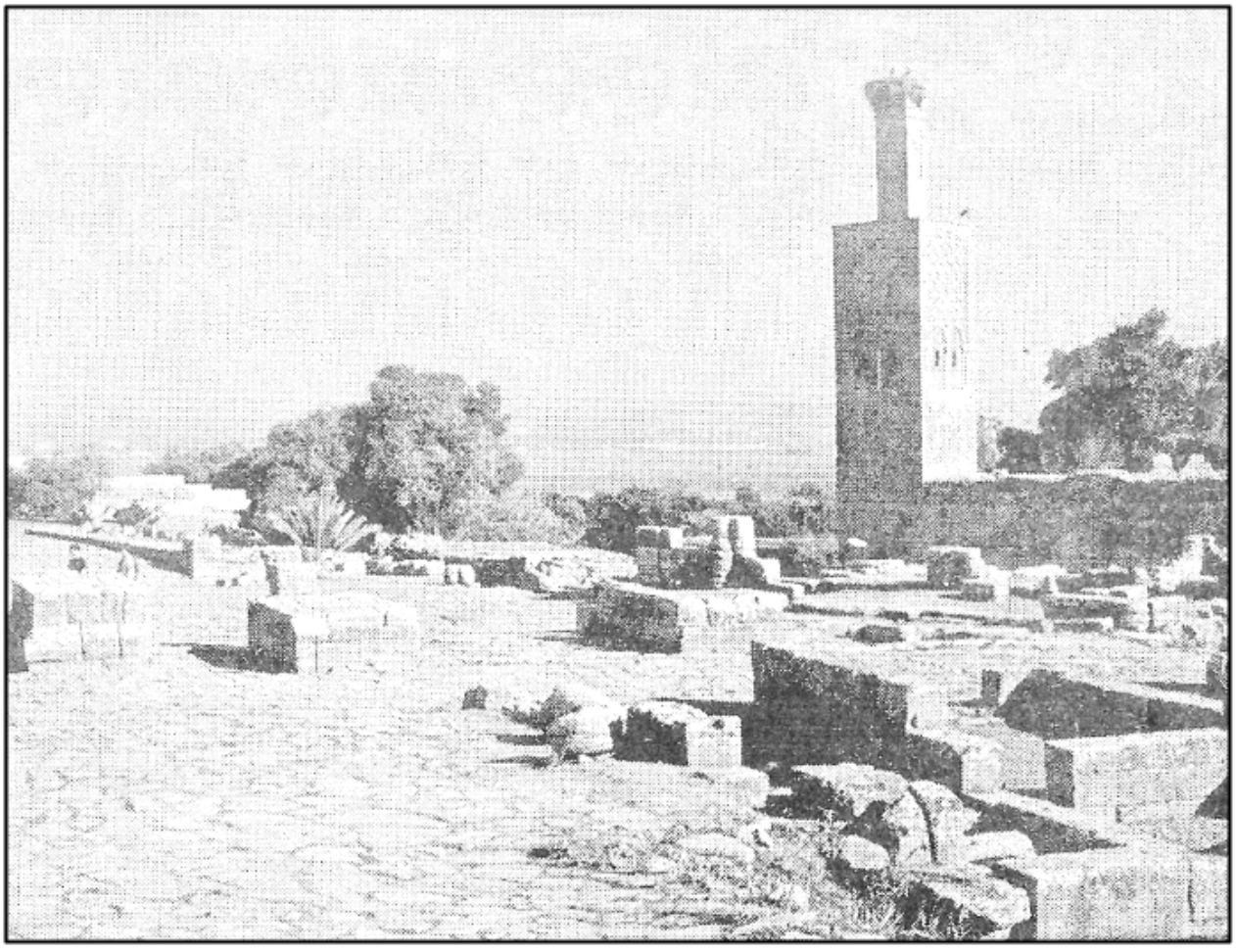

تبدو في الصورة آثار المدينة الرومانية، وصومعة شالة يتوجها عش يأوي إليه زوجان من طائر اللقلاق.
(بعدسة المؤلف)

وتُعلل نسبة بداية تاريخ الموقع إلى البربر بوجود قطع الخزف البربري في موقع شالة الأثري، وأحجار عليها صور الأصنام، وكلمة (شالة) نفسها كما سبق ذكر ذلك اسم بريري قديم، ثم اكتشفت أهمية موقعها بعد ذلك من طرف الفنيقيين القرطاجيين؛ سكان بلاد فنيقيا، وهي الأراضي الواقعة بين جبال لبنان وساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي؛ الذين أسسوا مدينة (قرطاج) في سنة 814 قبل الميلاد في شمال إفريقيا، وبالضبط في تونس الحالية؛ أصبحت أكبر مدينة للتجارة البحرية في العالم القديم، فعظُمت وامتد نفوذها حتى المغرب، ففي سنة 475 قبل الميلاد؛ أبحر أحد البحارة القرطاجيين اسمه (حانون)؛ بأمر من حكومة قرطاجة -التي كان يُنتخب رئيسان لها من طرف الشعب- بستين سفينة كما هو مدون في نص غامض وعسير الفهم في لوحة تذكارية؛ بخمسين مُجذف؛ على متنها ثلاثون ألف رجل وامرأة؛ في غرب البحر الأبيض المتوسط؛ لآجتياز أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)؛ بهدف استكشاف البلدان الواقعة في الغرب، وتأسيس مستوطنات للتبادل التجاري؛ بين القرطاجيين وأهالي تلك البلدان، ومقايضتِهم بما تحمله سفنهم من أسلحة وأثواب وحلي وخزف وأدوات من معدن الحديد والبرونز والعطور؛ مقابل ما

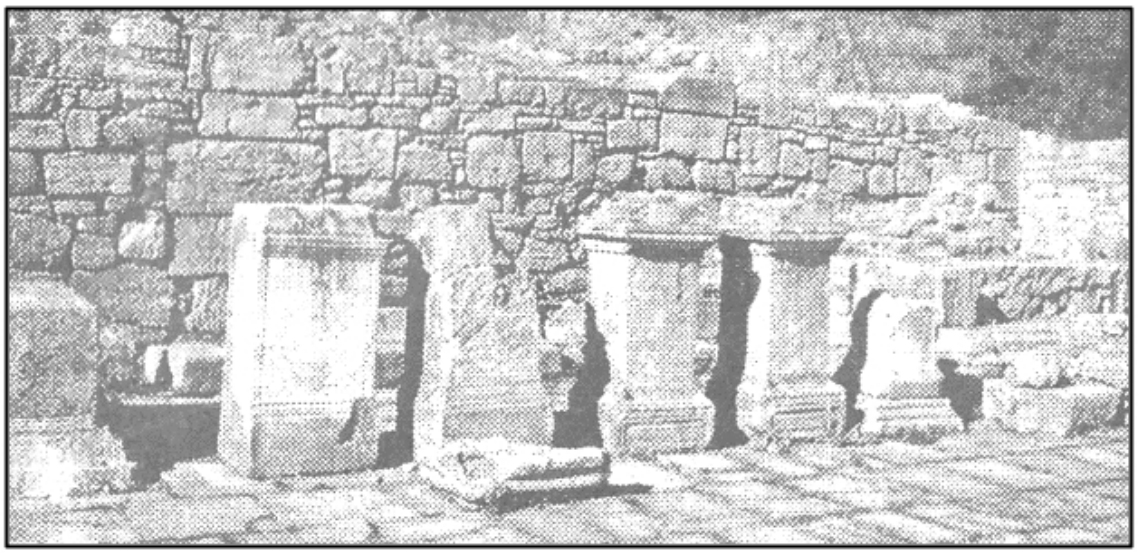

هياكل، وأحجار مشكلة رومانية بشالة (بعدسة المؤلف).

تنتجه المناطق المكتشفة من مواد أولية، كالخشب والصوف والجلود والذهب والعاج، وأيضا العبيد، فكانت (شالة) الموقع الذي أثار اهتمامهم لمدى صلاحيته للاستقرار وإجراء المعاملات التجارية؛ مع الأهالي من البربر؛ من منطقة مصب نهر أبي رقراق.

ما بين سنتي 264 و146 قبل الميلاد اِندلعت الحروب البونيقية؛ بين قرطاجة وروما؛ القوتان العظميان اللتان طالما تنافستا على العالم القديم؛ جرت الأولى من تلك الحروب في جزيرة (صقلية)، وقاد الثانية منها القائد الحربي القرطاجي الجسور (حنبعل بن حملقار برقا؛ 247 ق.م.- 182 ق.م.)؛ الذي تذكر بعض المراجع أن تمثاله النصفي عُثر عليه في مدينة وليلي بالمغرب. لكي يطوق روما وينقض عليها من جهة الشمال؛ عبر إسبانيا وبلاد الغال (فرنسا)، وجبال (الألب)؛ بالفيلة والخيول، وحتى القرن السابع عشر كان علماء الجيولوجيا والمستحاثات؛ يزعمون أن بقايا أنياب العاج التي كان يُعثر عليها في أوروبا؛ إنما هي لفِيلة (هانيبال)؛ إلا أن تلك البقايا كانت في الأصل لحيوان عاشب منقرض شبيه بالفيل؛ عاش في أحد العصور الجليدية وهو حيوان (الماموث)؛ غير أن هانيبال هُزم أمام القوات الرومانية في سنة 202 ق.م.، فتتابعت انهزامات القرطاجيين إلى أن سقطت عاصمتهم (قرطاجة) في أيد الرومانيين؛ الذين حلوا ببلاد المغرب محل القرطاجيين، واستمر وجودهم به ما بين سنتي 33 ق.م. و476 بعد الميلاد؛ أي أكثر من قرنين ونصف.

ولما كان الرومان يحرصون في تشييد مدنهم، وإقامة موانئهم على اختيار المواضع المشرفة على الأنهار ومصاباتها؛ مثل نهر (سبو)، ونهر أبي رقراق، ونهر (اللوكوس)، فما يلاحظ وانطلاقا من خريطة توزيع المدن في المغرب؛ التي كانت قائمة في عهدهم؛ أنها جميعها تحاذي الأنهار، لأن اتصال الرومان ببقية شعوب وقبائل البلدان التي خضعت لسيطرتهم؛ كان يجري عن طريق البحر أو الأنهار، فكانت شالة آخر مدينة في توغلهم جنوبا في شمال إفريقيا، فبلغت أوج ازدهارها في القرن الثالث الميلادي؛ حيث تم العثور في

طبقات آثارها على نقود رومانية، وقطع من الخزف وأدوات منزلية، وتماثيل نساء ومحاربين، ولوحات تذكارية، ومنحوتات بها نقوش كتابات وأرقام رومانية، مما يدل أن (سلا كولونيا) الرومانية كانت في أوج حضارتها، وتنقرض بعد ذلك في الوقت الذي غزا فيه (الوندال) المغرب؛ في القرن الخامس الميلادي، وهم قبائل مُتبربرة من الجرمان؛ كانت تعيش في شمال أوربا، وبالضبط في الجهة الشرقية من ألمانيا؛ كانت قد اجتاحت فرنسا واستقرت في جنوب إسبانيا؛ في الإقليم الذي أخذ اسمهم (الفاندلس)، ولما فتحه العرب المسلمون سموه بِـ(الأندلس)؛ أسس الوندال بذلك الإقليم دولة من سنة 429م؛ حتى سنة 640م حين طردتهم منه الجيوش البيزنطية، فظهرت (شالة) مرة أخرى على مسرح أحداث العصر البيزنطي؛ كأهم ميناء في مصب نهر أبي رقراق.

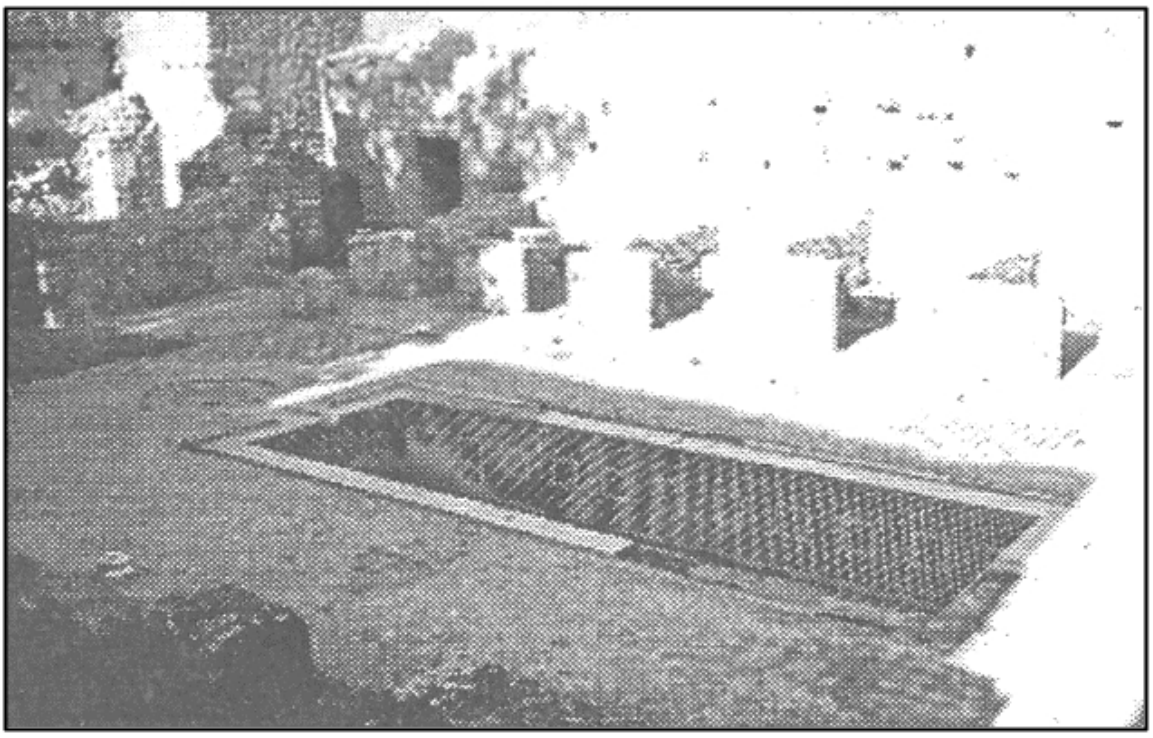

يبدو في الصورة صهريج الماء، وغرف صغيرة لإقامة الطلبة، وآثار خزانة الكتب.
(بعدسة المؤلف)

دخلت شالة بعد هذا التاريخ في نطاق نفوذ (البرغواطيون)[36]، وهم من أصل بربري؛ كانوا يُدينون بالوثنية واليهودية والمسيحية؛ إلى أن فتح بلادهم (عقبة بن نافع الفهري؛ 10 هـ- 63 هـ)؛ في عهد خلافة (يزيد بن معاوية؛ 26هـ/ 647م- 64هـ/ 683م) الأموي؛ في عام 62هـ، فمنطقة (تامسني) الخاضعة لهم كانت تقع بين نهر أبي رقراق، وساحل المحيط الأطلنتي، وحدود (تادلة) الشرقية، أما في شمال وادي أبي رقراق كانت تقيم قبائل (غمارة)، لذلك كانت شالة التي تحاذي هذا النهر؛ الذي يشكل الحدود الشمالية للبرغواطيين؛ مركزا حربيا ودينيا لهم بالمغرب.

بعد أن حل (إدريس الأول بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي؛ 127هـ/ 743م- 177هـ/ 793م)؛ صحبة مولاه (راشد) -هروبا من عنف وسطوة الأمويين؛ في ربيع الأول سنة 172هـ؛ الموافق 788م، بمدينة وليلي، وبعد أن بويع من طرف قبائل (أوربة) و(زناتة)؛ خرج فاتحا (شالة) معقل البرغواطيين، وما يليها من بلاد (تامسني)، فتراجع دور شالة وتقهقرت مكانتها؛ خصوصا بعد بناء مدينة فاس من طرف (إدريس الثاني؛ 177هـ/ 793م- 213هـ/ 828م)؛ في عام 192هـ؛ الموافق لـ 809م، وقد قام ابنه الأكبر محمد بعد وفاته بتقسيم المغرب بين ثمانية من إخوته الكبار، فكانت شالة من نصيب أخيه عيسى؛ ثار فيما بعد على أخيه محمد، وظلت شالة بيد أبناء عمر بن إدريس حتى عام 317هـ؛ حيث طردهم منها موسى بن أبي العافية (توفي في 327هـ؛ أو في 341هـ) الزناتي.

## أبو كمال تميم بن زيري اليفرني أمير شالة

امتد عصر (زناتة) من نهاية الدولة الإدريسية إلى قيام الدولة المرابطية، وانقسم إلى عصرين: العصر الزناتي الأول، ويبدأ من طرد الأدارسة من شالة

[36] جعل الكلمة بين قوسين يحملنا على الاختيار؛ قد نبنيها تبعا لمحلها في الجملة أو نرفعها.

من طرف موسى بن أبي العافية الزناتي، وينتهي بانقراض أبناء هذا الأخير سنة 362هـ؛ العصر الزناتي الثاني، ويبدأ باستيلاء المغراويين من قبيلة مغراوة على فاس، وبني يفرن من قبيلة يفرن على شالة، وكلتا القبيلتان تنحدران من أصل واحد بربري.

في عهد بني يفرن أصبحت شالة مملكة تحت إمرة أحد أمرائهم، وهو الأمير (أبو كمال تميم بن زيري اليفرني)، فبلغت في عهده أوجها، وأهميتها، واتسع عمرانها، وعندما تجددت العداوة بين قبيلتي مغراوة وبني يفرن؛ هَزَمتْ مملكة شالة مدينة فاس عام 424هـ، وحين مات أبو كمال تميم سنة 446هـ خلفه ابنه (حماد)؛ سرعان ما هُلك سنة 449هـ، فولى أمر شالة ابنه (يوسف)، وبعد وفاة هذا الأخير سنة 458هـ؛ جاء بعده عمه (محمد) بن أبي كمال تميم؛ الذي كان آخر من حكم شالة من بني يفرن في الوقت الذي ظهرت فيه طلائع المرابطين الملثمين.

## خراب شالة

بتأسيس مدينة (مراكش) من طرف يوسف بن تاشفين المرابطي سنة 1062م، ومدينة (رباط الفتح) من طرف يعقوب المنصور الموحدي (1160م- 1199م)؛ بدأت شالة تفقد أهميتها العمرانية والسياسية والتاريخية تدريجيا؛ خاصة في فترة حكم الدولة المرينية؛ عندما ستتحول من مدينة يسكنها الأحياء إلى مقبرة للسلاطين المرينيين، وزوجاتهم والأمراء والأميرات، فكانت زوجة السلطان أبي يوسف يعقوب (الحرة أم العز) أول شخصية مرينية تُدفن بشالة في سنة 683هـ، لذلك قام السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان سنة 739هـ؛ الموافق 1338م؛ ببناء الأسوار التي تظهر حاليا، وما تزال بداخلها آثار زاوية بها غرف كان يقيم بها طلبة القرآن؛ يتوسطها صهريج ماء، ومكتبة، ومرحاض للوضوء، ومسجد للصلاة؛ قائمة حتى الآن.

وفيما يلي أسماء بعض السلاطين المرينيين وزوجاتهم، والأمراء والأميرات والوزراء الذين دفنوا بشالة، وكان من بينهم من سقط شهيدا في حرب (ساحة طريف)؛ التي وقعت في سنة 741هـ؛ الموافق 1340م؛ بين المسلمين ونصارى الأندلس؛ كما جاء في كتاب (تاريخ شالة الإسلامية) لمؤلفه عثمان عثمان إسماعيل:

- الحرة أم العز؛ زوجة السلطان أبي يوسف يعقوب، وكانت قد توفيت في سنة 683هـ/ 1284م.
- السلطان أبو يوسف يعقوب، وكان قد توفي في سنة 685هـ/ 1284م.
- الأمير يعقوب يوسف، وكان قد قُتل بتلمسان في سنة 706هـ/ 1306م.
- أبو ثابت عامر، وكان قد توفي في طنجة في سنة 708هـ/ 1308م.
- السلطان أبو سعيد عثمان، وكان قد توفي في 25 ذي القعدة من سنة 731هـ.

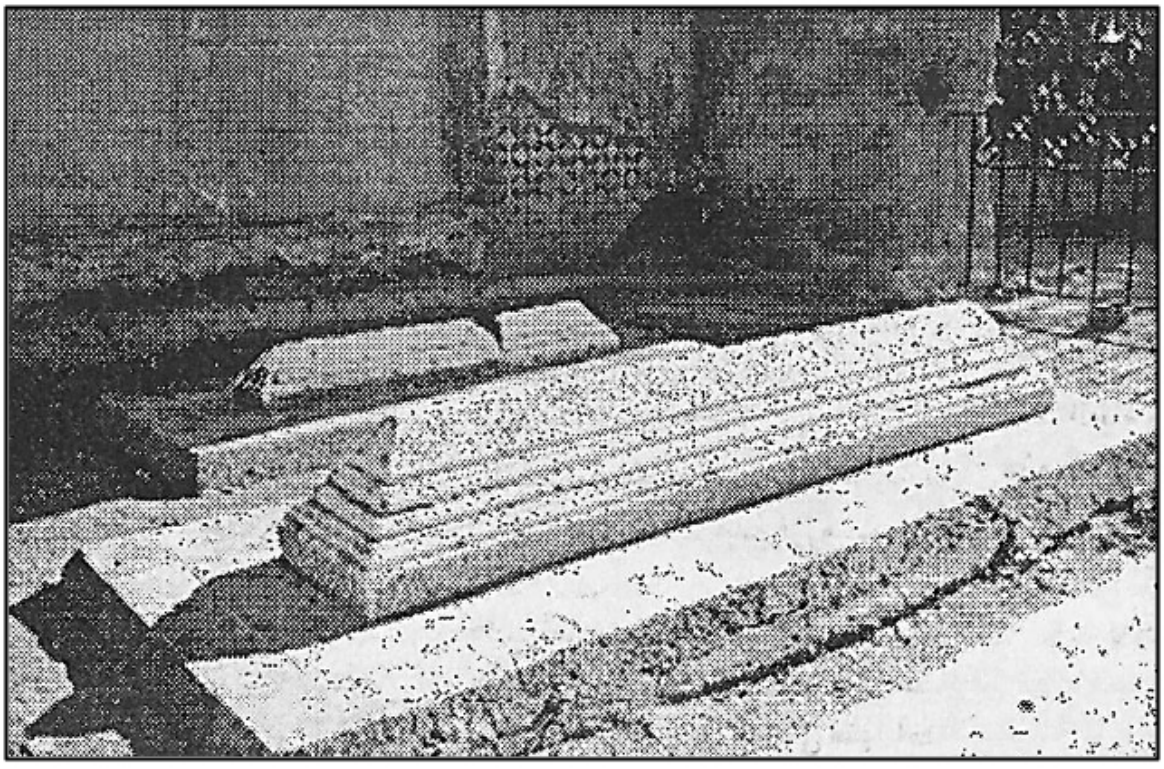

شاهد قبر السلطان أبي الحسن.
(بعدسة المؤلف).

- الأمير أبو مالك بن أبي الحسن، وكان قد استشهد في سنة 740هـ/ 1339م.
- السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد ، وكان قد توفي بجبل (هنتاتة) في ليلة الثلاثاء 27 ربيع الأول في عام 752هـ، ودُفن بمراكش، ثم نُقل جثمانه فيما بعد إلى شالة.
- زوجة السلطان أبي الحسن؛ شمس الضحى؛ يقال أن أصلها رومي؛ كانت جارية للسلطان.
- الأميرة عائشة بنت أبي بكر يعقوب؛ زوجة السلطان أبي الحسن علي.
- الأميرة فاطمة بنت السلطان ابن أبي زكريا الحفصي؛ زوجة السلطان أبي الحسن علي.

ومن الوزراء:
- أبو ثابت عامر بن فتح الله.
- أبو مجاهد غازي بن الكأس.
- أبو عارف السويدي.

ومن العلماء الشيخ أبو القاسم بن جزي من أشياخ لسان الدين بن الخطيب.

تذكُر كتب المؤرخين بأن خراب شالة كان على يد الشيخ أحمد اللحياني الورتاجي المريني، الذي ثار بمدينة (مكناس) بعد أن وطد حكمه فيها مدة عشرين عاما؛ على عبد الحق بن أبي سعيد؛ (823هـ/ 1420م- 869هـ/ 1465م)؛ آخر ملوك الدولة المرينية؛ في أواخر القرن التاسع الهجري، حيث قام بنهب كتب خزانتها ومصاحفها، وما كانت تضمه من تحف كانت محبسة على الأضرحة الموجودة داخل شالة، وهدم مرافقها، فتفرق طلبة زاويتها والمقرؤون، فهُجِرت بالمرة، وأصبحت على الحال الذي هي عليه الآن؛ مدينة الأطلال والحكايات والجن والكنوز المفقودة.

هامش:

مرجعان أُعتمِد عليهما في كتابة مقالة: (شالة؛ المدينة الأزلية)، وهما:

- تاريخ شالة الإسلامية؛ صفحات جديدة في تاريخ المغرب الأقصى من عصر الأدارسة الى نهاية عصر المرينيين، سلسلة أبحاث حضارة الغرب الإسلامي؛ المغرب العربي والأندلس، الدكتور عثمان عثمان إسماعيل؛ دار الثقافة؛ بيروت؛ لبنان؛ 1975م.

- إفريقيا الشمالية في العصر القديم؛ محمد محيي الدين المشرفي؛ دار الكتب العربية؛ الطبعة الرابعة لبنان.؛ 1389هـ/1969م.

# الكتاب الرقمي؛
# هل هو نهاية عصر الورق؟

نشرت صحيفة «أخبار الأدب» الأسبوعية المصرية؛ في عددها 428؛ المؤرخ في 23 شتنبر 2001م؛ خبرا عنونته بالكلمات الآتية: «انطلاقة إلكترونية لدار (بنجوين؛ Penguin)»؛ يقول: «في غضون الشهر الحالي (شتنبر)؛ تبدأ دار (بنجوين) البريطانية العملاقة مغامرتها في النشر الإلكتروني؛ بتحويلها مائتي عنوان من كلاسيكيات الأدب الإنجليزي إلى كتب إلكترونية؛ على موقعها بالشبكة العنكبوتية؛ المغامرة ليست الأولى من نوعها، ولن تكون الأخيرة، ولاسيما بعد اتجاه كُبْريات دور النشر الأمريكية إلى هذا الأسلوب، وعلى رأسها دار (راندوم هاوس؛ Random House)؛ في مطلع العام الحالي»، وفي فقرة أخرى من هذا الخبر تُضيف الصحيفة: «وقد صرّح المتحدث الرسمي لدار (بنجوين)؛ بأن الكتب الأكثر رواجا في الوقت الراهن؛ سيتم تقديمها جنبا إلى جنب الكلاسيكيات، وبأن أغلب الكتب الإلكترونية ستكون أرخص بنسبة عشرين في المائة على الأقل من الطبعة الورقية».

أهم ما نَسْتقي من هذا الخبر؛ هو أن دور النشر التي بادرت إلى النشر الإلكتروني؛ وهي بذلك تُدشّن بداية مرحلة متطورة في مجال نشر الكتب؛ سيتم خلالها تجاوز الكتاب الورقي المطبوع، والمألوف لدى الجميع؛ هي طبعا إنجليزية وأمريكية؛ بحكم اللغة الإنجليزية التي تأتي على رأس اللغات الحية الأكثر انتشارا في العالم، وما دام الأمر كذلك؛ فإن الاحتذاء بما تُقدم عليه الدول المتقدمة، والتي يكون لها دائما سبق الاختراع، والابتكار، واسكتشاف الجديد؛ أمر ضروري ومُلحّ لمسايرة ركب حضارة الغرب المتطورة، وإلا سنُوسم بالتخلف، وهي نقيصة لا نرضاها؛ إذا بقينا أوفياء لعهد الكتاب التقليدي، وما يحيط بظروف طبعه ونشره من مشاكل تقنية وامكانيات مادية، ولأنه سيفوتُنا الشيء الكثير؛ فيه خير لهذه الأمة، وأن ثمن الكتاب الإلكتروني

سيكون دون ثمن الكتاب المطبوع؛ بنسبة عشرين بالمائة؛ يدفعنا هذا القول إلى طرح أسئلة استشرافية؛ تُروّعنا إلى حد ما: هل هو نهاية عصر فضائل مخترع المطبعة ذات الحروف المتحركة الألماني (هانس غنسفلايش؛ 1397م-1468م)، والذي لُقب فيما بعد بِـ(غوتنبرغ)؟ هل هو نهاية عصر حضارة ورق (سمرقند)؟ أو بتعبير آخر -أتمنى ألا يكون فيه غُلوّ- أهو نهاية عصر المطابع؟ فما مصير إذن من يسترزق من ترويج الورق؛ كشركات صناعة الورق، وأيضا من يتعيّش من بسط الأفكار، والنظريات، والمواقف، والأخبار على الورق؛ هؤلاء الكتاب وصحفيو الإعلام المكتوب، وعمال المطابع؟

المؤشرات الراهنة تغني عن الإفصاح، ففئة الشباب والأطفال تفضل الإبحار عبر الشبكة العنكبوتية، وارتياد العوالم الغريبة والرهيبة، والمُغرية أيضا، وقلما تراهم يتصفحون كتابا أو مجلة؛ فلا يحدث ذلك إلا لماما، ومما يزيد تأكيد هذا الكلام؛ هو ما يمدنا به تاريخ الاختراعات والعلوم بمُسلّمة خطيرة، وهي أن الأشياء القديمة تنسحب ببطء، وبدون ضجة لتترك الميدان شاغرا للجديد؛ الذي يزحف حثيثا وبصخب؛ غازيا الحياة اليومية؛ فارضا وجوده بما أوتي من حسنات وفوائد، وما يُثمِرُ من أموال ربح؛ يسيل لها لعاب رجال المال والأعمال.

فالحاسوب المحمول مثلا؛ يُغني الشخص عن المحفظة الجلدية، وعن الرفوف الخشبية التي تحتل حيزا في بيت بالمدينة؛ لا تجد فيه أكثر من حجرة للنوم، وأخرى للضيوف، ومطبخ، ورَدْهة تحبس الأنفاس؛ نظرا ما للحاسوب من إمكانيات غير محدودة في تخزين مكتبة بكاملها، فهي بحق خزانة كتب متنقلة؛ تصطحبها أينما حللت، ويُتيح لك الحاسوب شحنه بالكتب الإلكترونية فورا من مواقعها على الشبكة؛ مما يجعل المعلومات والبيانات في متناول قاعدة عريضة من سكان العالم، فلم تعد حكرا على أشخاص معينين، ومكتبات ومؤسسات بعينها.

ونظرا لما لثورة تكنولوجيا الاتصال والمعلوميات، وبرامج معالجة النصوص، والبيانات، والمعلومات؛ من حضور قوي في الدول وتأثير بالغ على الشعوب؛ التي ما تزال تبحث عن موقع قدم ثابتة؛ فإنها ما إن تنتهي من وضع تخطيط في ميدان ما؛ حتى تُفاجأ بالمناهج الجديدة، والوسائل المبتكرة؛ تَفِد كشآبيب تقلب الأمور رأسا على عقب، فقد ضمّت ندوة عُقِدت مؤخرا بمصر؛ خمسين مثقفا؛ لوضع تصوراتهم حول مستقبل مشروع إعادة إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة؛ هذه المكتبة التي كان أول من وضع نواتها هو (بطليموس الأول[37]؛ 285 ق.م- 323 ق.م؛ Ptolémée 1er Sôter)؛ في العصر التاريخي القديم، ووصل عدد مجلداتها في زمن ما من ذلك العصر إلى سبعمائة ألف مجلد؛ لم يعد لها وجود؛ منذ أن أمر (ثيوفيلوس)؛ أُسقُف مدينة الإسكندرية المسيحي؛ خلال فترة عمله من 385م إلى 416م؛ بحرْقِها بدعوى أنها معقل الآراء والأفكار الوثنية الهدامة؛ التي تُعارِضها الديانة المسيحية، وقد أدحض الدكتور حسن رجب المصري (1911م-2004م)[38] -الذي اكتشف طريقة صناعة ورق البردي من نبات البردي الذي ينبت على ضفاف واد النيل؛ كما كانت معروفة عند المصريين القدامى؛ في كتاب عنوانه (البردي)؛ صدر ضمن سلسلة (إقرأ)؛ عدد شهر أبريل سنة 1981م[39]- بالحجج التاريخية الدامغة نسبة حريق هذه المكتبة إلى المسلمين الذين فتحوا مصر في عهد عمرو بن العاص (585م- 664م)؛ إبان خلافة عمر بن الخطاب (584م- 644م)، وأكد أنه لم يعد لها وجود في سنة 416م؛ أي قبل الفتح الإسلامي لمصر منذ أكثر من قرنين.

---

[37] هو مؤسس المملكة البطلمية بمصر؛ بعد أن كان رفيق ومؤرخ الإسكندر المقدوني، ثم حاكم لمصر، وكانت الإسكندرية هي مركز نشر الثقافة الهلنستية، ومصر مملكة لذلك.

[38] هو مهندس مصري متعدد الاختصاصات المدنية والعسكرية، هو الذي اكتشف طريقة صناعة ورق البردي من سيقان نبات البردي، كما كان يُصنع في عهد المصريين القدامى.

[39] هي سلسلة تصدُر شهريا في مصر عن دار المعارف.

ففي مداخلة الدكتور جابر عصفور (1944م- 2021م)؛ قال:«نحن نعلم أن المكانة التقليدية للكتاب سوف تتزعزع، فقد أصبحنا الآن ليس فقط أمام الكتاب المسموع، وإنما يمكننا تكوين مكتبات كاملة عن طريق شبكة الإنترنيت، فهناك شركات متخصصة في ذلك؛ تستطيع أن تتيح لك مكتبة خاصة؛ من خلال جهاز الكمبيوتر الخاص بك، إذن ماذا ستفعل المكتبة (مكتبة الإسكندرية) إزاء ذلك؛ خصوصا أنه في المستقبل القريب؛ ربما يتغير شكل القارئ ونوعُه، فكيف ستُواجه المكتبة هذه التغيرات؟».

كان هذا إعجازا؛ أفرزه التصور المستقبلي للمكتبات، فالفهرسة الإلكترونية هي غير فهرسة الكتاب المطبوع، فبات مؤكدا وضروريا في بناء المكتبات الجديدة، أو إعادة بناء مكتبات أخرى تداعت لبناتها، وأصبحت عوادي الزمن تتهدد ذخائرها؛ أن يُراعى فيها تداول الكتاب الإلكتروني؛ الذي ستتعدد أدواره، وأبرز ما يمكن أن نجني من ثمرات الوسائل، والبرامج الإلكترونية؛ هو أن هذه الوثائق القديمة ذات القيمة التاريخية والعلمية، والكتب التي تَنفد طبعاتها؛ فبدل من أن تتعرض لعبث الأيدي والسرقة؛ فإنها تُسجل إلكترونيا، وتُحفظ النسخ الورقية في مكان آمن.

# موروث المغرب الثقافي

تعني كلمة (الثقافة؛ Culture) عند مؤسس علم الأنتروبولوجيا، أو علم الإنسان؛ الألماني (جوستاف فريدش كليم؛ 1802م- 1867م؛ Gustav Friedrich Klemm) جميع الظواهر الاجتماعية لجماعة بشرية؛ من سلوك اجتماعي، وطقوس الحياة اليومية، ودين، وفن... لذلك وُجد فرع معرفي متخصص أُصطلح عليه بالأنتروبولوجيا الثقافية؛ يتناول في دراسته النواحي الاجتماعية لحياة الإنسان.

انطلاقا من هذا المفهوم العام للثقافة؛ يُعتبر أي شعب، أو قبيلة، أو جماعة بشرية؛ لها ثقافتها؛ التي تميزها وتختص بها؛ اكتسبت فيها حذقا ومهارة، فالأجيال التي تعاقبت مئات السنين صاغتها في ممارستها اليومية، فتمرست عليها، وصقلتها، ثم تناقلتها على مر العصور والأزمان.

إذن فما دام لكل مجموعة بشرية إرثها من مظاهر حضارية؛ فللبادية والريف[40] المغربي موروثه الثقافي؛ من عادات وتقاليد ولغات ولهجات؛ لعله آيل إلى الانقراض، وهذا بيت القصيد.

ففي الوقت الذي نفكر فيه أن نكتب عن مآل هذا الموروث الثقافي؛ يحضرنا قول طالما قرأناه في إحدى مُطالعتنا للكتب، وهو أن علماء الآثار، والمؤرخين، والأنتروبولوجيين، وعلماء الأقليات، والإثنيات في العالم؛ تُؤنبهم ضمائرهم، وينهش الندم بواطنهم، ويَعَضُّون على أيديهم الآن أكثر من أي زمان آخر؛ جراء ما حدث لحضارة الهنود الحمر؛ سكان القارة الأمريكية الأصليون؛ من إبادة على يد أقوام أوروبا البيض؛ التي هاجرت بأعداد هائلة خلال أربعة قرون؛ إلى القارة الجديدة؛ المكتشفة من طرف البحار الأيبيري (كريستوف كولومبوس؛1451م- 1506م؛ Christophe Colomb)؛ في ربيع عام

[40] المقصود بالريف أراضي الرعي، والتي تُفلح بهدف الزراعة؛ ما عدا المدن التي هي مجالات توسع العمران والعمارة.

1492م، فلما فكروا في البحث، والتحقيق، والتدوين، والتوثيق؛ كان قد فات الآوان، ولم يبق إلا النزر القليل؛ قد لا يُسعِفُهم في رسم صورة واضحة، وغنية وكافية عن حضارة الهنود الأمريكيين.

كذلك سيكون هذا المصير حتما على باقي قبائل وشعوب العالم، والمغرب طبعا ليس بمنأى عنه؛ أمام زحف ظاهرة العولمة، التي ستلتهم بلا ريب جميع الظواهر الاجتماعية المحلية، ليسود نمط حياة واحد، وسلوكات أفرزها توسع المدن، والتجمعات الحضرية الكبرى، وابتلاعه لخلاء البادية، وممارسته لتأثير مرهب على حياتها الاجتماعية التقليدية، وفي هذا ما يُهدد بالزوال مخزونها الحكائي، والأسطوري، والفولكلوري، وطقوس عيشها اليومي، وشعائرها الدينية ومعتقداتها؛ الذي تراكم مئات السنين، وتناقلته الأجيال، والحضارات في تلاقحها، واتصال بعضها ببعض؛ عن طريق الهجرات الكبرى، والحروب، والمصاهرة، والغجر، والبدو الرحل، والحكواتيين، والقوافل التجارية، والسفن الاستكشافية والتجارية، والمعارض، والأسواق، والمواسم.

فعِند قراءتنا لإحدى روايات الكاتب الأمريكي (مارك تواين[41]؛ 1835م-1910م؛ Mark Twain)؛ المشهورة وهي (مغامرات توم سوير)؛ كانت قد طبعت لأول مرة ونشرت في عام 1876م؛ نلاحظ أن المؤلف يسرد خرافات وأمثالا شائعة بين أطفال ذلك العهد في الجنوب الأمريكي؛ لا يُستبعد أن زنوج أمريكا نقلوها من إفريقيا موطنهم الأصلي.

وفي غياب أي حركة تدوين من طرف جهات رسمية؛ لهذه الحكايات والخرافات والأمثال الشعبية التي ما تزال جارية على لسان بعض سكان البادية المغربية؛ فإنها معرضة للاندثار، ومما يزيد الطين بلة؛ أن أبناء جلدتنا يسخرون بكل ما يمت بصلة بالبادية (العروبية)، وإن لاحظنا في الآونة الأخيرة أن ثُلّة من الشباب المتطلع تحاول إحياء فولكلور منطقة (خريبكة- وادزم)؛ كفرقة

[41] هذا اسم حامله للقلم الأدبي، أما الحقيقي فهو (صامويل لنغورن كليمانص؛ Samuel Langhorne Clemens).

(عْبيدات الرْمى)، إذن نسجل أن هناك حركة إحياء بمبادرات خاصة للتراث الموسيقي ولمادته؛ سواء بقالبه ومضمونه الأصيل، أو مع شيء من التصرف والتجديد؛ حسب ما تمليه راهنية العصر من تطور مجتمع المدن؛ كموسيقى وأغاني (الرّاي) في منطقة المغرب الشرقي.

تبقى حركة الإحياء هذه مقتصرة على الموسيقى والغناء والرقص، أما الأعمال والممارسات اليومية؛ في ميدان الزراعة والتجارة والقنص ومراسيم الزواج، والأعراف المتبعة في الحرث والحصاد والسقي والرعي والتنبؤ بأحوال الطقس، والصناعات المحلية، فلا يمكن العودة إليها في عصر العولمة والمعلوماتية؛ بل تُدوّن بوصف دقيق، وتُوثّق فقط؛ يمكن الرجوع إليها متى كان ذلك ضروريا، وحاجتنا ماسة إليها.

ومما يحكيه كبار السن اليوم؛ الذين ما يزالون على قيد الحياة؛ عن الدور الخطير الذي كان يلعبه اليهود في بادية المغرب قبل سنة 1912م؛ تاريخ التوقيع على عقد حماية فرنسا على المغرب؛ كوسطاء في المفاوضات بين قبيلتين؛ إحداهما سَبَت نسوة القبيلة الأخرى؛ في إحدى غاراتها؛ في زمن السيبة؛ إذ يتم الإفراج عنهن بفدية مالية أو عينية، فيتوجب إذن أن يُخصّص لهذا بحث تاريخي، واجتماعي؛ اعتمادا على الرواية الشفوية، فقد يتخَطّف الموت هؤلاء المعمرين في السن؛ بعد عقد من الزمن أو عقدين، فيحملون معهم أسرار البادية المغربية، وإلى الأبد، فكثير من الحكايات والقصص والروايات التاريخية، والأحداث السياسية، والأدوات المستعملة في الأعمال اليومية؛ انقرضت وانسحبت في طي النسيان؛ بدون أن تكون لنا معرفة بها، ولا تحظى باهتمام؛ سواء من طرف المتخصصين في تدوين التراث والموروث الثقافي، أو المنتدبين لذلك.

ومن يأخذ على عاتقه مسؤولية الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب؛ قد لا يُلقي اهتماما أو بالا إلى هذا الموروث الثقافي أكثر. في هذا المضمار قد

يستقي الروائيون، والقصاصون، والشعراء؛ مادة إبداعاتهم الخام من التراث؛ مما يجعلهم يبتعدون عن الابتذال، وتناولهم لموضوعات مستهلكة وساقطة.

ويمتاز الموروث الثقافي والتراثي في المغرب بالغنى والتنوع؛ سواء داخل نظام القبيلة ذات الأصل والعرق الواحد، أو بين جميع القبائل، والجماعات السكانية؛ التي عمرت المغرب خلال القرون الماضية، كعرب فجر العصر الإسلامي الفاتحين، والأفارقة السود؛ الذين استقدموا في عهد الدولة السعدية؛ عندما امتد نفوذها إلى بلدان ما وراء الصحراء الكبرى (الحملة العسكرية إلى تامبوكتو في عهد السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي؛ في سنة 1591م)، والقبائل العربية؛ بنو هلال، وبنو سليم وبنو معقل -كانت هذه قد هاجمت منطقة المغرب العربي؛ في عهد الدولة الفاطمية؛ في القرن الحادي عشر الميلادي؛ أرسلها الخليفة (المستنصر الفاطمي؛ 1035م-1094م)؛ لمهاجمة حاكم تونس (المعز بن باديس من آل زيري؛ 1017م-1061م)، عندما قطع ولاءه للفاطميين المتمركزين في مصر، فاستولت تلك القبائل على تونس ودمرتها سنة 449هـ؛ الموافق 1057م- وقبائل منطقة الريف، وقبائل شلوح الأطلس المتوسط، وقبائل سوس الأطلس الكبير والصغير، والقبائل الحسانية في الصحراء الكبرى بالمغرب، ومورسكيي الأندلس، وهؤلاء استقروا بالحواضر الكبرى؛ عقب سقوط دولة بني الأحمر بالأندلس (تطوان، شفشاون، فاس، سلا، الرباط...)، واليهود؛ سواء الذين تركوا المغرب، أو الذين يقيمون به، أو الذين يعودون.

حافظت هذه القبائل أو العناصر البشرية على عاداتها، وتقاليدها؛ نظرا للعزلة التي فرضتها عليها الظروف الجغرافية، فقد حاول السكان ذوو الأصول البربرية الاستقرار بالجبال، والتكيف مع المعطيات البيئية الجبلية، والظروف التاريخية والمتمثلة أساسا في كبح جماح الإمبراطورية العثمانية التوسعية؛ عند الحدود المغربية الجزائرية؛ في أوج عظمة وقوة الدولة السعدية، ويمكن القول أنه منذ هذا التاريخ تشكل الكيان الجغرافي والسياسي لدولة المغرب الحالية،

كما أن السلطة المركزية في القرن التاسع عشر، وحتى بعد دخول فرنسا إلى المغرب بقليل؛ لم تستطع إخضاع بعض هذه القبائل، وبسط سيادتها عليها، فانقسم المغرب آنذاك إلى بلاد المخزن وبلاد السيبة (مقاومة قبائل الريف، وقبائل الأطلس المتوسط، ومقاومة عسو باسلام (1890م- 1960م) في شرق الأطلس الكبير).

أما منذ المفاوضات التي جرت بين السلطان المولى عبد الحفيظ (1876م- 1937م)، والضابط الفرنسي (أوجين رونو؛ 1857م- 1941م؛ Eugéne Regnault) بفاس؛ انتهت بالتوقيع على عقد الحماية في 30 مارس 1912م. عملت السلطات الفرنسية بواسطة إجراءاتها العسكرية على تكسير عزلة تلك القبائل؛ بهدف تحصيل الضرائب، والإتاوات في الأسواق الأسبوعية، كما ركزت الأنشطة الإدارية والاقتصادية في المنطقة الشمالية الفرنسية (المغرب النافع كما وصفه المقيم العام الفرنسي هوبير ليوطي؛ 1854م- 1934م؛ Hubert lyautey)، في إطار أول سياسة جهوية استعمارية نافعة؛ ليستجيب لمتطلبات ومصالح فرنسا الامبريالية في تصدير المواد المعدنية الإستخراجية (الفوسفاط، الحديد...)، والمنتجات الفلاحية عن طريق (ميناء ليوطي؛ Port Lyautey) مدينة القنيطرة حاليا، او ميناء الدار البيضاء، فتشكلت مناطق طاردة للسكان، بسبب قساوة العيش وظروف الجفاف، وهي البوادي والقرى الفقيرة، وأخرى جاذبة لهم، فانخرط سكان الأرياف في أكبر حركة هجرة داخلية؛ إلى المدن الكبرى؛ وصلت أوجها في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين؛ ليتم تذويب خصوصيات البدو والقرويين، ولتظهر الأسرة الصغيرة بدل الأسرة الأبوية الكبيرة؛ التي كانت تُشكل عنصرا هاما لنظام القبيلة، وبالتالي ستنحصر حياة البداوة، وما كان مرتبطا بها من نظام اجتماعي قبلي.

# الإعلام والإبداع الأدبي

للصحف؛ سواء التقليدية منها، أو (التابلويد؛ Tbloïd)[42] والمجلات دور كبير لا يُنكر في دعم الإبداع الأدبي؛ بنشرها للشعر، والقصص، وحلقات من الرواية، فالمبدع سواء كان شاعرا، أو قاصا، أو روائيا؛ ينتابه شعور إيجابي؛ عندما يجد عنوان إنتاجه الإبداعي منشورا بالبنط العريض، ويركن اسمه في جانب ما من الصفحة، ويعرف مداه رؤساء التحرير، إذ يراوده الأمل في أن يصبح في يوم ما محط أنظار القراء، والنقاد بجميع فئاتهم، وطبقاتهم، فينغمس بكل ما أوتي من صحة بدنية، ومالية في القراءة والكتابة، واقتناء الكتب؛ بإقدام ورغبة جامحة لا نظير لهما، ويبقى -على كل حال- للكد والجد في آخر المطاف ثمرته.

أما رؤساء التحرير فهم أدرى بمهمتهم وحرفتهم، فطريقة عرض الأخبار والمقالات والإنتاجات الأدبية على مساحة صفحات الصحيفة، أو المجلة؛ له ما يُبرِّره من الناحية الإعلامية؛ أكثر ما يبرره من ناحية فنية النص وروح الإبداع ، فالإعلام المكتوب أصبح يفرض على المبدع الأدبي؛ قدرا معينا من الكلمات؛ في حدود ستمائة كلمة، فلا مجال لنشر قصة طويلة، أو قصيدة شعرية زائد عدد بيوتها عن المطلوب؛ تأخذ أكثر مما يلزمها، لأن الصورة الفوتوغرافية تحتل في الوقت الراهن حيزا كبيرا.

فليس لرئيس التحرير ربحا يجنيه؛ إذا لم تكن الصفحة يميزها التنوع؛ في العرض، وحجم العناوين، والصور، والرسوم، لجذب المارة إلى أكشاك المطبوعات الصحافية، وتهييء مائدة تزخر بأصناف متنوعة من المقالات والأخبار تحرك شهية القارئ وتُثير فضوله.

[42] من ناحية الحجم هي نصف الجريدة التقليدية؛ ذات الأبعاد: 57.5x41 سنتيمتر، أما أبعاد (التابلويد)؛ فهي: 43x28 سنتيمتر.

فلم يبق من الضروري أن نعتكف في بيوتنا؛ لنسود الصفحات تلو الصفحات، فقد نكتفي بجلسة في المقهى نرشُف الشاي أو القهوة من كؤوسهما، ونكتب قصة قصيرة؛ أو القصة القصيرة جدا، أو قصيدة شعرية؛ لا تزيد عن صفحة واحدة، وبالبنط 16، ونحن نُمتع أبصارنا في الرائحين والغادين، في رأيي أننا سنُنتج أدبا نسميه (أدب المقاهي).

قد نجلس في المقهى لنلتقط أنماط الشخصيات، والمواقف الواقعية الغريبة والفريدة كمادة خام للكتابة، لا لنكتب ونحن جالسون نستأنس ممن بصحبتنا على مائدة المقهى، هُروبا من محنة الكتابة، ومن الاعتكاف في محرابها.

فماذا كانت نتيجة إبداع الصحف؟ تراكم كمي لإبداع يطويه النسيان، بل لا يقرأه أي أحد، والقراءة ليست تقليدا يُحسد عليه المغاربة!

هل آن لنا أن نطرح سؤالا؛ قد لا يُرضي البعض: هل الصحافة ووسائل الإعلام تدعم الإبداع الأدبي كَمًّا وكيفا، أم يحتضر في أحضانها؟

نطرح حلا للنقاش؛ أظن أن الجميع يرى فيه الحل الوحيد، وهو اتباع أسلوب التكثيف والإيجاز، لأن هذا مطلب قد يهم القصة وحدها أكثر من أي جنس أدبي آخر، فأوجز جملة بل فقرة في كلمة واحدة فقط، لكن أنّى لنا من أسلوب التكثيف، هل نقرأ وننوع قراءاتنا؛ لمن أوتوا من هبة البيان من الأدباء القدامى والمحدثين؟ هل نقرأ لما في الأدب القديم، وأدب النهضة والحديث؛ من جميل أساليب الكتابة؟ أم أننا نريد أن نُبدِع شيئا آخر غير الأدب؛ شيئا آخر لا وجود له بالمرة، ولا اصطلاح له في النقد الأدبي.

هل نجد الآن أحدا من بين المبدعين؛ يحتذي بالروائي والقاص المصري نجيب محفوظ (1911م- 2006م)؛ الذي قرأ ما يكفي من الآداب العالمية ليُبدع أدبا روائيا، ففي استجوابه من طرف مجلة (آخر ساعة) المصرية؛ في ثمانينيات القرن الماضي؛ قال بأنه اِعتكف في مرحلة مبكرة من عمره في غرفته؛ دون أن يبرحها ليلا ونهارا ليقرأ الإنتاج الفكري والأدبي في مختلف مراحله التاريخية، منذ منابعه الأولى في حضارة ما بين الرافدين، والهند، واليونان، والرومان

وآداب العربية الإسلامية ولُغتها؛ مرورا بأدب النهضة الأوروبية، ووصولا إلى الأدب الغربي الحديث والمعاصر، أو بالصحافي والمراسل الحربي والكاتب والروائي والقاص الأمريكي (إرنست هنجواي)، الذي لم يَكلّ يوما ما من الرحلات في أرجاء أوروبا وآسيا وإفريقيا، فأنجز روايات اِتخذت من تلك الرحلات مادة خام لأحداثها، كرواية (لمن تدق الأجراس)؛ صور فيها المجازر البشعة التي قام بها الجمهوريون، وكان ضحيتها الفاشيون؛ إبان الحرب الأهلية الإسبانية، ورواية (تلال إفريقيا الخضراء) التي سجل فيها رحلات الصيد في أدغال إفريقيا، وقصة (الشيخ والبحر)، التي استقى أماكنها، وأفضيتها؛ من جزيرة كوبا. يصل عدد صفحات هذه القصة إلى مائة وثماني وأربعين صفحة؛ إلا أنها تنتمي إلى جنس القصة؛ كما يرى نقاد السرديات؛ باعتبار عناصر حدثها.

دأبت بعض الجرائد والمجلات وما زالت؛ على نشر قصة الأسبوع، وهو تقليد يُدرِك مدى أهميته الأدبية والإعلامية المشتغلون بالحقل الإعلامي؛ تتمثل فيها مقومات القصة القصيرة، دون أن يتقيد كاتبها بشرط أو بسبب يقيد حريته في الإبداع شكلا ومضمونا. ليست القصة قصة بالمعنى الأدبي إذا لم تُقرأ وتبقى حاضرة في ذاكرة القارئ لمدة طويلة، وربما مدى عمره؛ تحفر آثارها في نفسيته، وتلعب دور المرآة التي يرى فيها خُلُقه وليس خِلقَتُه؛ هذا ما يحبذه محرر صفحة الإبداعات ورئيس التحرير؛ اللذان يسعيان إلى تقديم الجيد والمفيد للقُراء، وتحقيق أكبر قدر من رواج الصحيفة اليومية، أو المجلة الأسبوعية، أو الفصلية.

بيد أن بعض الجرائد اليومية، أو المجلات الأسبوعية؛ غيّبت عن صفحاتها جنس القصة لأسباب؛ إذا تكلفنا في تخمينها، وعَدّدناها قد نكون صائبين وغير صائبين، فيبقى رؤساء التحرير وحدهم أدرى بها، واستعيظت بنص سردي واقعي، أو مُتخيل؛ يشد القارئ إلى حدثه.

هل لأنه لم يبق من أدب القصة والشعر ما هو صالح للنشر؟ أو لم يبق من كُتّاب القصة الجيدين من يُنشر له؟ أم هناك أسباب تُطرح داخل نسق ما يَمُتّ بصلة بمشكل القراءة؟ فالجرائد والمجلات خاصة هي أقرب وسيلة إعلامية إلى القارئ لثمنها البخس. يبقى الإقبال على الكتاب، الذي عادة ما يُستصغر حجمه من طرف الناشرين؛ إذا كان قليل الصفحات؛ يخص فئة صغيرة من المثقفين والمشتغلين بمهنة التعليم، وطلبة الجامعات، وقد نقول أن أدب القصة أضحى شيئا غريبا في المجتمع.

أذكر أنني قرأت في كتاب (أصداء السيرة الذاتية)؛ الذي ألفه الروائي نجيب محفوظ؛ أن أحد النقاد الألمانيين الأدبيين في ترجمته لقصة نجيب محفوظ عنوانها: (عنبر لولو)، ونُشِرت في جريدة (تسايت الألمانية؛ Zeit Magazin)؛ قال بأن المصريين يعرفون نجيب محفوظ روائيا وقاصا، لكنهم لا يعرفون قيمة أدبه، فأَحْدُس ماذا سيقول هذا الناقد الأدبي الألماني عن المغاربة، عندما يُدرك أنهم لا يقرأون لأُدبائهم، أو بالأحرى لا يعرفونهم، وقال ذلك الناقد الألماني أيضا آنذاك، وفي نفس الجريدة: «لو كان نجيب محفوظ عندنا؛ لأنفقنا مئات الملايين حتى يحصل على جائزة نوبل للسلام»، وقد حصل عليها نجيب محفوظ فيما بعد كما تنبأ بذلك هذا الناقد الألماني.

فالقصة ليست اختراعا صحافيا، بل هي وليدة الحكاية والنادرة، والمُلحة، ونوع من رواية الخبر، أو حادثة عابرة؛ تطورت على يد مخترع القصة القصيرة الحديثة -بلا مازع- الكاتب والقاص الفرنسي (گي موباسان؛ 1850- 1893م؛ Guy de Maupassant)، ونظرا لقصرها من ناحية الشكل، وجدت لها مكانا على صفحات الجرائد والمجلات.

# جيوسياسية غزو العراق[43]

قليل منا من يُمسِك بخريطة الشرق الأوسط؛ وهو يُتابِع تحرك القوات المتحالفة قسرا، وتحت ضغوط الدولة الأمريكية التي غدت أكثر من أي وقت آخر تملك نفوذا لا نظيرا له في العالم، لأن لها ما تشاء من وسائل التهديد والتدمير والتحايل والتعتيم؛ ما يجعلها تُدِير شؤون العالم من مركز قرار وحيد لا يشاركها فيه أي أحد، ولا يضاهيها فيه كائن آخر يدب على اليابسة، أو يُحلّق في الفضاء، أو يغطس في أعماق البحار، والمحيطات؛ هذا ما يبدو، هل هو حقيقة أم خيال؟ هذا موضوع آخر.

أول تأملاتنا للخريطة يدعنا نطرح السؤال التالي:

لماذا انطلقت قوات أمريكا، وحلفائها من الجنوب الشرقي للعراق؛ للزحف على بغداد عاصمة العراق؟

## مُعطى جغرافي وآخر سياسي:

أول المعطيين: يتمثل في الخليج العربي الذي مهد للسفن الحربية، وحاملات الطائرات، والغواصات؛ الانسياب بسهولة على سطح مياهه، أو الغوص فيها، والوصول إلى نقطة حساسة هي مدينة (أم القصر)، التي لا تبعد عن العاصمة بغداد إلا بـ400 كلم تقريبا، وعن مدينة البصرة العراقية إلا بِـ 30 كلم تقريبا.

ثانيهما: يتمثل في دولة الكويت التي تتنازل عن سيادتها الكاملة، فتُسخّر أراضيها للقوات الأجنبية التي يتواجد جزء منها في المنطقة منذ حرب الخليج الأولى، والتي كان لها دور في ردع العراق، وإرغامه على الانسحاب إلى داخل حدود جغرافيته السياسية.

---

[43] نُشر هذا المقال على الصفحة الأولى لجريدة (المنعطف) المغربية؛ العدد 1660؛ في 29 مارس 2003؛ قبل غزو العراق من طرف قوات التحالف الدولية؛ في حرب العراق الثانية؛ للقضاء على حكم صدام حسين، وهو مقال توقعي آنذاك.

ومما يجعل المهمة المخطط لها من طرف الحلفاء الذين أعلنوا الحرب على العراق، وهي الانقضاض على بغداد العاصمة، حيث مقر القيادة العليا للعراق صعبة وطويلة؛ من حيث الزمن ومُرهقة، وهو التواجد العميق لهذه المدينة في أرض العراق، فهي تبعد من الغرب عن ساحل البحر الأبيض المتوسط بمسار طائر بِـ800 كلم تقريبا، وعن خليج (العقبة) في البحر الأحمر بأكثر من 900 كلم، وسلسلة من المدن تتراوح ساكنتها ما بين 500 ألف نسمة، ومليون نسمة؛ تتمركز في طريق الزحف هي كالتالي:

– انطلاقا من الجنوب: البصرة والناصرية والنجف والحلة وكربلاء؛ هذه الأخيرة تبعد عن العاصمة بغداد بِـ100 كلم تقريبا.

– انطلاقا من الشمال، وعلى مسافة 500 كلم تقريبا تتمركز مدن أخرى تتراوح ساكنتها أيضا ما بين 500 ألف نسمة ومليون نسمة، وهي الموصل وأربيل وكركوك والسليمانية.

جميع هذه المراكز الحضرية تتوزع في نطاق جغرافي طويل؛ يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي للعراق؛ يشمل حوضا غير متضرس جغرافيا؛ يجري فيه نهران دائما الجريان؛ ينبعان من مرتفعات (طوروس) الجبلية في شبه جزيرة الأناضول، حيث دولة تركيا، وهما دجلة والفرات، هذا يدفعنا إلى القول بأن هذه الجغرافية الطبيعية لا تلعب دورا مهما في استراتيجيات العراق وخططه الحربية، لأن سهولة طبغرافيته تساعد حتما على اختراق العراق من طرف قوات التحالف، حيث ستقضي على كل مركز مقاومة عراقية يوجد بالمدن، والتجمعات الحضرية التي سبق ذكرها؛ لتصل إلى العاصمة بغداد.

فالقصف الجوي سيُقلل من أهمية الدور الذي يلعبه التمركز العميق للعاصمة بغداد؛ في أراضي العراق الشاسعة، والذي يكون تحديا إلى حد ما أمام الهجوم البري، وهذا ما تحاول القوات الأمريكية والبريطانية فعله؛ لعزل القيادة العراقية ببغداد؛ عن باقي مراكز المقاومة الموزعة في أرض العراق؛ ليتم إخضاع كل واحدة على حدة.

وفي المحيط الحربي العراقي؛ لا ندري كيف يجري التنسيق في العمليات الحربية بين القيادة المركزية وباقي الوحدات التي تُدافع عن المدن الشمالية والجنوبية؛ أفراد هذه الوحدات تتم ممارسة حرب إعلامية نفسية عليهم؛ لدفعهم إلى الاستسلام بأنه لا فائدة من المقاومة؛ ما دام يتم نسف القيادة العراقية في العاصمة، والقضاء عليها قضاء تاما.

## ما المعطى البديل؟

يتردد كلام أن القيادة العراقية تستميل القوات الغازية إلى حرب المدن؛ حرب الشوارع والأزقة والخنادق، ومكامن عناصر المقاومة، هذا كل ما يمكن أن يُسعف القوات العراقية، لأن العاصمة بغداد التي يبلغ عدد سكانها أكثر من مليوني نسمة؛ مدينة قارية نشأت في ملتقى الطرق القادمة من الشمال والجنوب، ومن الشرق والغرب، وتوسعت عُمرانيا في جميع الاتجاهات حول نهر (دجلة)، فهي نوع من مدن لها تصميم (عنكبوتي)؛ كما يُصطلح عليه في علم جغرافية المدن، فشوارعها وطرقها وأزقتها تتشابك، وتتداخل فيما بينها، فإلى أي حد سينجح المقاومون العراقيون في جعل بغداد مقبرة لفيالق الحلفاء الغازية وآلاتهم العسكرية.

في إطار منهج المقارنة، فإن مناطق جغرافية في العالم عسيرة الاختراق برّا كـ(روسيا)؛ لشساعة أراضيها، وامتدادها القاري في القارة الآسيوية؛ شرقا، وشمالا؛ حيث دائرة الأراضي الجليدية، التي يسودها مناخ قاري وقاس في الفصول الباردة، وهذا سر انكسار جميع الغزوات التي كانت تستهدف العاصمة موسكو من الغرب، كالجيوش النابليونية، وجيوش ألمانية النازية، نفس الشيء يجري على الصين الشعبية والفيتنام؛ هذه الأخيرة رأينا إلى أي حد كان تراجع المقاومين الفيتناميين داخل البلاد، وزحف القوات الأمريكية على جنوب البلاد فيه حتف ساحق لهؤلاء، ففي كل خطوة تراجع للفيتناميين؛ يعني مستنقعات وأدغال وأحراش ومصايد تقليدية وحفر طامرة، وقناصة كأنها أشباح تتحرك بسرعة، وتصوب بنادقها لتصيب الأمريكيين

إصابات قاتلة، فالفيتنام كانت بحق مُستنقعا مُروِّعا، وسيظل حاضرا دائما في ذاكرة الأمريكيين، ورمز تحد لغطرسة هؤلاء واندفاع رؤسائهم الطائش، لأن للطبيعة كيانها الذي لا يُقاوم، وهي صراع أبدي مع الإنسان الذي يحاول ترويضها وتطويعها بالتكنولوجيا المتطورة.

أما طبغرافية العالم العربي فهي غير متضرسة في الغالب؛ باستثناء بعض المناطق في شمال المغرب العربي، ومناخه معتدل وشبه جاف، فلا يمكن أخذه بعين الاعتبار في استراتيجياته العسكرية، خصوصا وأن أغلب عواصم البلدان العربية تقع على السواحل، أو غير بعيدة عنها (الرباط، الجزائر، تونس، طرابلس، القاهرة، دمشق، بيروت، جيبوتي، مقديشيو، نواكشوط...إلخ).

ما السر في ذلك؟

ولأن العواصم الإدارية والاقتصادية لأغلب دول العالم العربي -قبل أن تصبح مدننا بحجمها الحالي- كانت أصلا عبارة عن ثغور بحرية ومراس لرسو سفن الدول الأوروبية الحربية؛ التي قدمت للغزو والتجارة في القرنين السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، وفي العقد الأول من القرن العشرين، فظهورها إذن كان وليد مصالح الدول الأوروبية التجارية الإمبريالية؛ تتجلى في تسهيل الصادرات، والواردات، باستبدالها أو شحنها عبر البحر، وإن أفرزت مسالك الحرير في شبه الجزيرة العربية والشام، وطرق الذهب في شمال إفريقيا -التي كانت تسلكها قوافل الجمال- مراكز حضرية، إلا أنها لم تتحول إلى مدن لتركز وتطور الأنشطة التجارية والصناعية، ومجال لتوسع وازدهار العمران، فيبقى دورها محدودا كمدينة (مراكش)، أو اندرس عمرانها كمدينة (سجلماسة)، عندما نافست التجارة البحرية الأوروبية طرق الحرير والذهب البرية منذ القرن الخامس عشر، فوقع بذلك سلب لأسباب رُقي وتفوق المسلمين والعرب.

# فعل القراءة وأدواته

إن في حديثنا عن القراءة وعن الكتاب؛ تخليط وخبْط ليل واختلاف ومُفارقة، وهذان الأخيران يتولدان، أو ينتجان من أن الفرد أو الجماعة؛ يتكلم ويتقول مما يجعل شخصه، ومورد رزقه في حصن منيع، وفي جميع هذا الذي يُصاغ فيقال له: (صراع الأجيال)، والتحمس للجديد ونبذ القديم، والاستهزاء به، واحتقاره، ويُعدّ على أنه عمَّر بما يكفي من القرون، وقد خَرُف وسيموت، فتروج كلمة (القراءة)، وتروج معها كلمة (الكتاب)، وقد أخذ هذان الشيئان باهتمام شديد ممن تصله علاقة وطيدة بهما، وفيهما حُبّه لهما ورغبة، وشُغله وأجرته التي هي دائما مطلب استزادة، أو استثمار لرأس مال؛ يجدّ ويكدّ ليثرى بأرباحه، ولا ريب في أن من خبرهما؛ أي القراءة والكتاب؛ من هؤلاء الذين يشتغلون بهما؛ لهم وعي ومعرفة بتغيرات الزمن، وتحولاته التي لا ترحم، وهنالك قوم تَعيّشوا قرونا -وقد سبق نشر لغتهم في البعض الكثير من بلدان العالم حروب قهر واستضعاف- من المنظوم من الشعر، والمنثور من الخواطر، والقصص، والحكايات، والروايات، والتفكير، والتنظير، والتقعيد في شتى مجالات العلوم الإنسانية والعلوم البحتة؛ قد أقروا أن هناك هزة أُحدثت في أركان هذا الميدان، وأنهم يتأقلمُون ويتكيّفون مع تطورات حدثت في تِقانة العصر؛ هؤلاء هم الفرنسيون، فينطقون في حسرة وفي أسف بهذه الجملة البسيطة، وما أكثر ما يرومون هذه في لُغتهم وتخاطبهم وتواصلهم: « Nous n'avons pas le choix»، أي ما ترجمته: «ليس لدينا خيار»، ولم أكن أعرف عن الفرنسيين؛ مُبدِعوهم، وكتابهم، ومفكروهم، وعلماؤهم، وصحافيوهم، وناشروهم؛ خوفَهم من الجديد والمستحدثات، والهلع ممن يهدد جماعة منهم، وتخصصات في مجال نشر الكُتب، وإنك لتأسف لأهل بلاد (الغال)، وبيننا من تتلمذ عليهم، وتخرج من جامعاتهم ومعاهدهم، وحصّل العلم في فصولها وفي أروِقتِها، واطلع على ما في خزاناتها، ولما عاد من هجرة

التعليم والتحصيل ظل وفيا ومُتعاطِفا، ونحن لا ننكر ممن لم تسنح له فرصة السفر إلى أوروبا للدراسة، والتلقي، والنهل من علوم الحضارة الغربية؛ أنهم أضافوا وأغنوا. تتأمل في مآل نشاط هؤلاء في التأليف والنشر؛ عندما تحل ببلادهم آلة لا أستبعد أنها أُسْتُغرِبت من طرفهم؛ كما استغرب الإنسان أشياء كثيرة عبر عصوره التاريخية، وظنوا أن بها جِنّ يُمفصل قضبانها الفولاذية؛ لتتحرك، فتُحبِّر الورق، وتُرقّم صفحاته، وتضم بعضه إلى بعض، وتُلملِمه بغلاف متين وصقيل، وتقص ما يزيد على الحد، فتلفظ تلك الآلة كتابا قد يتراوح عدد صفحاته ما بين أربعين وثمانمائة صفحة، وفي دقائق قليلة، وفي أبهى طبعة؛ تتصفحه وتقرأه، ولكن قبل هذا كنت قد ضغطت على زر عليه عناوين لكتب؛ خُزّن محتواها في ذاكرة الآلة الإلكترونية، ومن بين تلك الكتب ما يُمتّع، ويُثقّف، وهي تلك الكلاسيكيات في الأدب والفكر والعلم؛ طالبا ما اشتهت نفسك إلى الاطلاع عليه، أو قراءة ما رغبت فيه، هذه الآلة لها اسم هو: (Espresso book machine)، وهي أشبه في خدمتها بآلة تحضير مشروب القهوة: (Espresso coffee)، صنعتها الشركة الأمريكية (Xerox)، وقد نظر إليها أولئك القوم بريبة، وقد جيء بها إلى بلادهم، أو جُلبت، ووضعت في مكان واحد ولا في غيره من أمكنة الرّبوع في مدينة (ليل؛ Lille)؛ في شمال فرنسا قريبا من حدود هذه مع بلجيكا.

فآلة (Espresso book machine) تُحضِّر لك كتابا تقرأه، وقد استيقظت في الصباح تنعم بضياء الشمس الشارقة، كما تحضر لك آلة ( Espresso coffee) فنجانا ترشُف منه القهوة.

وسنربط هذا الكلام بما يلي حتى يُفهم ويُستوعب، فنقول أنه إذا حاولنا أن نُبيِّن أين التَّخليط وخَبط الليالي اللذان أُسلف ذكرُهما، واللذان أحاطا بالقراءة والكتاب كموضوع للنقاش والجدال، وكمسألة تتطلب الافتراض والتحليل والتعليل، وإن شئت البحث عن وسائل وإجراءات وحلول لمشكلاتها، فلا

ضير، ولا حرج، في أن نلوذ بمنهج التفسير اللغوي، ولعل هذا يُقرِّبنا من لبّ القراءة والكتاب، ويجرفنا إلى خِضمِّهِما فنخوض فيه.

فمصدر فعل القراءة هو (قَرَأَ)، فما معناه وما هو تعريفه، وكيف شرحته وفسرته معاجم اللغة العربية؟

ففي معجم (المعاني الجامع) فالذي «قرأ، يقرأ، قراءة، وقرآنا، فهو قارئ، والمفعول مقروء»، ونقول: «قرأ الكتاب ونحوه: تَتَبّع كلماته نظرا، نَطَق أو لا»، ونقول أيضا: «قرأ الغيب: تكهّن به يزعم أنه يُجيد قراءة الكف»، فباستطاعتي أن أقرأ بتتبع -نطقا أو بدونه- ما رُقِم، أو خُط، أو رُسم على الصخر، أو الرِقّ، أو الرُّقم الطينية (Les tablettes d'argile)، أو (الكاغِد)، أو ورق البردي، أو ورق ألياف السليلوز، أو على الشاشة التي تُظهِر الحروف، والكلمات بالمداد الإلكتروني (Electronic Ink)، فالقراءة شيء يختلف كلية عن أحد هذه التي تسمى بلغة العصر بـ(الحوامل؛ Supports)، وهي وسائل تقنية يجمعها نوع واحد من بين عدة أنواع أخرى؛ يطلق عليها اسم (حوامل التواصل)، وهي إما مطبوعة على الورق أو غيره أو رقْمية، وعدة من تلك حوامل أخرى؛ فهناك حوامل التوثيق كأقراص التسجيل والتحميل Clé (USB، CD، DVD)، والأقراص الصُّلبة (Disques dures)، فالإنسان وعبر عصوره التاريخية كان ينقش ويَرقُم ويخط ويقرأ؛ نظرا أو نُطقا، وعميد الأدب طه حسين ومثله الأعلى أبو العلاء المعري، وغيرهما من الشخصيات والأعلام الذين كف بصرهم؛ لم يتلقيا علمهما قراءة بتتبع الكلمات على أحد تلك الحوامل، وإنما سمعا بآذانهما؛ لأنهما كانا كفيفين لا يُبصران، ولم يكن أحدهما -وهو طه حسين- قد سمع بخط (براي)، وكُتُبه إلا فيما بعد؛ الذي ابتكرت طريقته وخصها للضريرين؛ بالقراءة لمسا لما برز من الحروف؛ من طرف المنسوبة إليه وهو الفرنسي (لويس برايل؛ 1809م- 1852م؛ LOUIS Braille).

فبهذا العرض والفهم فالجميع يقرأ؛ ينظر إلى الكلمة والتي تليها، وإلى الجملة والتي تتبعها، أو ينطق بها؛ سواء ما خُط، أو طُبع بالمداد الصيني السائل أو بالمداد الإلكتروني، أو على الكف تكهُّنا بالغيب.

ألا نتحدث عن كل واحد من تلك الحوامل لنستزيد، ليَتبيّن لنا أن لا علاقة بين الحامل للحروف، والكلمات، وشغف القراءة؟

وقد قلنا الصخر، فالحفر عليه يُتيح أشكالا ورموزا، وقد قام الإنسان الأول في عصور ما قبل التاريخ بذلك؛ بشظية من صخر الصَّوان (Silex)؛ سنّ شفرَتها وشحذ سِنّها، فصور ما كان يحيط به في بيئته من حيوانات، ونقش على الصخر جماعة من القناصين يَعْدون في أثر طرائد الغزلان شاهرين حرابهم ونبالهم، وهذا زاد من معرفتنا بتلك البيئات الطبيعية القديمة، وبذلك النوع من المناخ الذي كان سائدا، فأدركنا أن الصحراء الكبرى لم تكن مجالا شاسعا قفرا؛ تُغطّيه كثبان رملية، وإنما كان عيونا وأنهارا وغابات مورقة أشجارُها، وكثيفة أغصانُها، تعيش بها الحيوانات اللاحمة منها والعاشبة، والزواحف والطير والهوام، ولولا الاحترار العالمي الكبير الذي أعقب آخر فترة جليدية تسمى بِـ (وورم؛ Wurm)، والتي اختفت حوالي عام ثمانية آلاف قبل الميلاد؛ لما تراجعت قلنسوة الثلج في القطب الشمالي، ولا ظلت أقوام الشمال ترتحل وراء حيوان (الرنّة)، ولما انسابت المياه من المرتفعات الجبلية والهضاب العالية؛ إلى ما انخفض من الأرض في مجار وأحواض؛ الحاجة إلى تدبيره تستدعي الأفكار، فظهرت حضارات وازدهرت على ضفاف نهري (دجلة)، و(الفرات)، ووادي (النيل) ونهر (السوب؛ Rio Sup)، الذي يخترق صحراء (البيرو) التي ما تزال بها آثار حضارة (الكارال)، من العصر القديم، بعد أن زحفت الصحاري، وهاجرت الجماعات البشرية، واستقرت بالقرب من مياه الري؛ مستفيدة من حمولة المياه من غِرْين وطين، ومن هذا الأخير عُجِنت ألواح؛ لا تُشوَى بالنار إذا كان الغرض ظرفيا، وتُشوَى إذا كان الغرض الاحتفاظ بها لمدة زمنية طويلة، وقد ظلت مئات السنين مُكدّسة في رفوف

إحدى مكتبات العصر القديم؛ نقب عليها علماء الآثار في مدينة (أوغاريت) الأثرية بسوريا، حُفِر فيها بإسفين مسنون خطاً يُقرأ، وحَفظت لأجيال الحضارات الأخرى قوانين (حمورابي)، وملحمة (جلجامش)، وغيرها، وسُمي ذلك الخط بالخط المسماري، وتلك الألواح بالرُّقم.

والرِقّ مدبوغ من جلد الغزال، وليس أي غزال، فهو مسلوخ من صغار الغزلان؛ لرقته وليونته، فكانت صُحُفا تُقرأ.

وعلى ضفاف وادي النيل؛ سواء في بلاد مصر أو السودان أو إثيوبيا؛ ينبت نبات البردي العالي الساق، وتُتوّجه أوراق إبرية الشكل؛ كانت تُشقّ عيدانه طوليا إلى نصفين، ويُضمّ بعضها إلى بعض في مجوعتين؛ إحداها على الأخرى باتجاه عكسي، ويُضغط ربما عليها، وتُجفف فتصير ورقا؛ خُطّت عليه الحروف الهيروغليفية؛ بلغة الحضارة المصرية القديمة، فحفظت لنا (حكاية الفلاح الفصيح)، و(قصة الملاح الغريق)، ونصوصا في الحساب والهندسة.

وغير هذا؛ فـ(الكاغِد) وقد ورد بهذا الاسم قديما، وهو ورق تطورت طريقة صنعه في (سمرقند)؛ حاضرة إقليم (الصفد) بتركستان الحالية، فتنوعت خاماته، كان الحصول عليها مُتيسّرا ورخيصة الثمن، فهي الكتان والقنب والقطن وغيرها من المواد، منحت للكاغد بياضا ونُعومة، فنافس بميزاته هذه ما كان يروج قبله كقراطيس مصر البردية وجلود كان يستعملها القُدامى.

كيف ظهرت صناعة الكاغد في مدينة سمرقند وفي أي عصر؟

لهذا حكاية...

كان الصيني (تساي لون) قد اهتدى إلى طريقة لصنع الورق في سنة مائة وخمسة من التاريخ الميلادي، وذلك باستخلاص لُبّ خام؛ بِدقّ ألياف النباتات وهَرسِها، فكانت أخف وزنا من باقي مما كان يُستخدم في الكتابة في الصين، كالألواح الخشبية، وعظام الحيوانات، وقصب (البامبو)، وأرخص من الحرير الذي كان ثمنه غاليا، ولم يكن من الأقوام والجماعات البشرية التي كانت خارج الصين؛ على علم بكيفية صناعة الورق المبتكرة، والتي احتفظ

الصينيون بسرها، إلا المسلمين؛ بعد أن زحفت جيوش العرب المسلمين في منتصف القرن الثامن الميلادي؛ على مدينة سمرقند، فوقع في الأسر جنود صينيون؛ كانوا يذودون على المدينة، كانت لهم دُربة في صناعة الورق، أو معرفة بها؛ فعرف الفاتحون الجدد عنهم ذلك، فحرروهم وأقاموا لهم مصانع لتلك الصناعة، وجلب التجار ورق سمرقند إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية، وإلى مختلف المدن الإسلامية وفي أوج ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وفي عصر تدوين الآداب والعلوم، وترجمة الهندية واليونانية منها؛ في بيت الحكمة؛ في عهد الدولة العباسية.

قد لا نُغالي إذا قلنا بأن الكتاب الورقي المخطوط، والمطبوع بالحروف، واللغة العربيتين قد ظل حاضرا قرونا من الزمن وما يزال، ونَقل ثقافات أمم الحضارات الأخرى التي سادت في العصر القديم (الهنود، والفرس، واليونان، والرومان...)؛ ترجمة من الهندية، أو السريانية، أو اليونانية؛ إلى العصر الحديث لتستفيد منها الحضارة الغربية، وقد لا تُضاهيه في امتداده الزمني ذاك، وباستعماله للورق أي حضارة أخرى.

وقد خلف لنا الحامل الورقي أعاجيبا في الاشتقاقات وفي فذلكات لغوية، حيث يظن ممن يبحثون في تاريخ الكتاب والوِراقة والنسخ على بعض تلك الحوامل؛ أن كلمة الكتاب المقدس (Bible)، وكلمة بيبليوتيك (Bibiothéque)، وكلمة بيبليوغرافيا (Bibliographie)؛ أُشتُقّت من كلمة بيبلوس (Biblos)، وهو الاسم لميناء (جبيل) الذي يقع في لبنان، لأنه كان مركز تجارة الفنيقيين، فمنه كان يُصدر الورق إلى مختلف مناطق عالم البحر الأبيض المتوسط القديم؛ في عصر كانت تجارة المُساحلة قد وصلت إلى أوجِها في عهد الفنيقيين واليونان والرومان.

هذا عن فعل القراءة وما حُمّل به من كتابة، فماذا عن الكتاب؟

في تعريف المعجم الوسيط للكتاب؛ هو شيء غير ملموس وغير مادي، وله عدة معان، فهو يعني (المُؤلّف) أو (الرسالة)، كما يعني (الأجَل) أو

(القَدَر)، وإذا دخلت على الكلمة (أل) التعريفية، فهو يدل على كتاب بعينه، فهو القرآن أو الثورات أو الإنجيل، إذن فقد يكون كتابا من الرُّقم الطينية، أو الرِقّ، أو ورق البردي، أو ورق (الكاغد)، أو يكون رقميا بشاشة، وبالمداد الإلكتروني؛ يُقرأ بآلة القارئة الإلكترونية (La liseuse électronique).

فإذا كنتُ عازفا عن القراءة، فلا أقرأ الكتاب سواء بحامل قديم الصنع؛ يُحرجني، ولا أظهر به بمظهر الذي يُساير العصر، فلا أستسيغه، أو بحامل ذي شاشة رقمية يرمز إلى الجديد، ويُظهِر من يملكه بمظهر رجل العصر، وإذا كنتُ على وعي بفائدة القراءة، وشغوف ومتيم بها، فإني سأقرأ الكتاب سواء بذاك (القديم) أو بهذا (الجديد)، وإنما الذي صرف الناس عن القراءة، ولا حتى أن يفطَنوا إليها، ويحاولوا استكشاف فائدتها في حياتهم الشخصية، والعائلية، والعملية؛ هو هذا الفيض من القنوات الفضائية، التي تُعرض داخل البيوت، والبحث عنها أسهل، وهذه المواقع التي تنقلها إليك الشبكة العنكبوتية، والتي غدت أقرب إليك من أي قُربى أخرى، والتي اختزلت المسافة الجغرافية إلى ما بين سبابتك التشهدية، أو إبهامك وزِرّ تضغط عليه، فتتقاطر عليك العوالم.

أَمِنْ حل لهذه المعضلة؟

يمكن أن تُحل بلفْت الأنظار إلى فعل (القراءة) وفائدة هذا، وبالتعود عليها، لتغدو عادة حسنة، فإدمان عليها؛ في وسطين: في البيت بشراء كتاب ورقي مجلد تجليدا فنيا بهيا، ووضعه على رف ليُغري الأهل والأبناء والأحفاد والضيوف بالقراءة، أو بتحميله وقراءته على شاشة القارئة الإلكترونية، وهذه ليست اللوحة (La tablette)؛ بتلك تقرأ كتابك الرقمي بمداد إلكتروني وببياض الكتاب الورقي، أما اللوحة فهي ليست للقراءة التي يطول زمنها، ويستحيل التركيز بالنظر إليها، وفي المؤسسات التعليمية باستطاعة المعلم أو الأستاذ ترغيب التلميذ أو الطالب في القراءة، أو ترهيبه.

وفي وسائل الإعلام البصرية والسمعية فكلمتي (كتاب صَدَر) تُغرِيان بالقراءة، كما حفزتنا نحن في سبعينيات القرن العشرين جملة جاءت في صيغة الأمر: «إبحث عن هذا الكتاب وطالِعه»، كانت ترد على صفحات أحد الكتب المدرسية؛ التي كانت تُقرّر في قطاع التعليم آنذاك.

# رقيق المسلمين ورقيق الغربيين

شتان بين استعباد المسلمين لرقيقِهم، والغربيين لعبيدهم، فلا ينبغي أن نكتب في موضوع الرق؛ أي استرقاق ذوي السحنة السوداء من البشر؛ ممن ينتمون إلى بلاد السودان، وهي مُعظم الأراضي الواقعة جنوب الصحراء الكبرى؛ في العالم الإسلامي عامة، أو في بلاد المغرب خاصة؛ إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر، ومن نظرة الغربيين لاستعباد سكان إفريقيا السود، أو نستقي منطلقاتنا، وتصورنا، وفرضياتنا؛ من كتابات المؤرخين الغربيين، وهذا ما نبه إليه الأستاذ محمد مرزوق؛ في كتابه المسمى بـ «دراسات في تاريخ المغرب»؛ الصادر عن دار النشر (أفريقيا الشرق)؛ في سنة 1991م؛ في مقال عنوانه: «قضية الرق في تاريخ المغرب»؛ في الصفحة السابعة منه؛ قائلا بأن قضية الرق في المغرب ما زالت «لم تحظ بعد بالعناية الكافية من طرف الباحثين المغاربة، والعرب بصفة عامة؛ مما ترك المجال مفتوحا للدراسات الغربية التي تنظر إلى القضية بوجهة نظر أوروبية، أي في النهاية النظر إلى تاريخ الرق في المغرب بنفس نظرتها إلى تاريخ الرق في أوروبا؛ في حين أن الاختلاف واضح...»؛ ذلك أن استعباد سكان إفريقا السود من طرف الأوروبيين؛ من حيث الزمن، أو العصور التاريخية؛ جاء متأخرا، ومتطورا؛ عن استرقاق المسلمين لزنوج إفريقيا الغربية، وظروف وشروط ظهورهما كعلاقات اجتماعية، وتجارية، وتركيبة سكانية؛ تختلف بين ما كان سائدا في شمال غرب إفريقيا، وبين ما قد عرفته أوروبا في استحداث الدولة الحديثة، واكتشاف خطوط بحرية أخرى في المحيط الأطلنتي؛ للتجارة مع أقوام ما وراء البحار؛ فقد كان التنافس بين الإمبراطوريات البحرية على أشده (البرتغال، وإسبانيا، وهولندا، وفرنسا، وانجلترا)؛ في العصر الحديث، وكانت هناك حاجات، ومطالب ملحاحة؛ أفرزها تطور تلك الدول الحديثة.

من هنا يمكن أن نقول، وانطلاقا من تاريخ النظم والمؤسسات؛ أن استعباد الأوروبي لسكان غرب إفريقيا السود؛ دُشِّن من البداية مؤسسةً تجارية؛ تلعب دورا رئيسا في تطورها الاقتصادي؛ كما هي حاجة الدولة الحديثة دائما إلى مؤسسات صناعية وتجارية، وكانت مُنظمة على أحسن وجه، وأحد العوامل في ظهور اقتصاديات المحيط الأطلنتي المتطورة؛ في مرحلة من تاريخ الاقتصاد البشري؛ تمتد من سنة 1800م؛ إلى حدود سنة 1945م؛ لتبدأ بعد هذا التاريخ مرحلة اقتصاديات المحيط الهادئ، ترتب عن ذلك تهجير أعداد مليونية من الأفارقة الزنوج إلى أوروبا، وإلى دول قارة أمريكا، وما ترتبه عنه من استضعاف، وقهر، وتعذيب، واستغلال غير آدمي، وموت النصف منهم؛ قبل أن تطأ أقدامهم السوداء الحافية أرض العالم الجديد، وتسطع شمسها على أجسادهم العارية الكحلاء، لأن الجشع التجاري الثلاثي كان قد غلب.

أما اسرقاق أهل بلاد المغرب للسود الأفارقة، فهو أمر يخالف ذلك؛ أنه أولا لم ينفع هذه البلاد فتيلا؛ لا في (التجارة) به، ولا في تنمية اقتصاد تُنافس به دول أوربا الحديثة في القرون السابقة لزوال الرق؛ فنتساءل: هل سُخّر رقيق المغاربة في المزارع والضيعات؛ مثل مزارع القطن في ولايات أمريكا الجنوبية، وفي ضيعات قصب السكر، وانتاج أوراق التبغ في كوبا، وضيعات البن والكاكاو في البرازيل، وضيعات الموز والأناناس الموجهة غلته للسمسرة في الأسواق التجارية؟ نعم كوّن الأتراك من العبيد جيش الانكشارية، وكوّن المولى اسماعيل (1645م- 1727م) منهم فرقة حاملة للسلاح؛ إن شئنا فإننا نقول بأنها مؤسسة جُند، وتطلبت العملية أمرا صادرا منه؛ فيها تجميع للرقيق من مختلف مناطق المغرب، إماء وعبيدا، وأداء اليمين من طرفهم على صحيح البُخاري، ومن هنا كانت تسميتهم بـ(جيش البخارى)، وفيه كانت معارضة من طرف البعض من المجتمع المغربي؛ جزِعا من المنافسة.

فالذي سُخر فيه عبيد إفريقيا، وجُلبوا، وبيعوا من أجله؛ هو العمل خُدّاما وخادمات في قصور السلاطين، وبيوت الميسورين من المسلمين، وفي البناء...

إلخ، أما شراء أمة أو جارية من طرف المسلم العارف بدينه، للاستمتاع بجسدها الناعم الملمس، والفاحم لون بشرته، وقضاء الوطر منها، فهذا نتناوله فيما يأتي من قول...

هناك من الكُتاب المغاربة من تطرق إلى هذا الموضوع، وكان في أول الأمر- كما قال- يعتقد أن بعض المؤرخين الغربيين يتحاملون على المسلمين في كتاباتهم فيه، وبعد أن استخْلَص لنفسه ولنا، بأنه حقيقة؛ بعد أن اطلع على ما أدلى به مؤرخنا أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (1835م- 1897م)؛ في مؤلفه القيم: «الاستسقا لأخبار دول المغرب الأقصى»؛ من كلام يصور بشاعة الاسترقاق عند المسلمين.

فلو اطلعنا على مجال دراسي آخر؛ نوظف فيه علما من العلوم المساعدة للمؤرخين، وهو التقلبات المناخية؛ نجد كما وجد الذين بحثوا في هذا؛ أن هناك علاقة بين المناخ وتقلباته، وما أصبح يُصطلح عليه بـ(العبودية الحديثة)، ونستنتج من هذه أولا أن الرق حاضر زمانا ومكانا؛ لتغيّرت معالجتنا لظاهرة الرق التاريخية في العالم الإسلامي، فالقضية يُستحب أن تُدرس في سياقها التاريخي ومن كل جوانبها، لا أن يكون المنطلق مما ورد سابقا عند بعض المتطرقين لاستعباد البشر من ذوي الخلقة السوداء؛ فهو ضيق، فلا نعرف مجتمعا أو بلادا بدون انفلاتات، ولا كل من يحرم ويحلل لدماء انتماء تجري في عروقه، أو رغبة أو نزوة جمحت به؛ دفعته إلى أن يستلذ بأمة جُلبت؛ إما باستدراجها إلى ما تفتقر إليه كإنسانة، أو لِفاقة أو جوع.

فأثر التغيرات المناخية السلبية؛ نعرف حدته على المستوى المعيشي للمتضررين به، و(العبودية الحديثة) التي لا فرق بينها وبين العبودية القديمة؛ الذي أفرزه هو تشغيل الأطفال، وتشغيل الخُدام والخادمات في البيوت، وأجور المَدِينين، وعاملات الجنس في بيوت الدعارة، والزواج المبكر والقصري، والأشخاص في وضعية اجتماعية غير مُستقرة، فيتنازل الجائع من أجل قوت يومه؛ عن حريته للآخر، ولنفس الأسباب باع المغاربة بعضهم

البعض عبيدا وإماء إلى البرتغاليين؛ في عهد حكم الوطاسيين للمغرب؛ على إثر مجاعة 1520م.

وقد ظهر للأستاذ محمد مرزوق، في نفس المقال؛ في الصفحة السابعة منه، وفي نفس الكتاب الذي ذُكر من قبل؛ وعلى المستوى الاجتماعي؛ في أن العلاقة تختلف «بين العبد وسيده في المغرب عن العلاقة بين العبد وسيده في أوروبا، فمعاملة المغاربة للعبيد؛ كانت -بصفة عامة- معاملة إنسانية، فقد كان العبد جزءا من العائلة، حتى أن بعض العبيد يذهب إلى حد رفض الحصول على الحرية، كما كان بإمكانه أن يصل إلى المستوى العلمي لسيده، وربما يفوقه...».

ونستثني من الدارسين الغربيين؛ من شيعة أولئك الذين يتناولون موضوع الرق في العالم الإسلامي؛ بموضوعية صارمة -ورغم ذلك قد تكون لهم خلفيات منطلقها المنهج الأوروبي- بعض الرحالة الأوربيين، وإن كان المؤرخون المسلمون العرب، والذين ترعرعوا في تربة اللغة العربية، هم أدرى بشعاب العالم الإسلامي، وبتاريخ البادية والقرية والمدينة؛ ذوات علاقات اجتماعية تاريخية خاصة؛ من بين أولئك الأوروبين الذين قدموا إلى المغرب؛ في القرن التاسع عشر؛ الرحالة والطبيب الأيرلندي (أرثور ليرد؛ 1822م-1879م؛ Arthur Leared)؛ قال بأن العبد كان يعتبر من بين أفراد العائلة المغربية، ويحظى بحقوقه في التعليم إلى جانب المغربي الحر؛ هما على حد سواء في ذلك، وهذا لم يُعمل به إطلاقا في المجتمع الغربي؛ قبل تحرير العبيد، والأمرّ منه؛ أن الميز العنصري ظاهرة ما زالت ملاحظة للعيان في تلك المجتمعات، التي يدعي أصحابها الديموقراطية والمساواة.

والسؤال الذي يصحح نظرة البعض منا إلى الرق؛ ممن ينساق إلى كتابات الغربيين؛ هو: هل احتاج اختفاء اتخاذ ذوي السحنة السوداء عبيدا في المغرب؛ بعد القرن التاسع عشر؛ إلى سن قوانين تُحررهم من ربقة أسيادهم؛ وتلغي

الرق بصفة نهائية؛ وقد تكون بين مؤيد ومعارض، أو إلى ثورة من طرف المستعبَدين؟

ولم يتطلب الأمر مذهبا، أو أطروحات، أو فريقا من المفكرين والأدباء؛ إلى تبني القضاء على الرق؛ كما جرت به العادة في العالم الغربي؛ في القرن التاسع عشر.

فكانت للغربيين معاملة مطبوعة بشجعهم الرأسمالي تجاه رقيقهم، واستغلال الفاحش لقدراته الجسدية؛ وكان للمسلمين رِفق برقيقهم، وكانت أبواب عتق أرقابهم مفتوحة.

# اِمتلاك الطبيعة

من الطبيعة يحيا الإنسان؛ يستمر كائنُه؛ يُثبِّت بها وجوده؛ ويظل حاضرا في الزمان، لا طبيعة بدون مساحة، ولا استخراج خامها بدون مسافة؛ فعبرهما يُنقل المنتوج والمصنّع من مكان يكاد ينفرد بالوفرة، إلى آخر يفتقر لما توفر للأول، فالاتجار بما ندر، وبما توّفر كثيرا، فجنيٌ للأموال، فخلقٌ لرؤوس أموال تُستثمر؛ تُستمد منها قوة وقهر يُثمران، هذا جميعه ما يجعل البلاد تحافظ على مساحتها؛ التي لولاها لما كانت المسافة، ولما تنقلت الغلة والصنعة لربح ولرأسمال.

أن أعي بما يمكن أن تمنحه لي الطبيعة؛ شرط أول، ويليه أن أبحث عن ما يمكن أن أتفرد بما فيها؛ شرط ثاني، ثم خلق زبون تابع، لا يستغني عني؛ شرط ثالث، واستثمار ما جُني، وإصرار على الربح؛ شرط رابع.

في بلاد كالمغرب يتفرد -إذا ما قورن ببلدان أخرى- بنِعمة الماء، لا أكتفي بالقول بأن له قمم جبلية يصل علوها إلى مستوى ارتفاع يجعلها تستقبل أمطارا غزيرة، وبَرَدًا، وحبات الثلج، فتكسوها أردية من الثلوج تذوب، فتجري ماء في أودية، وأنهارا، وتتغذى منها الفرشة الباطنية؛ فتتفجر أرضه عيونا، وتُحْفر آبار لاسخراج مائها، وتُستغل بتقنيات عقلانية.

وإنما الماء هو ماء أنهار تنبع من داخل مساحته، وليس من الخارج، أي من مساحة بلد آخر؛ هذا يدفع بذهننا أن نفكر في احتمال إجراء مفاوضات طويلة ومُرهقة، ثم ضبط النفس لئلا يحدث تحارُب، لأن بلد العالية، والنبع؛ رأى في حجز الماء بسد، توفير الماء لسكان يتزايدون، ولري الأرض، وللزيادة في المحاصيل الزراعية، يعني تحقيق الأمن الغذائي تفاديا للعصيان، والتمرد، والانقلابات، والمجاعة التي تؤدي إليها جميع هذا الذي سبق، ووسيلة ضغط وسلاح، والبلد الذي يُسدّ دونه الماء مهدد بكل ذلك ومُستضْعف.

فللمغرب أنهار؛ (ملوية) في الشرق، و(اللوكوس) و(سبو) و(أم الربيع) و(تانسيفت) في الغرب، و(درعة) في الجنوب، منابعها جميعا من جبال الأطلس، وللعراق نهران هما (دجلة) و(الفرات)؛ منابعهما من جبال (طوروس) بشبه جزيرة (الأناضول)، وفي مصر نهر واحد هو (النيل)؛ له رافدان؛ النيل الأبيض والنيل الأزرق، الأول ينبع من بحيرة (فكتوريا)، التي تُطل على عدة دول إفريقية، والثاني ينبع من بحيرة (تانا) التي توجد في (إثيوبيا)، وفي السودان يمر عبرها نهر (النيل)، يتقاسم همّ مائِه مع مصر.

فدول عربية كالعراق ومصر يوجدان في سافلة أوديتهما؛ في المنخفض من الأرض، ودول إفريقية، وإثيوبيا، وتركيا في العالية؛ في المرتفعات من الأرض؛ مُؤهلة طبيعيا للتحكم في صبيب الماء، فلم يؤت الدول العربية سلاح الماء؛ وكان أن تم استشراف بهذا الوضع ما صيغ في القرن الماضي؛ فخرجت إلى التداول كلمتا (حرب المياه)، فقد وقى خالق الطبيعة المغرب منها، لأن أنهاره من منابع جباله، فيُستثنى من الدول العربية الأخرى.

ولا نقول أيضا أن المغرب يتفرد بساحلين، فكثير من الأقطار لها ساحلان أو أكثر، أو يحيط بها الخِضمّ (البحر) وأمواجُه الصاخبة في غير فصل واحد؛ من جميع جهات يابستها، ولا نكتفي بما يمنحه ساحل البحر الأبيض المتوسط، وساحل المحيط الأطلنتي، فالأول يطبع المغرب بمناخ متوسطي معتدل رائق؛ يجذب السياح، فنشاط سياحي يُدر مالا، ويُشغّل أفرادا، والثاني مِنَنُه كثيرة؛ يُرسل على المغرب غيوما مِدرارة، آتية من الشمال الغربي؛ مُتشبعة؛ حُبلى بذرات الندى والمطر، فكذلك يطل المغرب بالبحر الأبيض المتوسط؛ على عالم يموج بالتحولات السياسية والاقتصادية؛ على عالم مركز حضارات العصر القديم والوسيط، فلا بد من أن يستفيد من قُربِه من دولها، ويطل بالمحيط الأطلنتي على عالم اقتصاديات الغرب، وقد استفاد منها، وهو في طريق الند بالند أو الهيمنة؛ هنالك الساحل الأمريكي ينظر بأحلامه إلى بلدان من العالم القديم تتقدم بتنمية فتية، وفي وسط المحيط الأطلنتي جزر تنظر

من يحرث بَوَارَها؛ كجزيرة (مادير)، وجزر (الآصور)، وجزر (الكناري)، وجزر (الرأس الأخضر)، وفيما حققه التاريخ؛ أن عمليات جهاديي (سلا) البحرية؛ كانت تصل إلى بعض تلك الجزر في القرن السابع عشر الميلادي، لأن من غزاها في القرون السابقة من دول أوروبا الحديثة؛ نُوفس في ميادين كثيرة من طرف بلدان الشرق الأدنى كالصين، والتنينات الأربع؛ المعجزة الآسيوية؛ وهي كوريا الجنوبية، وسنغافورة، والتايوان، وهونغ كونغ، وكوريا الشمالية في الطريق؛ عندما تتحول صناعتها الحربية المتطورة إلى صناعة مدنية، فقد لا تقوم له قائمة ذلك الغازي، في عقود الألفية الميلادية الثالثة، كأوروبا؛ القارة العجوز، وفي الجنوب من (الأوقيانوس)، وما بعد خط الاستواء بلدان وجزر؛ تستطيع أن تنفلت من غُزاتها من شعوب الغرب الأوروبي الأوائل.

وصحراء المغرب خاصرتُه، لأرضها أفلاذ (كنوز)، لا غنى للمغرب عنها؛ وإلى ما وراء الصحراء روابط دينية وتاريخية، ومشاريع تجارية واقتصادية ناجحة، والحلول في موضع من يستعد لجمع الرّحل كفرنسا بالخصوص، فلا عقل يتصور أن تُضرب مساحة المغرب في خاصرتها، فإذا حدث، فلا عناصر طبيعته المتكاملة يحيا بها، ولا بلدان تفتقر إلى ما عنده بوفرة، فلا تنازل إذن عن شبر واحد، وإلا الفشل، لأن عناصر طبيعة المساحة التي يتكامل بها قد يفتقدها، فلا يتفقّد منها شيئا يُذكر في عقد من العقود، ومساحات موروث احتلالها عن امبراطورية إسبانيا التاريخية (سبتة ومليلية، والجزر الجعفرية)؛ عن زمن تذويب ذهب أمريكا الجنوبية وصناعة سنابك منه لخيول (مدريد)، أحدها نتمثله صهوة لـ(دون كيشوت دي لامانشا)؛ المحارب لطواحين الهواء، وصديقه (سانشو) يحاول أن يوقظه من أحلام اليقظة.

تهمز المغربَ طبيعةُ المساحة التي يحيا بها؛ إلى إنهاء ذلك الوجود الذي لم يعد مُستاغا في الجيوسياسية، ونزاع حول الصحراء خاصرة المغرب؛ موروث عن عهد احتراف سياسة الحرب الباردة، ولا معنى له في عصر امتلاك نماذج الصناعة، واحتراف الاقتصاد، والزحف على عالم المال والأسواق. وفي الصين

آية، نموذج بلد يترك السياسة، ولا يعود إليها إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وتعاطى للتصنيع والهيمنة على العالم تجاريا، وله مسلكان إلى القارة الأوروبية، وإلى القارة الإفريقية؛ طريق الحرير البري، وطريق الحرير البحري؛ واستحوذ على موانئ؛ كميناء (مومباسا) بكينيا في غرب إفريقيا، وميناء (بيريوس) في اليونان؛ بوابة الصين المشرّعة على أوروبا، وميناء (هامبورغ) بألمانيا، فقد عرفنا العملاق الصيني إذن، فمن يا ترى يُقزّم نفسه سواء وعى بذلك، أم لم يع؛ بسياسة إقليمية عفى عليها الزمن، فغدت سخيفة، فتَقوْقع، ويتغافل بأن عبد القادر الجزائري (1808م- 1883م)؛ استجار؛ في مقاومته لزحف فرنسا على أراضي الجزائر؛ في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ بالمغاربة؛ إخوانه في الملة؛ جعلت جيش المغرب المستنفر فقط؛ استجابة لاستجارته؛ في مواجهة فُرق فرنسا العسكرية المنظمة؛ في معركة إيسلي؛ في سنة 1844م، في أول نزال مع دولة أوروبية حديثة؛ بعد معركة الملوك الثلاثة، فينهزم فيها المغرب.

# المصير المشترك

إن الموقع الجغرافي عامل يتحكم بشكل كبير؛ في مصير الدول والشعوب، لأن التجاور بين الأمم والبلدان يؤدي إلى احتكاك قد يكون انسجاما أو انصهارا، أو يخلق الاصطدامات والحروب، لهذا ظلت منطقة المغرب الأقصى خلال مئات السنين بمثابة نوسانا يتأرجح، وينجذب بين أقوام وقوى متعددة، وما سيفرزه عادة المستقبل من أحداث هو تداعيات حتمية للماضي والحاضر، فلا ندري ما إذا كان المخططون للمستقبل السياسي لبلادنا؛ لهم تصور أو مخطط جيوسياسي للمغرب، وبالتاريخ السياسي لغرب البحر الأبيض المتوسط؟ خوفنا أننا لا ننظر أبعد من أنوفنا، وأن المصلحة الشخصية للبعض تجعل ما يخدم المصلحة العامة شيئا ثانويا، لا يُلتفت إليها إلا لماما، وإلى حدود هذا التاريخ ما يزال أكثر ممن يُرشّحون أنفسهم ممثلين للشعب في المؤسسة البرلمانية؛ لهم نية واحدة فقط لا تغيب عن بال أحد، وهي تحقيق مآرب شخصية، هذا جميعه يؤدي إلى انزلاقات عن الهدف العام الأساسي، وإلى تكسير المبتغى الأسمى للدولة، إنها تجعل منافذ الحصن وأبوابه وثغراته مُشرّعة أمام كل ريح عاتية.

لقد مارست الجغرافية السياسية دورها بإلحاح على المغرب في العصر الحديث؛ منذ سنة 1492م، عندما سلم آخر أمراء بني الأحمر أبو عبد الله محمد الثاني عشر (1460م- 1527م) مدينة غرناطة الأندلسية إلى ملك (الأراغون[44]) آنذاك (فرديناند الثاني 1452م- 1516م؛ Ferdinande II)، و(إيزابيلا؛ 1451م- 1504م؛ Isabelle)؛ ملكة قشتالة؛ بعد أن توحدت إسبانيا بزواجهما الكاثوليكي، ثم تقهقر بأهله، وباقي المسلمين الذين عمروا بلاد الأندلس زهاء ثمانية قرون ونيف (من 95هـ إلى 897هـ)؛ في أعقابه، فاستقروا هاربين من بطش المسيحيين ببعض مدن المغرب الأقصى. هذه

[44] هي مملكة قديمة كانت توجد في شرق شبه الجزيرة الأيبيرية.

السنة (1492م) كانت جالبة حظ وفاتحة خير على الأوروبيين، وسوءا على المسلمين، ففي هذه السنة بالضبط وصل البحار الأيبيري (كريستوف كولومبوس؛ 1451م- 1506م؛ Christophe Colomb)؛ إلى جزر (الأنتيل[45])، التي هي أراض أجزاء من القارة الجديدة، التي ستُعرف فيما بعد بالأمريكية، وكانت إيذانا تلك السنة أيضا بتقهقر المسلمين، وزحف الغرب المسيحي على العالم طيلة القرنين الخامس عشر والسادس عشر. لم يحقق انتصار المغاربة المسلمين في عهد السعديين في معركة الملوك الثلاثة (معركة وادي المخازن) -قامت في 4 غشت 1578م- نصرا بحكم التاريخ، لأن انتصارك في عقر دارك لا يعني شيئا، لقد كانت (معركة تقهقر)، وليست (معركة زحف)، إلا أنها حالت دون توغل البرتغال في الأرض المغربية، وتُوِّج ذلك الزحف بالتوسع الإمبريالي البريطاني والفرنسي والإيطالي والإسباني في بلدان العالم العربي، وباقي دول العالم الإسلامي؛ في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وفي النصف الأول من القرن العشرين، وإذا كان المغرب آخر البلدان العربية والإسلامية من ناحية الزمن؛ التي خضعت للاحتلال الفرنسي في ربيع عام 1912م، فإن السبب يعود إلى التنافس الإمبريالي بين فرنسا وانجلترا وألمانيا حول مصر والمغرب؛ بقي على أشده حتى سنة 1904م، وسنة 1906م، حيث تمت تصفيته بواسطة المعاهدات والاتفاقيات الدولية، وبعد أن استقل المغرب في سنة 1956م؛ كان عليه أن يُبلوِر علاقات سياسية واقتصادية حازمة جدية، وواضحة مع دول غرب البحر الأبيض المتوسط، والتي يمكن أن نحصرها في: إسبانيا والبرتغال وانجلترا (صخرة جبل طارق)، والجزائر، وما يجعل المغرب في احتكاك دائم مع هذه الدول ملفات تتطلب التحليل والتدقيق:

[45] هو أرخبيل يقع بين البحر الكارايبي والمحيط الأطلسي وخليج الميكسيك.

1- مدينتا سبتة ومليلية، والجزر الجعفرية كجزيرة (ليلى)، وجزر الخالدات؛ رُقع جغرافية من أرض المغرب تحتلها إسبانيا، أو هي امتداد لجغرافيته السياسية، والطبيعية.

2- الوجود الإنجليزي بصخرة جبل طارق لا يُستأمن، لأنه بُعد جيوسياسي موروث عن الامبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، والتي كانت تحتل المضايق البحرية (مضيق جبل طارق؛ مضيق ماجيلان...)، وتفتح قنوات قارية، كقناة السويس.

3- المشكل السياسي لأقاليم الجنوب المغربية.

ويمكن القول أن المغرب لم يستطع أن يلعب الدور الذي كان ينبغي أن يقوم به، والذي يفرضه عليه موقعه الجغرافي السياسي؛ يعود السبب إلى اندماغ تفكير المغرب خلال نصف قرن في شؤونه الداخلية؛ التي كانت تحت تأثير مخاض وعدم استقرار خلقته الصراعات بين الجماعات الراديكالية المتشبعة بالمبادئ الماركسية واللينينية من جهة، وبين النظام المركزي؛ من جهة أخرى، وبين هذه الأخيرة والاتجاه الأصولي الإسلامي من جهة ثانية، والمناوشات المسلحة التي كان يخوضها مع الجماعات الصحراوية المنشقة، وسبب آخر يتجلى في كون المجتمع المغربي لم يكن مؤطرا بما يكفي نظرا للأمية المتفشية، ومعتم عليه الإعلام، فكانت النخبة المتعلمة والمثقفة تُسيّر شؤون البلاد بدون قاعدة شعبية؛ لا يكترث أفرادها لما يجري حولهم من أحداث سياسية جسام، وليس لهم وعي بما يدور في المنظومة الجيوسياسية لغرب البحر الأبيض المتوسط، هذا عدا ظاهرة نهب المال العام التي اِستشرت كفيروس قاتل ينخر في جسد المغرب الغض؛ الحصيلة مجتمع دولة غير متناغم وغير منسجم، فهو أشبه بصخر تتخلله مواطن هشة قابلة للتفتت في أي وقت، وغير مؤهل لآحتواء الإكراهات الخارجية.

ما ينبغي أن يكون هو الشعور بالمصير المشترك؛ إلى متى سنظل في نظر الدول المتقدمة اقتصاديا وصناعيا قوما متخلفا اجتماعيا واقتصاديا

وصناعيا؛ ليست لنا دراية في اتخاذ القرارات الحازمة والحاسمة؛ بإشراك فعاليات المجتمع المدني؛ من نخب وهيئات وأحزاب وجمعيات وغرف مهنية؛ في تسيير شؤون البلاد؛ بارقة أمل في أن مستقبلنا سيكون أحسن حالا من ماضينا وحاضرنا.

سيظل المغرب في عرف إسبانيا وفرنسا وانجلترا من البلدان حديثة العهد بالاستقلال، وبلد يدين سكانه بدين سماوي هو الإسلام؛ دين يسري حمية في جميع أعضائه، ومبدأ جامع تتراحم وتتآخى به جميع العناصر المكونة للمجتمع المغربي (العرب والأمازيغ...). كان الظهير البربري، الذي أصدرته فرنسا في 16 ماي 1930م؛ أول محاولة في تاريخ المغرب لبث التفرقة، لكنها ذهبت أدراج الرياح، وإن كانت دراسات الأنتروبولوجيين وعلماء الاجتماع في المدرسة الأكاديمية الأنجلوساكسونية تُذكي العنصر الأمازيغي؛ بأن هذا الأخير له كذا وكذا من اللغة وحرف ورسم لهذه اللغة، وتراث وحضارة، واستنتاجات هذه المدرسة في دراساتها لأقليات العالم الدينية، والعرقية، والجماعات البشرية ذات الأصل الواحد؛ مادة خام للمخططين السياسيين في الغرب؛ لأهداف بعيدة المدى قد تخفى على البعض منا، إن العرق والخلاف في المبدأ عاملان يفتتان وحدة الدولة ذات المساحة الجغرافية الموروثة، خصوصا بعد أن لاح في الأفق تقلص دورها في إطار ظاهرة العولمة، وغزو الشركات المتعددة الجنسيات.

إن دول المجموعة الأوروبية في حوارها مع المغرب؛ حول شراكة مغربية أوروبية؛ يشوبها الحذر والتحفظ، ومساومات من موقع قوة؛ خصوصا من جانب إسبانيا التي ما يزال لبعض لوبياتها أطماع تقليدية تعود بالأساس إلى ما حققته إسبانيا من تطور في المجال الاقتصادي، فالمغرب مجتمع تحتل فيه الشريحة العمرية للشباب نسبة كبيرة؛ تجعل منه بلدا يدخل مرتبة من مرحلة الاستهلاك الواسع، فهو إذن سوق مربحة تُخول إسبانيا تراكما في الأموال

والثروة؛ الذي هو شرط أساسي للهيمنة الاقتصادية والسياسية؛ تمني بها إسبانيا نفسها.

# تاريخ أمريكا القريب

أُستُأصُلت شعرة من لِبْدة أسد الغابة (اللِّبدة هي الشعر المتراكم بين كتفي الأسد)، لو اقتصر الفعل على جزء من جسده؛ لما أرادت أمريكا أن تعرف موقف الدول، والجماعات السياسية المتعددة التوجهات، والمرجعيات، سواء كانت دينية، أو ذات عقيدة فكرية مُنظّر لها؛ من الاعتداءات التي تعرضت لها أمريكا؛ من طرف فاعل جريء؛ قام بفعل لم يأت أحد بمثله من قبل، فارتجت أرجاء الغابة من فرط زئير غَضْبة مُستشاطة، وفرّت من بين مخالب الأسد الحيوانات المُستصغَرة؛ درءاً لشر انتقام.

فإلى أي حد يمكن أن تُخلع هذه الصورة على أمريكا؟

أذهب هجوم اليوم الحادي عشر من شهر شتنبر 2001م؛ بصيرة رئيس الحكومة الفيديرالية (جورج ولكربوش؛ 6 يونيو 1946م- GEORGE Walker Bush)، خلال فترة رئاسته من 20 يناير 2001م إلى 20 يناير 2009م، ولتوه وبفعل عمى الغضب؛ صرح مباشرة عقب هجوم الطائرات الثلاث على المؤسسات الحيوية لأمريكا؛ بأن ما حدث حرب صليبية، ولولا استدراكه لفلتة اللسان هذه بزيارته للمركز الإسلامي بواشنطن، ليعلن ربما لأول مرة في تاريخ رئاسة البيت الأبيض؛ أن الدين الإسلامي هو دين سماحة، وتسامح، وسلام؛ لسادت بقاع العالم حرب صليبية بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، فاختلق الأكاذيب وأثار الشبهات؛ يُبرر بها هجمة شرسة؛ حشد لها كل ما لدى أمريكا من أسلحة الاجتياح والقتل والدمار والتشريد؛ ليزحف على الأراضي الأفغانية المقفرة؛ التي يتحرك عليها المتهم الرئيس أسامة بن لادن (1957م- 2007م)؛ زعيم تنظيم القاعدة، فأمريكا وأسد الغابة سيان، كلاهما يسودان بمقتضى قانون الغاب، الذي يُجيز للقوي أكل الضعيف، كأنه عُرف مسلم به، أو ركن من عقيدة راسخة، حيث تمثل أمريكا الحلقة الأولى للسلسلة الغذائية للبيئة الغابوية، وحيث أن دولا هي

دون أمريكا تطورا وسطوة مثل الاتحاد الأوروبي؛ تحتل ما يلي من حلقات السلسلة، فهي تقتات مما يفضل من نتف لحم عظام حيوان (الثَّيْتَل الإفريقي)؛ في استكانة أمام جبروت واستكبار أسد الغابة.

هذا أهون مما سيطال باقي مناطق العالم، والقليل مما سيتمخض عن ما سيصيغه البيت الأبيض من تشريعات، وما سيَسُنُّه من قوانين، وما ستُخطط له وزارة الدفاع الأمريكية، للقضاء على خلايا وأوكار الإرهاب، حسبما يصطلح عليه في القاموس السياسي الأمريكي، أي جماعات ومنظمات وتنظيمات مارقة عن النظام الدولي المستكين.

ما يُستشفّ أن قصورا مُتعمّدا في تناول المتغيرات والاهتزازات الاجتماعية والسياسية؛ التي أصبحت تمس مجتمع القرية العالمية. كان الأجدر أن يوضع مخطط حضاري شامل؛ تُراجِع على أساسه الولايات المتحدة الأمريكية علاقاتها مع الدول والشعوب والأقليات الدينية والإثنية، فلا نعرف عبر التاريخ للظلم والعداوة والاستضعاف مُستتبّاً! فكيف لأمريكا أن تقود العالم وتُحكِم سيطرتها عليه، وهي تنهج سياسة خارجية مبنية على الاعتداء والتدخل السافر في الشؤون المحلية للدول، وتُؤجّج العداوات، وتُسلّط هذا على ذاك؟ ماذا يعني اِحتكار أنماط الصناعات التكنولوجية المتطورة، وتكديس ما تُثْمره من ثروات داخل حدود أمريكا، في حين تعيش شعوب إفريقيا وآسيا على الكفاف والفقر المدقع؟

قد يتأتى وعيُنا بالتمفصل التاريخي للعالم، ووضع تصور للوضع السياسي العالمي بعد اليوم الحادي عشر من شهر شتنبر؛ بارتياد مسلكين لما حدث قبل الحدث الدامي الجسيم.

## أحداث العالم السياسية بعد الحرب العالمية الثانية:

في فجر اليوم السابع من شهر دجنبر من سنة 1941م؛ أقلعت طائرات حربية من حاملات الطائرات اليابانية؛ كانت تُرابط في مياه المحيط الهادئ،

وهاجمت القاعدة البحرية الأمريكية الموجودة في خليج (بيرل هاربور؛ Pearl Harbor) بإحدى جزر أرخبيل (هاواي)، فدمرت أغلب وحدات السلاح الجوي والبحري الأمريكي177 طائرة و88 سفينة حربية، وبلغ عدد الضحايا 217 قتيلا و876 مفقودا، في اليوم التالي أُستُفتِي الشعب الأمريكي حول ما إذا كان يُوافِق على دخول أمريكا إلى الحرب، التي تدور رحاها في أوروبا وفي شمال إفريقيا وفي المحيط الهادئ، فصفق الأمريكيون للرئيس الثاني والثلاثين فرانكلين روزفلت (1882م- 1945م؛ FRANKLIN Delano Roosevelt) بحرارة، واعتلت وجوههم ابتسامة الحماس، وهم يدركون في قرارة أنفسهم أنهم بعيدون عن جبهات القتال، يفصلهم عنها محيطان بأمواجهما الصاخبة؛ المحيط الأطلنتي والمحيط الهادئ؛ لم يسبق وأن شربوا نخب انتصار في حرب خارجية؛ باستثناء الحرب العالمية الأولى، فلم تخب ظنونهم، وكانت فرحتُهُم أكبر مما كانوا ينتظرون، لم تُعلن أمريكا انتصارها في الحرب العالمية الثانية فقط؛ بل أنهتها لصالحها باكتساب السلاح النووي القاهر، الذي أرعبت به العالم، فقد شاهدت البشرية بأم عينها كيف تلقت اليابان ضربتين قاصمتين، لم تستطع بعدها لملمة شتاتها؛ أُلقِيت القنبلة النووية الأولى على المدينة اليابانية (هيروشيما)؛ في 6 غشت 1945م، والثانية على مدينة (ناكازاكي) في 9 غشت 1945م، ووصل عدد ضحايا القنبلتين إلى 35 ألف قتيل.

ففي الوقت الذي كان فيه ثلث العالم يرزح تحت أنقاض الحرب، ويُطمِر قتلاه في مقابر جماعية، ويضمد جراحه؛ كانت نساء أمريكا الشقراوات يلوحن بسعادة غامرة للجيوش الأمريكية العائدة من الحروب بمناديلهن، والاقتصاد الأمريكي معافى لا يلحقه أي ضرر، حيث جلبت عملة الدولار الأمريكي الأرصدة المالية العالمية، ليرفل الشعب الأمريكي بعد ذلك في نعيم غنائمه من الحرب، فأُنيطت بأمريكا أعظم المسؤوليات، وهي العمل بشتى الوسائل على استقرار سوق المال والاقتصاد؛ أصبحت فيه عملة التداول

الدولية هي الدولار الأمريكي، وقيادة معسكر الرأسمالية العالمي في حرب باردة ضد معسكر الشيوعيين الاشتراكيين؛ الذي كان يُهدّد بأمميته الاشتراكية تأميم وسائل الإنتاج الخاصة، والرأسمال الحر العالمي، والذي عسكر قاب قوسين أو أدنى من حائط (برلين) الذي فصل الأمة الألمانية إلى أمتين؛ واحدة تحمكها الاشتراكية والأخرى تحكمها الرأسمالية؛ كان دليل استهانة الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها في أوروبا الغربية بمشاعر الأمم، فتُذلّها وتستضعفها، وأنكى من هذا أن أمريكا قامت بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها؛ بالنصب على ألمانيا بسرقة علمائها في مجال الصواريخ وعلم الذرة.

ففي أواخر الحرب العالمية الثانية وقع المهندس الألماني (وولتر دورينبركَ 1895م- 1980م؛ WALTER Dornberger)، ومستشاره (فيرنهير فون براون؛ 1912م- 1977م؛ )؛ أسيرين في أيد الأمريكيين، فتم نقلهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وتجنسا فيما بعد بالجنسية الأمريكية في سنة 1956م، أشرف (براون) على برامج غزو الفضاء في أمريكا، فهو الذي صمم الصاروخ الأمريكي (ساترون؛ Fusée Saturn)؛ الذي حمل أغلب مركبات (أبولو) إلى الفضاء؛ تباهت بها أمريكا، وأذهلت العالم، كما قام بتصميم أول صاروخ حامل لرؤوس نووية اسمه (داستون)؛ أُستخدِم خلال الحرب الكورية في سنة 1953م.

وسقطت قرية (بينموند؛ Peenemünde) الألمانية؛ الواقعة في جزيرة (يوزدوم؛ Usedom)؛ عند مصب نهر (الأودر؛ L'Oder)، كان قد خصصها هتلر للمهندسين اللذين سلف ذكرهما؛ لإجراء أبحاث في الصواريخ؛ في يد الجيش الروسي، حيث أكتُشِفت أسرار صناعة الصواريخ، فبدأ سباقٌ مُتهيج؛ محموم نحو التسلح بوسائل الدمار النووية بين روسيا وأمريكا، تمخضت عنه أكبر حركة جاسوسية في تاريخ الإنسانية، ولم تخمد نعرة ذلك السباق؛ إلا بعد أن تفكك الاتحاد السوفياتي؛ بعد أن ضاق الروس أنفسهم

ذرعا باشتراكيتهم، فوقع انفراج سياسي في العديد من مناطق التوتر بين الدولتين العُظمتين.

والحدث التالي الذي لا يقل أهمية عن ما سبق التطرق إليه؛ هو انتهاء حرب الخليج الأولى، بعد أن عجزت القوات الإيرانية عن مواصلة حربها ضد العراق، مما اضطر الإمام الخميني على موافقته على قرار منظمة الأمم المتحدة رقم 598 القاضي بوقف إطلاق النار؛ بين إيران والعراق، هذا الأخير كانت ما تزال دماء الحرب تسري ساخنة في عروقه، فاجتاح الكويت بئر النفط العالمية؛ في الوقت الذي انجلت فيه الحرب الباردة، والتي كان من الممكن أن يلوح بورقتها، فتَشَكّل تحالف عسكري دولي تزعمته أمريكا؛ لإرغام العراق على الانسحاب من الكويت، فزادت حرب الخليج الثانية من تكريس أحادية قطب العالم بعد اندحار نِدّ أمريكا الشيوعي.

## توزيع التدخلات الأمريكية على خريطة العالم السياسي:

كتب أحمد الخميسى مقالا في زاوية (ناصية)؛ بصحيفة أخبار الآداب المصرية عنوانه: أمريكا: البحث عن الذات؛ قال فيه: «... وأمريكا هي الدولة الوحيدة التي بدأت وجودها بالعدوان منذ بيان استقلال المستعمرات الإنجليزية عام 1776م، واستمرت في ذلك عبر تاريخها كله؛ انطلاقا من حقها الذي افترضته لنفسها في التدخل؛ في شؤون الدول الأخرى عملا بأطروحة (مونرو)[46] الذي أعلنه الرئيس الأمريكي الخامس (جيمس مونرو؛ 1758م-1831م؛ JAMES Monroe)؛ عام 1823م، ثم طوره كل الرؤساء اللاحقين في نظريات تصب في نفس اتجاه (حق التدخل)، وعبر تاريخ وجودها القصير نسبيا شنت أمريكا الحرب على نحو أربعين دولة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية (...) بدعوى أن التطور يقوم على ظلم البعض للبعض».

[46] راجع مقالنا: سفينة (الصليبي Crusader) الشبح؛ الصفحة (23) .

يضيف صاحب المقال: «كما عبر عن ذلك في سنة 1975م الرئيس الثامن والثلاثين (جيرالد فورد؛ 1913م- 2006م؛ GERALD Rudolph Ford)؛ عند سؤاله عن احتمالات تدخل عسكري من أجل نفط الخليج فقال: قد يكون ذلك ظُلما، ولكن حروبا تُشنّ منذ أقدم العصور للاستلاء على الموارد الطبيعية، أو بدعوى مكافحة الشيوعية».

ولم يكن مبدأ (مونرو) محض تفكير نظري غير قابل للتطبيق؛ في ذلك العهد؛ أي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، نسوق مثال دولة رسمت أمريكا حدودها على خريطة العالم السياسية هي (ليبيريا)، حيث قامت بتوطين أفواج من الزنوج الأمريكيين؛ في الرقعة الجغرافية الممتدة ما بين سيراليون وساحل العاج في سنة 1822م، وتم الإعلان عن استقلالها في سنة 1847م؛ اعترفت بكيانها السياسي بريطانيا، ثم تلتها بقية الدول الكبرى ؛ تُسيطر على اقتصادها شركات أمريكية.

دولة أخرى هي (بناما)؛ عبارة عن شريط إقليمي يقع في جمهورية باناما؛ يفصلها من ساحل بحر الكارايبي إلى شاطئ المحيط الهادئ؛ إلى حدود سنة 1968م كانت ما تزال تحت إشراف الولايات المتحدة الأمريكية؛ بحكم معاهدة عام 1903م؛ تُسيّر من طرف مجلس إدارة منطقة القناة، وشركة قناة (باناما)، ويُعين رئيس أمريكا مجلس إدارتها؛ الهدف هو خلق ممر بحري آمن للسفن والبوارج الأمريكية؛ يصل ما بين المحيط الأطلنتي، والمحيط الهادئ.

وفي كوبا اِستمات الشيوعيون من أجل إقامة نظام اشتراكي موالي للاتحاد السوفياتي، فقد نجحت الثورة فيها بقيادة (فيديل كاسترو؛ 1926م- 2016م؛ FIDEL Castro)، وبمساعدة (تشي كَيفارا؛ 1928م-1967م؛ ERNESTO Che Gue Vara)؛ نموذج التغيير والثورة.

ما حدث أن كوبا شكلت منطقة تماس مشحون بين روسيا الاشتراكية وأمريكا الرأسمالية، فلم يكن للرئيس (جون فيتزجيرالد كينيدي؛ 1917م-

1963م؛ JOHN Fitzgerald Kennedy) بُدّا من أن يترك كوبا وشأنها؛ بعد توتر عسكري كاد أن يؤدي إلى حرب نووية، فنجا العالم من ويلاتها.

أما أبشع تدخل عسكري أمريكي في القرن العشرين كان في الفيتنام، تعود أسبابه إلى سنة 1940م عندما ظهرت حركة تحرير تزعمها (هوشي منه؛ 1890م- 1969م؛ Hôchi Minh)، حيث قام بتأليف الحزب الشيوعي للهند الصينية في (هونج كونج) سنة 1930م، وهو حلف ضم الشيوعيين وباقي المقاومين الوطنيين؛ لمناهضة الاحتلال الياباني؛ صاحبه اِنسحاب الفرنسيين، ثم ما لبث أن عاد الفرنسيون في عام 1945م، فتجدد الصراع بين هؤلاء وحركة (الفييت منه؛ Viêt Minh[47])؛ اِنهزمت على إثره فرنسا في (ديان بين فو؛ Bataille de Diên Biên Phu)؛ جرت ما بين 13 مارس و7 ماي من سنة 1954م، فانسحبت في أبريل 1956م بعد اتفاقية وقف إطلاق النار التي وُقِّعت بِـ(جنيف) السويسرية في 21 يوليوز 1954م، وتضمنت تقسيم الفيتنام إلى شمالية وأخرى جنوبية، يفصلهما نهر (بين هاي؛ Bên Hâi[48])؛ في الشمال قامت الجمهورية الاشتراكية برئاسة (هوشي منه)؛ اِعترف بها الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، أما في الجنوب فكانت الولايات المتحدة تؤازر الحكومة الديكتاتورية التي تزعمها (نجو دينه دييم؛ 1901م- 1963م؛ Ngô Dinh Diêm)؛ أطاح بها انقلاب عسكري في الثاني من نونبر 1963م، وقُتل (نجو دينه)، فتوالت الحكومات العسكرية؛ كانت أمريكا تؤيد حكومة ضد أخرى؛ فشلت في القضاء على الحركة الشيوعية التي تقودها جبهة تحرير الفيتنام، وبعد الفشل الذريع لهذه الحكومات أقحمت أمريكا نفسها ضد هذه الحركة، فتدفقت القوات الأمريكية البرية والبحرية والجوية

[47] هو اتحاد استقلال الفيتنام عن فرنسا؛ شكله (هوشي منه) في عام 1941م.

[48] ينبع نهر (بين هاي) من جبال أناميت على الحدود مع اللاووس، ويصب في بحر الصين الجنوبي؛ طوله مائة كلم.

منذ سنة 1965م، ارتفعت من 23 ألف مقاتل في منتصف السنة إلى نصف مليون مقاتل في نهايتها، وأُقيمت عدة قواعد عسكرية أمريكية.

في سنة 1966م قرر الرئيس الأمريكي السادس والثلاثين (ليندون. ب. جونسون؛ 1908م- 1973م؛ LYNDON B. Johson)؛ شن غارات جوية على فيتنام الشمالية؛ مُتّهما إياها بضرب المعسكرات الأمريكية في الفيتنام الجنوبية، والهجوم على السفارة الأمريكية بـ(سايجون؛ Saigon)، والإمدادات التي تقدمها إلى حركة (فييت كونج؛ Viêt Công[49])؛ ترتب عنها مضاعفة عدد القوات الأمريكية، وخسائر باهضة في الأرواح والطائرات، فأظهرت حرب الفيتنام الوجه الشرير المتخفي وراء الديموقراطية؛ التي تتشدق بها أمريكا، ومدى الفشل الذريع في تدخلاتها العسكرية، الذي لا يزيد إلا تأججا في العداء لأمريكا.

## اِستنتاج:

فلا بد لتقاطع أن يحدث بين هذين المسلكين؛ فاصل تماس أفرز ما يكفي من الحساسية العدائية تجاه أمريكا، لتوجيه ضربة الحادي عشر من شهر شتنبر؛ المربكة والموجعة إلى دولة عاتية، لم تُجد أجندتها من أنواع ووسائل الأمن الداخلي والخارجي؛ المتمثل بالأساس في وكالة المخابرات المركزية (Central Intelligence Agency[50])، والمكتب الفيدرالي الأمريكي (Federal Bureau of Investigation[51])؛ نفعا بالرغم من صرحهما التجسسي، فقد كتب سعد البزاز[52] مقالا عنوانه: مخابرات تبحث عن أعداء؛ قال فيه: «على الرغم من سعة إمكانات المخابرات الأمريكية والشفافية التي تتحكم بعملها وكثرة المراجعات التي عرفتها؛ إلا أنها أنهت

---

[49] هي الجبهة الوطنية لتحرير جنوب الفيتنام؛ نَشَطت ما بين 1954م و1976م.

[50] أحدِثت وكالة المخابرات المركزية في 18 شتنبر 1947م.

[51] أحدِث المكتب الفيديرالي الأمريكي في سنة 1908م.

[52] هو سعد عبد السلام البزاز؛ كاتب عراقي ورجل أعمال؛ أسس جريدة (الزمان) في لندن؛ ولد سنة 1956م.

الألفية الثانية بلائحة طويلة من مظاهر الفشل الاستراتيجي، وهو السبب الذي يحرك الدعوات مجددا داخل الولايات المتحدة للبحث عن مستقبلها ومراجعة أسلوب عملها»، ومن أبرز معالم الفشل:

– عجزها عن معرفة نيات صدام حسين وخططه العملية؛ للقيام بعملية عسكرية شاملة يغزو بها الكويت.

– كانت المخابرات الأمريكية خارج عملية التفكيك الكبيرة التي شملت دول الاتحاد السوفياتي السابق؛ إلى درجة أنها كانت تنظر بحذر وتخوف إلى (بوريس يلتسين؛ 1931م– 2007م؛ BORIS Yeltsin)؛ من دون أن تتنبه إلى أن الاتحاد السوفياتي سيتفكك على يد هذا الرجل.

ليس من قبيل المبالغة أن يجعل هذا الفشل المجتمع المدني الأمريكي ينقلب على عقبيه، ويُعطي بظهره للحكومات الفيديرالية، ويفقد الثقة فيما يجري في أروقة البيت الأبيض، ووزارة الدفاع الأمريكية، وكما درجت السياسة الرأسمالية الغربية منذ تكالب الدول الإمبريالية التقليدية على بلدان إفريقيا وآسيا؛ في خلق عدو تاريخي وأبدي هو الإسلام والمسلمون، لتأجيج الإحساس بوحدة المصير داخليا، وكذلك فعلت الصهيونية العالمية لإعادة جمع شمل اليهود، وتأسيس وطن قومي لهم في أرض فلسطين.

فما هو ثابت أن المؤسسات الاقتصادية ذات التركز العمودي والأفقي والشركات المتعددة الجنسيات؛ تتلاعب بعقول الأمريكيين، فما هو مُستهدف في عملية الحادي عشر من شهر شتنبر؛ ليس الشعب الأمريكي، وإنما الحكومات الفيديرالية؛ الأداة الطيعة في يد الرأسمالية الحرة، لذلك فأمريكا تدس بأنفها في الشؤون الداخلية للشعوب، وتتشمم كل شاردة وواردة.

## التغيرات الدولية التي كانت مرتقبة بعد هجوم اليوم الحادي عشر:

هل تحقق ما كان مُرتقبا؟

كتب الإعلامي الأردني (بسام البدارين) من عَمَّان عاصمة الأردن؛ في صفحة (تحقيقات سياسية) بجريدة القدس؛ عن انعقاد أول منتدى بالعاصمة الأردنية؛ شارك فيه أكثر من خمسة عشر شخصا بارزا في الحقل الإعلامي؛ تداولوا مع رئيس الوزراء السابق طاهر المصري (ولد سنة 1942م)؛ الأوضاع العامة في منطقة الشرق الأوسط والعالم، فبسطوا توقعات حول الحالة السياسية للعالم؛ بعد حوادث التفجير الأخيرة في أمريكا؛ هذا ملخصها:

- لا يُستبعد أن يبعث الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات (1929م-2004م)؛ بجيش التحرير الفلسطيني إلى أفغانستان؛ لمؤازرة الحملة الأمريكية ضد إرهاب افغانستان، وقد لا يتأخر في تفقد قواته هناك.

- ستدفع التيارات الإسلامية الفلسطينية الثمن، كجماعتي الجهاد الإسلامي وحماس.

- ستكون هناك ضغوطات أمريكية على ياسر عرفات لآعتقال كوادر حماس والجهاد الإسلامي.

- خلقُ حشدِ القوات الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط أعداء لأمريكا في الصين؛ خصوصا بعد تفعيل البند الذي يُجيز للحلف الأطلسي ضرب أهداف خارج القارة الأوروبية.

- عملية الولايات المتحدة الأمريكية في أفغانستان؛ أوسع نطاق من (ابن لادن) وحركة طالبان؛ لها علاقة بتوازنات القوى في العالم وخصوصا القارة الآسيوية.

- يشكل القضاء على نظام طالبان بداية الأزمة الأمريكية وليس نهايتها.

- مطالبة أمريكا من الأنظمة العربية اتخاذ إجراءات مُشددة داخليا؛ لتنفيذ الحملة التي تقودها ضد الإرهاب؛ ستكون له آثار داخليا؛ لا بد أن تتفاعل معها الأنظمة بذكاء، وإلا ستكون نكالا عليها.

- نهاية القطب الواحد، وبروز تعددية الأقطاب، كالصين والهند وروسيا؛ مما يُعجّل بنهاية العصر الأمريكي.

لقد مثلت حادثة الحادي عشر من شهر شتنبر؛ تاريخا فاصلا في صيرورة العالم التاريخية، ففي الوقت الذي تعيش فيه أمريكا مأساة الحادثة الأولى من نوعها؛ كانت أعمق بحيث دحضت أسباب القوة الأمريكية؛ ظهرت أوروبا متماسكة ماليا بعملتها الجديدة (الأورو)، وستشرع الصين في إنجاز صحوة وإقلاع جديدين، وسيُسجل تراجع حلم إسرائيل الكبرى، وعدم مطالبة الكيان الإسرائيلي بالمزيد من التنازلات من الطرف الفلسطيني، وأمريكا تحتاج لخمس سنوات لتمتص آثار ضربة الحادي عشر من شتنبر؛ الاقتصادية والنفسية، والأخطر فيها أنها قامت بعملية؛ ستكون درسا تطبيقيا نموذجيا لكل من يريد أن يُعجّل بأفول دولة أمريكا العظمى.

# الجغرافية السياسية المتغيرة

إن رقعة المغرب الجغرافية تتغير؛ بانكماشها تارة، وبتوسعها تارة أخرى؛ لعوامل سيأتي ذكرها، وتَرسُم لها حدودا وتتخذ لها أسماء؛ غير حدودها وأسمائها في هذا الزمان أو ذاك، وهناك من سيقول، قبل تَبْيِين ذلك؛ بأن للمغرب حدّين طبيعيين لا يُغيِّران من تمددهما أو تقلصهما، وهما هذه المياه الصّاخبة؛ مياه البحر الأبيض المتوسط، ومياه المحيط الأطلنتي؛ أقول له بأن هذين السطحيين المائيين هما امتداد لبرّ المغرب، ينكمشان بدورهما ويتوسعان، ولا بد أن يذود عنهما المغرب، لأنهما اكتمال لسيادته، ولا يتحقق له ذلك إلا بوعي تام بخطورتهما؛ يستدعي تطوير تقنيات ووسائل بحريته.

فمغرب العصر القديم؛ مغرب الممالك الأمازيغية؛ ليس هو المغرب الحالي، ومغرب العصر الوسيط (مغرب الأدارسة، والموحدين، والمرينيين، والوطاسيين)، ومغرب السعديين، ومغرب قيام الدولة العلوية، ومغرب الحماية الفرنسية، ومغرب ما بعد الاستقلال، ومغرب ما بعد استرجاع أراضي الصحراء، وما يزال هناك مغرب في الأفق بعد طرد الغزاة الإسبانيين من سبتة ومليلية والجزر (الجعفرية)، ومن بينها جزيرة (ليلى)، لأنه وجود موروث عن امبراطورية بحرية بائدة، ومغرب في أطروحة فكر الأمازيغيين؛ هذه هي كيفية الانكماش والتوسع الجغرافيين، ثم يُطرح سؤال: لماذا؟

ليُضرب لذلك مثالان أو نموذجان من التاريخ القريب؛ للتأمل؛ أولهما هو الدولة السعدية، بعد أن استتب للسلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي (1549م- 1603م) أمرُ دولته، لم يجابه الامبراطوريتين البحريتين؛ إسبانيا والبرتغال؛ لأنهما كانتا قد جاوزتا بقوتهما البحرية مضيق جبل طارق؛ إلى ضفة حوض البحر الأبيض المتوسط الجنوبية، فأصبحتا في موقف هجوم، وغدت الدول المغربية في موقف دفاع، وكانت معركة وادي المخازن (4 غشت 1578م)؛ بالنسبة للمغرب في ذلك التاريخ دفاعا؛ وليست زحفا، ويبقى

مضيق جبل طارق نوسانا؛ يتأرجح تارة لأولئك وتارة أخرى لهؤلاء؛ فحدث للمغرب اختناق، وكان المتنفس هو تنظيم حملتين عسكريتين إلى بلاد السودان؛ ما وراء الصحراء.

وثاني المثالين هو ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى؛ حيث طالبت-وكانت أكثر تطورا- وكانت مُستميثة في ذلك، وطلبها أقسى؛ بقسطها من بلدان ما وراء البحار؛ في العقد الأول من القرن العشرين؛ أُسوة بدول أوروبا الحديثة: انجلترا، وفرنسا، وإسبانيا؛ تحققت باتفاقيات؛ كانت فيها تنازلات؛ وتبادل في نُصُب في السيادة على بعض الدول المُسْتَضْعفَة.

إن توسع الدولتين كان نتيجة تغيّر حدث في داخلهما؛ في شتى ميادين الحياة، بدون الخوض في العامل البشري؛ إذ لا بد أن تُطعم أفواه لسكان يتزايدون، ولهم متطلبات يومية، وتطور في مؤسساتها، وبروز شروط مِلحاحة دفعت إلى تنفيذ سياسة جغرافية توسعية؛ لتحقيق ذلك.

فللمغرب جغرافية تاريخية، وأخرى مستقبلية؛ ويستمد هذه من تلك؛ ويعود إليها متى كان ذلك ضروريا؛ سواء اقتنع بذلك البعض، أم لم يقتنع.

فأين يُفرَغ إنتاج سهول المغرب الخصيبة المِغلالة، من الخضروات، والبقول، والفواكه، وقد صُرفت الملايير على تطوير فلاحته؛ بمكننتها، وتخصيبها، وتطوير وسائلها، وانخرط في إمكانيات غير محدودة، فله خزان طبيعي لا ينضب، وفرشة مائية، وإن كانت تتطلب للمحافظة عليها استغلالا عقلانيا، ومصانع لا تكل، ولتنمية هذه والزيادة في انتاجها؛ لا بد من تراكم في الثروة، وهذه لا تكون مُيسّرة إلا بفرض أسواق خارجية لتصريف المنتجات.

لا تُتناول واقعة (الكَرْكَرات)؛ بالدرس، والاستعبار إلا في إطار جغرافية المغرب المتغيرة، فلها أكثر من تعبير، ومعنى، ودلالة، والزحف على ذلك المعبر شرط فرضه مغرب القرن الواحد والعشرين، وقد هُزم من افتعلها، وكان يعرف منذ البداية أنه خاسر فيها، وأنها شكلت لحظة فارقة دشن بها المغرب مرحلة جديدة في جغرافيته، من هنا كانت خطورتها، فامتداد المغرب تجاريا، وبشكل

عمودي؛ فيما وراء غرب الصحراء الكبرى؛ أمر لا بد منه؛ تفرضه ظروف تطور اقتصادي آنية؛ وأعمق من هذا؛ فامتداد المغرب دينيا وروحيا يعود إلى جغرافيته التاريخية، ولا بد أن تُبعث.

خاصية المغرب الجغرافية أن له بحران؛ يخلُف فيهما دور اقتصاديات المحيط الأطلنتي؛ هذه حقبة في تاريخ الاقتصاد العالمي تمتد من 1800م إلى 1945م؛ كانت تُسيطر فيها دول غرب أوروبا سابقا؛ أعقبتها اقتصاديات المحيط الهادئ، وهي الحقبة التي ما تزال ممتدة (اليابان، ماليزيا، الفليبين، الصين، سنغافورة...)، وليعلم البعض أن هذه الاقتصاديات المتطورة الأخيرة؛ مُربكة إلى حد بعيد لاقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية، فشتان بين سياسة الصين الناعمة، وسياسة أمريكا؛ التي ما تزال تستعرض خُرْدَواتِها الفولاذية من طائرات، وغواصات، وحاملات طائرات؛ تُعسكر في بعض جزر المحيط الهادئ؛ ورثتها عن الحرب العالمية الثانية؛ بقهر واستضعاف في زمن ولّى.

السُّوس (دود ينخر في الخشب وغيره)؛ الذي ينخر في الداخل هو الذي نتوجّس شرّه، فإنه يُضعف إلى حد بعيد من عوامل جغرافية المغرب المتغيرة، وإليكم من التاريخ ما يَدْعَم ذلك، فيأتي السؤال: هل وُجِدت قوة أعظم؛ هزمت القائد القرطاجي هانيبال (247 ق.م- 182 ق.م)؛ في الحرب البونيقية الثانية، وأنهت هيمنة قرطاج، وإلى الأبد؛ على غرب حوض البحر الأبيض المتوسط على الأقل في الحرب البونيقية الثالثة، وزحفت على العالم القديم؟ نعم؛ هي روما، لعامل من عوامل أخرى، وهو أن الجيش القرطاجي كان يتكون في جزء منه من المرتزقة، وكانوا ينتفضون، أو يضرِبون عن مواصلة القتال؛ مما أضعفه، أما الجيش الروماني فكان يتكون من رومانيين خُلصاء ومخلصين لدولتهم، ويستعرضون قواتهم العضلية، ويتبارون في المسارح؛ مما كان انتمائهم الواحد يشُدّ من لُحمتهم حتى في المعارك مع الآخرين، هذا ما استنتجه المؤرخون، والمشتغلون بالبحث في تاريخ أمم العصر القديم، ولا عدم فهم في هذا، فعناصر، ولبنات الداخل لا بد أن تلتحم، وأن تُحدّد الغاية

الأخيرة والنهائية، ويقول علماء الفقه أن في الاختلاف رحمة، وفي الخلاف شر، والفرق بين الكلمتين بيّن، فكلمة الاختلاف تستدعي طرفين؛ يختلفان فيما بينهما إلى حين، والخلاف تناقض في الرأي، ووجهات النظر، ونزاع يجري بين مُتعارضين؛ يؤدي إلى التصادم بين الأفراد والجماعات.

# حوارات

# حِواران
# أجراهما المصطفى الصوفي[53]

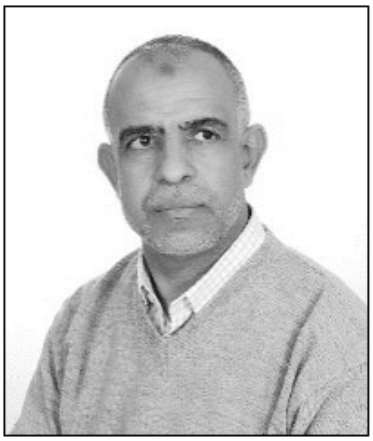

أحمد القاسمي

المصطفى الصوفي

## الحوار الأول[54]

«أحمد القاسمي؛ قاص مغربي من الجيل الجديد؛ الذي دخل تجربة النشر على حسابه الخاص؛ فكانت مجموعته: (امرأة من المدينة)؛ بداية عهد جديد مع أطياف الكتابة؛ التي يستلهم مرجعيتها من المجتمع المغربي؛ بكل تناقضاته، وحركاته وسكناته.

يقول القاسمي بأنه اختار امرأة من المدينة، وليس من القرية؛ لسبب بسيط؛ هو أن المجموعة جاءت لتُظهر إلى أي حد أصبحت المدينة تسيطر على القرية أخلاقيا، وسلوكا اجتماعيا. تجربته مع النشر فيها محنة ممزوجة بحلاوة ولذة، وثمارها ميؤوس منها؛ هو راض عن ما يكتب؛ لأنه يفعل ذلك بتلقائية؛

[53] المصطفى الصوفي؛ صحفي بجريدة (الحركة) لسام حزب (الحركة الشعبية).

[54] نشر الحوار في العدد 4028؛ من جريدة الحركة؛ ليومي الأربعاء والخميس 27 و28 دجنبر سنة 2000م.

ينطلق من فكرة، أو لفظة، وله موقف إيديولوجي؛ يشكل خلفية الإبداع القصصي. يضيف القاسمي في هذا الحوار بأن القصة المغربية مقارنة مع القصة بالمشرق لا تختلف؛ عن ما كان عليه الحال مع جيل الرواد؛ إذ قطعت في طريق الكمال الفني شوطا بعيدا. يرى كذلك أن السر في عدم نضج التجربة القصصية عند الشباب؛ يكمن في أن القصة بخاصة، والإبداع بعامة يتطلبان الموهبة بالأساس، وقدرا من تجارب الحياة، ومن التمرس الطويل، والشاق في مجال القراءة والإبداع معا. القاسمي معجب بيوسف إدريس، وعبد الله عبد الحميد، وفؤاد قنديل، وديزي أمير، وعبد الرحمان منيف، وآخرين... التقيناه فكان هذا الحوار:

**س: صدرت لك أخيرا مجموعة قصصية؛ بعنوان (امرأة من المدينة)؛ لماذا لا تكون امرأة من القرية؟**

**ج:** قبل الإجابة عن السؤال في حد ذاته؛ أحب أن أقول أن (امرأة من المدينة) هو عنوان قصة تصدرت كتاب المجموعة؛ لسبب واحد؛ ليس معيارا إبداعيا، وهو أنها آخر ما كتبت؛ إلى حدود طبع المجموعة، ولعدم وجود خيط رابط فيما بين القصص، فهي قد كُتبت خلال فترات متباعدة، وبتقنيات سرد حديثة متعددة، كاسترجاع الحدث (فلاش باگ)، والارتداد، والأحلام، والأوهام، وتقنية أخرى؛ قلما يكتب بها المبدعون، وهي توظيف التاريخ؛ كما في قصة (السلطان الأكحل)، وهي تقنية تتطلب قدرا من معرفة بالتاريخ، ومهارة في صياغته في شكل قصة، والنظر إلى الحاضر من زاوية حدث تاريخي.

أما لماذا «امرأة من المدينة»، وليس «امراة من القرية»؟؛ كان هذا انطلاقا من الفكرة التي أردت أن أصوغها في شكل قصة، وهي إظهار إلى أي حد أصبحت المدينة تسطو على القرية، وليس هذا فحسب؛ فقط من خلال الوجه الآخر للمدينة؛ أقصد الأخلاق والسلوكات الاجتماعية المتردية؛ التي

غدت من طبائع المدينة، هذا وإن كان الناقد المصري (رشاد رشدي[55])؛ يؤكد في كتابه (فن القصة القصيرة)؛ بأن القصة تعني ما تعني، فلا نقول أن هذه القصة تعالج هذا الموضوع أو ذاك، أو أنها تتناول هذه الفكرة أو تلك بالتحليل؛ إلى غير هذا، فالقصة هي فن أدبي قبل أي شيء.

ووراء فكرة (امراة من المدينة)؛ النظرة الخلدونية للحضارة، وللمدينة التي هي مظهر لها، فهو يقول بأنها -أي الحضارة- ليست نعمة فقط للأنام، فهي نقمة في آن؛ بحيث تفسد الأخلاق، وتقضي على خصال البداوة، كالكبرياء، والأنفة، والغيرة، والشجاعة، والمروءة، والعكس ليس صحيحا؛ فامرأة من القرية، وكذلك الرجل؛ إذا نزحا إلى المدينة؛ فإنهما يتأثران بما تنطوي عليه المدينة؛ من علاقات اجتماعية مشبوهة، ولا يؤثران فيها إطلاقا.

## وقائع طريفة

**س: كيف تُقيم تجربتك مع الطبع، والنشر؛ في أول مبادرة؟**

**ج**: هي تجربة فيها محنة؛ كما لها لذتها، فالطبع والنشر عالم مستقل بذاته، وكنت قبل أن أقوم بطبع مجموعتي القصصية، وعندما أُمسك بكتاب؛ أتساءل كيف وصل إلى يدي بهذا الشكل، وكيف كان الكتاب يترددون على دور النشر والطباعة، وعن وقائعهم الطريفة مع أصحابها؛ فهو إذن جزء من حياة الكاتب، وعليه أن يدونه في يوم من الأيام.

وأول ما يتبادر إلى الذهن؛ حين نتكلم عن طبع كتاب؛ هو الإمكانيات المادية، فهو قد يكون عملية استنزاف لمدخرات المرء، أما العائد منه، فهو شيء غير محقق، وهذا راجع إلى تراجع القراءة؛ الذي خلق كسادا في مبيعات

[55] ولد رشاد رشدي عام 1912م، وتوفي في سنة 1983م، حصل على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي؛ من جامعة (ليدز) بأنجلترا؛ عمل مدرسا بالمدارس، وبالجامعة، ورأس تحرير بعض المجلات.

الكتاب العربي، وتبعا لهذا تعترض نشر كتاب في الإبداع الأدبي بعض العوائق؛ فمن المكتبات والأكشاك من لا يقبل أن يعرض للبيع ما يُكتب في القصة، والشعر، والخواطر؛ لأنه لا إقبالا كثيرا عليه، كما أن المكتبة التي تتفق معك على عرض كتابك مقابل نسبة مئوية؛ تُطمره في مكان لا يستطيع أن يكتشفه القارئ.

**س: هل تعتقد أن القصة المغربية؛ انتصرت على الشعر، والرواية؟**

**ج**: كأن القاص والروائي والشاعر؛ في ميدان السبق؛ من سيهمن على سوق الكتاب، ومن ستحتل كتبه رفوف المكتبات، والخزانات، ومن سيحظى منهم بمتابعات النقاد.

لا؛ فللقصة مبدعوها، كما للشعر والرواية، وهناك من يجمع بين جميع هذه الأجناس الأدبية؛ قراءة، وكتابة، وتأليفا؛ أنا لا أتفق مع هؤلاء؛ قد اجمع بين القصة والرواية؛ لماذا؟ لأن القصة القصيرة بمثابة دوامة في مجرى الرواية النهري؛ هذا تشبيه أعطاه الناقد (رشاد رشدي)؛ في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه، ولا أجمع بين الشعر والقصة، أو بين الشعر والرواية؛ لأن التفرغ لجنس أدبي واحد، أو جنسين؛ يُعطي في الأخير ثِماره، فنجيب محفوظ كان روائيا أكثر منه قاصا، وكاتب سيرة ذاتية، ولم يكن شاعرا، وإن كانت تصلني بعض الأصداء حول القصة القصيرة؛ بأنها أصبحت، أو قد تصبح مقطوعة شعرية؛ هذا خطأ؛ لأنه سيُسقطنا في الذاتية الشعرية، أو الخاطرة؛ كل ما يُتحفني به النظم هو بعض الكلمات الشعرية المُكثّفة للأسلوب القصصي؛ مثل: الهسيس؛ الهجعة؛ الضياء؛ المكث؛ الغسف؛ الوجد؛ الهيام، ففي قصة نشرت لي حديثا؛ في أحد أعداد جريدة (المنعطف)؛ انطلقت في كتابتها، من كلمة (الهيام)، فجاء العنوان: «هيام في موسم الحصاد».

## حرب المياه

**س: هل أنت راض بما تكتبه، وتقدمه للمتلقين؟**

**ج:** نعم؛ لأني لا أكتب بتلقائية؛ كما قلت أنطلق من فكرة، أو من كلمة، ولدي موقف من المجتمع، وإيديولوجية؛ تشكل خلفية للإبداع القصصي؛ قد تكتشفها، وقد لا تصل إليها؛ حسب مستوى تأويل ما جاء في النص، وأحاول أن يفهم المتلقي ماذا أريد بهذه القصة، أو تلك، وهذا يبعدني عن الذاتية، لأنه -أي المتلقي- كما أرى ليس في حاجة إلى ذاتية الكاتب، فقصة (قحط في القرية)؛ كتبتها عقب ذلك التقارب الدبلوماسي، والعسكري؛ بين تركيا وإسرائيل؛ ماذا يعني هذا؟ يعني أن تركيا تنكرت للعلاقات الدينية والتاريخية التي تربطها بالعالم العربي، فجاء حدث القصة على الشكل التالي: عرب يسكنون أسفل الجبل؛ يأتيهم الماء من خزان؛ يحرسه تركي في قمة الجبل، وغير بعيد عن القرية العربية؛ بستان غنّاء؛ امتلكه يهودي قسرا، فما حدث أن التركي تآلب مع اليهودي؛ ضد عرب القرية، فأسقط الأول الدفة على فم الخزان، فانحبس الماء، فضرب القرية قحط، فحرب المياه بين دول عربية، وأخرى غير عربية؛ أمر غير مستبعد في المستقبل؛ ذلك أن جميع الأنهار تنبع من خارج المنطقة العربية، كالفرات ودجلة والنيل...

## الريسوني الأول

**س: القصة المغربية ما تزال متأخرة مقارنة مع القصة المشرقية؛ هل صحيح ما يقال؟**

**ج:** أورد هنا شهادة الناقد المصري الدكتور الطاهر أحمد مكي؛ في تقديمه لكتاب؛ عنوانه: (مختارات من القصص القصيرة)؛ في حق القصة المغربية، وأنا أتفق معه، ولا تختلف القصة المغربية الآن عن ما كان عليه الحال في

جيل الرواد، أو من تلاهم، ولكنها قطعت في طريق الكمال الفني شوطا بعيدا، فتخلصت من الأسلوب التراثي، واسفادت من التقنيات الحديثة.

وقد يستشف تأخر القصة المغربية عن مثيلاتها في الشرق؛ من الإرهاصات الأولى لهذا الجنس الأدبي؛ ففي الشرق؛ تمثلت تلك الإرهاصات؛ في لبنان؛ في قصة العاقر؛ عام 1913م؛ لكاتبها ميخائيل نعيمة، وصدرت أول مجموعة عنوانها: (أشباح القرية)؛ سنة 1938م؛ لمؤلفها كرم ملحم كرم، وفي مصر كانت أول قصة راعت قواعد الفن القصصي؛ هي قصة (القطار)؛ كاتبها محمد تيمور (1921م- 1982م)، وبعده أخوه محمود تيمور، ولم تبدأ في المغرب؛ إلا بظهور أول مجموعة قصصية؛ مؤلفها محمد خضر الريسوني؛ في عام 1951م؛ عنوانها: (أفراح ودموع)؛ ثم مجموعته الثانية: (ربيع الحياة)؛ كانت قد صدرت في سنة 1957م، وتلاه في ذلك أحمد بنا؛ بمجموعته: (فاس في سبع قصص)؛ صدرت في عام 1968م، وقد أرخ الدكتور جابر عصفور البداية الأدبية في المغرب؛ بمجيء فرقة يوسف وهبي المسرحية؛ إلى المغرب؛ في خمسينيات القرن العشرين؛ في كتاب عن (القصة المغربية).

وأنا شخصيا أتفق على هذا التقسيم الإقليمي؛ لأدب القصة في العالم العربي؛ فأقرأ في ذات الوقت -سواء كانت القصة متأخرة أو متقدمة- القصة المغربية، والمصرية، والسورية، واللبنانية... لآن جميعها مكتوب بلغة الضاد.

## القصة في مخاض

**س: التجربة القصصية الحديثة عند الشباب؛ ما تزال غير ناضجة؛ ما السر في ذلك؟**

**ج:** القاص وليد عصره؛ مرحلة تاريخية معينة، وواقع معين، فإذا كانت التجربة القصصية عند الشباب لا تكتمل شخصياتها، وغير ناضجة، لذلك تأتي غامضة، وتغلب عليها الذاتية، فلأنها ما زالت في مخاض، ولا نعرف عن

ماذا ستتمخض عنه؛ خصوصا ونحن الآن نشهد أفول الأدب الهادف؛ الذي كانت تطغى عليه الأيديولوجية اليسارية، وأرى أن السر في عدم النضج؛ في أن القصة خاصة، والإبداع عامة؛ يتطلبان الموهبة بالأساس، وقدرا من تجارب الحياة، والتمرس الطويل والشاق بالكتابة، والقراءة الكثيرة؛ إلى حد الهوس.

**س: هل يوجد نص قصصي بالمغرب؟**

**ج:** نعم؛ قرأت منذ سنة قصة قصيرة؛ جميلة جدا؛ عنوانها: (الخادمة الصغيرة)؛ كاتبتها مغربية اسمها (أمينة شرادي)؛ نشرت في العدد 1999/96م، من المجلة الفصلية: (القصة)؛ تصدر من مصر؛ عن نادي القصة؛ تُنبئ بتجربة قصصية؛ قد تتطور من حسن إلى أحسن.

**س: كيف تعلق على التجربة القصصية المغربية؟**

**ج:** كما قلت بأن التجربة القصصية المغربية الآن في مرحلة التشكيل، ونحن نعاصر نهاية مرحلة مرجعية سياسية، وبداية أخرى؟

**س: هل النقد يواكب شخوص القصة، وزمانها،ومكانها؟**

**ج:** لا يواكب النقد الإبداع في القصة إلا نادرا، وهذا يظهر من ملاحق الصحف الوطنية الثقافية، والمجلات الأدبية، فقلما نجد متابعات لمجموعات قصصية تصدر حديثا، حتى وإن وُجدت فإنها تتم على أساس صداقات، أو زمالة تجمع بين القاص والناقد، وعلى أساس انتماء حزبي، ولا تستند على أية موضوعية.

## حرية المبدع

**س: أي مرجعية ثقافية يستند عليها القاسمي:**

**ج:** يجب ألا يغيب عن ذهن القاص؛ في المغرب خاصة، وفي العالم العربي والإسلامي عامة؛ أنه يمثل بإبداعه حضارة، وهي بصراحة حضارة الكتاب المسطور، وأن العولمة ستلتهم أغلب هويات وثقافات العالم المحلية؛ إلا هوية

الحضارة العربية الإسلامية؛ فإنها ستظل في صراع مع النمط الغربي؛ خاصة الأمريكي؛ الذي يتخفى وراء ظاهرة العولمة، لذا فمرجعية ثقافية؛ كالتاريخ، والتراث، وما تشهده الساحة العربية من أحداث سياسية، واليومي المعيشي؛ المشحون بظروف الاستعباد والفقر والقهر، ومحنة العامل، والعون الإداري، وتردي الأخلاق؛ يأخذ منه المبدع مادة خام لإبداعه؛ لذلك يستوجب تمتعه بحرية في تصوير هموم عصره، وشعبه؛ بكل صدق، وليس إلى أن يكتب نصوصا ذات مضامين ساقطة؛ لأن الأدب رسالة اجتماعية وثقافية وسياسية.

## سحرونا بأفكارهم

**س: أي كاتب أو قاص تقرأ له؟**

**ج:** أجمع في قراءاتي آداب مختلف الحضارات، والرقع الجغرافية؛ أقرأ للغربيين؛ لأن القصة اختراعهم، وقد كان في تراثنا العربي حصيلة أشكال من القص؛ كانت ستكون نواة قصة عربية خالصة، فيكون لنا نحن العرب قصب السبق؛ إلا أن القصة الغربية بهرتنا بجمالها الأدبي، فنهلنا منها، واستقينا قوالبها الفنية؛ لنصب فيها واقعا عربيا بأفراحه وأتراحه؛ بخنوعه ومقاومته؛ وها نحن نرى أن النهضة العربية؛ تكال لها الضربات الموجعة من الغرب؛ الذي أوغر في الجسد العربي جراح أرض فلسطين السليبة؛ لا تندمل؛ تعيدنا إلى الوراء خلال خمسة قرون؛ مستحضرين سقوط الأندلس؛ بعد أن عمرها المسلمون العرب ثمانية قرون ونيف.

أقرأ للكتاب الفرنسي (گي دو موباسان)؛ مخترع القصة القصيرة بلا منازع، والروسي (أنطون بافلوفيتش تشيخوف)، والأمريكي (إرنست همنجواي)، والفرنسي (أندري جيد)، ولغيرهم كثيرون، وقرأت كتاب (أنطولوجيا القصة الكولومبية)؛ الذي أشرف على ترجمته إلى اللغة العربية؛ قطاع الثقافة، وكتاب عنوانه: (نساء يكتبن أحسن)؛ من أمريكا اللاتينية؛ اختار قصصه، وعربه

الناقد المغربي محمد صوف، وكتاب (قُصّاص مغاربة)؛ مثل محمد زفزاف، وأحمد بوزفور، وأحمد زيادي، وإدريس الخوري، ومن المشارقة أقرأ لنجيب محفوظ، ونجيب الكلاني، ويوسف إدريس، ويوسف السباعي، وعبد الحليم عبد الله؛ صاحب القصتين: (شجرة اللبلاب)، و(لقيطة)، ومحمد قطب، ومحمد مستجاب، وفؤاد قنديل؛ من مصر، وديزي أمير من العراق؛ حاليا أقرأ رواية: (الأرض السواد) للروائي السعودي عبد الرحمان منيف.

**س: لماذا تكتب، ولماذا تقرأ؟**

**ج:** نقرأ لهم؛ أي أصحاب الثقافة الغربية؛ لأنهم سحرونا بأفكارهم، وإبداعهم، وأدبهم، ونقرأ للرواد والذين أتوا من بعدهم؛ من ملتنا؛ الذي احتدوا حدوهم، وتمذهبوا بمذاهبهم؛ في النصف الأول من هذا القرن؛ لنكتب نحن أيضا؛ ليقرأوا، ويعرفوا إلى أي حد تستطيع الثقافة العربية؛ أن تحتل موقعا في الآداب العالمية، وهذا لا يتأتى إلا بترجمة الإبداع العربي إلى لغات العالم الحية».

## الحوار الثاني[56]

«يتذكر القاص المغربي أحمد القاسمي؛ كتاب (فن القصة القصيرة)؛ مؤلفه المصري رشاد رشدي (1912م- 1983م)، والذي كان المرجعية الأولى التي انطلق منها؛ كتاب ضم بين دفتيه نماذج من القصص العالمية المترجمة، ويؤكد القاسمي؛ أن الفرق بين الكتابة القصصية والروائية واضح؛ ذلك ان القصة القصيرة لا تحتاج إلى تصميم محكم للحدث؛ الذي يبقى مبهما في ذهن القارئ، وبالتالي فإن القصة القصيرة هي بمثابة كائن ينمو، والقاص هو بمثابة نحات يصقل الحجر، ويحاول أن يخلق شكلا جميلا؛ متناسق الملامح؛ في

[56] نشر هذا الحوار بملحق جريدة (الحركة) الثقافي؛ للأحد والإثنين 1 -2 شتنبر 2002؛ العدد 17؛ الرباط.

الشكل والمضمون، أما الروائي إذا مضى في إراقة مداد قلمه على الورق؛ دون أن يُلمّ بالفكرة العامة للرواية؛ فإنه لن يكتب رواية، وسيسقط في متاهات؛ وأخذ ورد.

ويضيف القاسمي في هذا الحوار؛ أن الجمعيات، والإطارات الأدبية؛ لن تخلق مبدعا، والمهم في ميدان الكتابة ليس القاص، ونشاطاته الإبداعية، وإنما ما وضعه بين أيدينا من إبداع، فالقاص الذي يتمنى النجاح في إبداعه؛ هو الذي يراهن بأكبر قدر من طاقته الإبداعية، فبدون مشروع مجموعة قصصية، أو رواية؛ لن نتكهن بنجاح المبدع.

أما بخصوص التجربة القصصية في المغرب، فيؤكد بوجود تراكم كمي وكيفي للقصة، وأن انتصارا إلى حد ما على الشعر؛ شيء وارد، فقد آثر الشباب خوض غمار القصة القصيرة؛ بالرغم من خطورتها من الشعر، وهي بهذا تضمن لها موقعا، وموطئ قدم في الإبداع العربي، واستطاعت أن تخطو خطوات متزنة في الوقت الراهن.

وبخصوص النقد الأكاديمي؛ يعتبر القاص القاسمي؛ أنه قلبلا ما يقوم النقد الأكاديمي في المغرب؛ بمحاولة تتبع الإبداع الأدبي، وإن وُجد فهو نقد مجاملة؛ لا أقل، ولا أكثر، وهذا يقتل الأدب وهو في مهده، أما علاقته بالشبكة العنكبوتية، فهي واضحة؛ هي وسيلة عصرية متقدمة؛ للتواصل، والحوار، والإعلام، ونشر المعرفة، والتعلم. الأعمال الخالدة في نظره هي التي يستطيع كُتابها التغلغل إلى نفسيات القراء، وجعل احداث القصة مرآة يرى فيها الفرد وجهه.

التقينا القاص المغربي أحمد القاسمي، فكان نص الحوار:

**س: متيقن أن القصة القصيرة؛ هي التي اختارتك للإبداع؛ بدل أن تختارها؟**

**ج:** القصة القصيرة هي التي اختارتني للإبداع؛ كيف؟

في سنة 1984م؛ عندما كنت تلميذا في المرحلة الثانوية؛ كلفني أستاذ اللغة العربية بإعداد عرض حول القصة القصيرة، وكان من ضمن المراجع التي اعتمدت عليها في تهييء هذا العرض؛ كتاب مفيد، ومهم جدا؛ ما زلت أكن له ولصاحبه تقديرا؛ ألا وهو كتاب: (فن القصة القصيرة)؛ لمؤلفه الدكتور رشاد رشدي؛ أحد نقاد مصر في خمسينيات القرن العشرين؛ ضم الكتاب بين دفتيه نماذجا من القصص العالمية؛ ترجمها رشدي بأسلوب عربي شيق؛ مثل قصة (الشقاء)، للكاتب الروسي أنتون تشيكوف.

## تصميم محكم للحدث

لأول مرة أكتشف جمالية هذا النوع من الأدب؛ بالرغم من قصره شكلا؛ فإنه يتسع للحظات بارزة في حياة الإنسان؛ سعادته، وتعاسته؛ فرحه، وحزنه؛ نجاحه، وفشله... فانجذبت لسحره، فبدأ منذ ذلك الحين عشقي للقصة القصيرة، وكل من اطلع على هذا الكتاب، سيراوده نفس الإحساس، وستشده أحداث تلك القصص، التي برع المؤلف في ترجمتها؛ إذ ما يزال يؤدي دوره ذلك الكتاب؛ خصوصا لفئة الشباب؛ بالرغم من مرور نصف قرن على صدوره[57].

لولا تلك القصص الجميلة؛ لما شرعت بدوري في مضاجعة القصة القصيرة، وإشباع ما ألم بي من هيام؛ لا تنطفئ جذوته أحيانا إلا بالركون إليها.

**س: كقاص ما الفرق بين كتابة القصة، والرواية؟**

**ج:** يكمن الفرق في الكيفية التي تكتب بها القصة، وتلك التي تؤلف بها الرواية. غالبا لا تحتاج القصة القصيرة إلى تصميم محكم للحدث؛ الذي يبقى مبهما في ذهن القاص، وهو يشرع في الكتابة، ولا يتكهن بنهايتها؛ التي تتولد من البداية؛ التي وضعها الكاتب؛ لذلك نقول إن القصة بمثابة كائن ينمو،

[57] للتذكير؛ فإن نص الحوار نُشر في سنة 2002م.

وهذه الطريقة عادة ما تأتي بقصص ممتازة، لذلك تكفي لقطة، أو موقف عابر، أو حدث بسيط، أو شخصية واحدة؛ للشروع في كتابة القصة؛ تظل خطورتها تتمثل في الضغط على الحدث، وتكثيف الأسلوب، وتوظيف كلمات معبرة، ومشحوذة؛ يُحتاط أن تأتي نشازا، فالقاص كنحات يصقل الحجر، ويحاول أن يخلق شكلا جميلا؛ متناسق الملامح؛ شكلا ومضمونا؛ بيد أن الروائي؛ إذا مضى في إراقة مداد قلمه على الورق؛ دون أن يلم بالفكرة العامة، ودراسة عميقة للشخصيات؛ نفسياتهم، ونوازعهم، ورغباتهم، وتنقلاتهم في الأمكنة والفضاءات، وتصميم محكم مسبق للأحداث، والفصول، والمواقف؛ فإنه لن يكتب رواية، وسيسقط في متاهات، وأخذ ورد، وتناقضات؛ يستدعي الأمر أفكارا جاهزة لا رجعة فيها، وإن الرواية تمنح حيزا رحبا للسارد؛ يتنقل فيه بحرية، فهي تتناول على لسان شخوصها؛ قضايا مجتمع، وظواهر تاريخية؛ مثل الصراع العربي الإسرائيلي، أو مجتمع فيه مخاض؛ في طور التحول؛ أما القصة القصيرة لا تتسع لمثل هذه القضايا، فتبقى المواقف اليومية، ونوازع الإنسان اليومية؛ ضمن ما تتناوله.

## التكهن للمبدع بالنجاح

**س: توجد العديد من الجمعيات والنوادي التي تهتم بالقصة؛ هل في نظرك يحتاج القاص إلى مثل هذه الإطارات لنجاحه؟**

**ج:** قطعا لا؛ فما يهمنا في ميدان الإبداع ليس القاص؛ ونشاطاته الإبداعية؛ في إطار هذه الجمعيات، والأندية، وإنما ما وضعه بين أيدينا من إبداع، فنستحسن ما جدَّ في خلقه، ونستقبح ما تهاون في وضعه، وفي حسبانه أنه أبدع شيئا ذا أهمية، لكن في واقع الأمر يستهزئ بنا كقراء، إذن فما يُبْدَع بهدف الإبداع الحق؛ لا يتم في قاعات الأندية، وأحضان الجمعيات، ودفء اللقاءات؛ التي يذهب فيها وقت المبدع هدرا، وإنما يجري في محراب المبدع؛

عندما يدلف إلى فضائه الخاص به؛ تحيط به أربعة جدران؛ فيخلو إلى نفسه، يقرأ بنهم، ويُنوّع مجالات، ومواضيع الكتب، ويطلق العنان لمخيلته، وأفكاره، وقلمه.

فالقاص الذي يرجو النجاح؛ هو الذي يراهن بأكبر قدر من طاقته الإبداعية، فبدون مشروع مجموعة قصصية، أو رواية؛ لن نتكهن له بالنجاح، فحسبه كما قلت الاعتكاف في محراب قراءاته وإبداعه، ويجد ويكد في صياغة عمل إبداعي، ثم يخرج به إلى كل من حسن ظنه فيه؛ أنه سيقدم له يد المساعدة؛ في إخراج عمله إلى النور، ونقصد هنا الجهات المسؤولة، والمختصة في مجال النشر؛ لتقوم بطبعه، ونشره، وتغطية صدوره من طرف وسائل الإعلام، وتنظيم حفلات توقيعه.

## شعبية الآداب العالمية

في حقيقة الأمر؛ تبدأ معاناة المبدع مع النشر، وتسويق إنتاجه؛ في مجتمع لا يقرأ أغلب أفراده؛ لعدة أسباب، فقد يكون عدم الاهتمام، أو ضائقة ذات اليد، ولأننا لم نؤسس منذ زمن تقليدا؛ لا في حياتنا اليومية اسمه القراءة، ولا أريد أن اخوض في أسباب أخرى تتعلق بنظام الإعلام السمعي والبصري والرقمي؛ الذي ساد، وما تزال آثاره حاضرة بإلحاح.

**س: ما هي مميزات التجربة القصصية في المغرب؟**

**ج:** ما نلمسه، ونعاينه؛ أن هناك تراكما في القصة، وأن انتصارا على الشعر إلى حد ما شيء ملاحظ، فقد آثر الشباب خوض غمار القصة القصيرة بالرغم من خطورتها، وما يلاحظ في الشعر نشاط في الغزل.

يبقى التراكم النوعي للقصة الذي ينبغي أن يكشف عنه الناقد؛ هذا الأخير غائب بنسبة مهمة، وللأسف، وأريد أن أقول أننا لم نبدع حتى الآن قصة،

أو رواية؛ يقرأها التاجر والحرفي والسياسي والأستاذ والقارئ المتمرس والعادي، كما لا نجد، ولنفس الغرض فيلما مغربيا، ومسرحية، وقصيدة، ولوحة بإحدى المدارس الفنية التشكيلية؛ يكفي أن نقوم بجولة بين رفوف المكتبات؛ نجد أصحابها ما يزالون يعرضون كمية كبيرة من مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي، ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم؛ وغيرها من كتب الشرق، وقليلا ما نجد مؤلفات للكتاب المعاصرين المغاربة؛ هذا لا يعني أننا لم نبدع قصة أو رواية مغربيتين؛ في مستوى شعبية الآداب العالمية، وإنما لم نحاول أن نستكشف عملا إبداعيا، ومبدعا في آن واحد؛ وإذاعته على أعلى مستوى.

## وعي عميق

**س: ما الذي ينقصها؟**

**ج**: عادة ما يجعل التجربة القصصية ناجحة؛ هو مستوى التقنية التي تُعالج بها المادة الخام للحدث، ومدى انصهار القاص مع الشخصيات، وأحداث القصة، وإلى حد يستطيع أن يكيف أدواته، وآلياته ولغته معها، لينجز في آخر المطاف عملا متكاملا شكلا ومضمونا، وخير للتجربة القصصية المغربية؛ أن تنحو هذا المنحى، وتنحت لها أعمالا ممتازة من التراث، والتاريخ، ووقائع حياة المدن؛ هذه الأخيرة تستدعي وعيا عميقا بتحولاتها الاجتماعية التي أضحت تمس المجتمع المغربي.

**س: موقعها مقارنة بالتجارب الأخرى في الوطن العربي.**

**ج**: استطاعت القصة المغربية؛ منذ عقدين؛ أن تجد لها موطئ قدم في الإبداع العربي، وأن تخطو خطوات ثابتة، ومتزنة. في الوقت الراهن تنشر بعض الصحف والمجلات؛ خليجية ومصرية ولبنانية؛ قصصا لمبدعين مغاربة؛ يتقبلها النقاد بارتياح ونقد؛ يشجع كثيرا على المضي في نفس التجربة؛ مثل المجلة الفصلية المتخصصة (القصة)؛ التي تصدر بمصر؛ عن نادي القصة، والذي

كان يرأسه الروائي نجيب محفوظ (1911م- 2006م)، ويتولى كتابته القاص ثروت أباضة (1927م- 2002م)؛ تنشر لمبدعين مغاربة؛ هذا لا يعني أننا لا نبدع إلا من خلال منابر شرقية؛ يتجلى المشكل في عدم وجود منابر مغربية متخصصة في القصة والرواية؛ تشد من أزر المبدعين، وإن وجدت تبقى الصداقة والوساطة والزمالة؛ قنوات تمرير بعض الإبداعات إلى النشر.

**س: أصدرت أخيرا (امرأة من المدينة)؛ كيف تقبلها الجمهور؟**

**ج:** هناك من صرح بإعجابه، وتشجيعه، وهناك من ناقشني في مضامين بعض قصص المجموعة، وتقنياتها، وجميعها ملاحظات تنم عن عدم معرفتهم بهذا الفن الخطير؛ رغم ذلك يبقى للجمهور رأي لا يستهان به.

## نقد مجاملة

**س: والنقاد؟**

**ج:** أمدني بعض النقاد ببعض الملاحظات؛ تنم عن إدراك عميق بفن القصة، وصنفوا مجموعتي في محاولة لتجاوز مرحلة تجربة مبكرة؛ أخوضها للانتقال إلى أخرى أحسن، وأعمق، وهذا ما كنت أفضله؛ لا أن يُثنوا على قصصي ثناء كاذبا، ومبالغا فيه، وأنا لا أريد هذا إطلاقا؛ لأنه لا يخلق إبداعا، ولا مبدعا، فخير لي أن أبقى أتمرن، وأستزيد من تجارب الآداب العالمية، والبحث عن تقنيات جديدة، وأن أصقل موهبتي، وأنحُت أسلوبا خاصا بي.

**س: أيوجد نقد أكاديمي متتبع للقصة بالمغرب؟**

**ج:** قليل ما يقوم النقد الأكاديمي في المغرب بتتبع الإبداع الأدبي، وبالأخص للشباب وغير المعروفين، وإن وجد فهو نقد مجاملة لا أقل ولا أكثر، وهذا يقتل الأدب وهو في مهده.

## التقنية شيء أساسي

**س: وكذا في الوطن العربي؟**

**ج:** من خلال المجلات والصحف؛ سواء كانت أسبوعية، أو شهرية، أو فصلية؛ خليجية، أو مصرية في الغالب؛ نقف على نقد يدأب على تتبع بعض القصص.

**س: يدعم اتحاد كتاب المغرب الأدباء الشباب، أم العكس؟**

**ج:** الجائزة التي يرصدها اتحاد كتاب المغرب للمبدعين؛ كل سنتين؛ فيه إلى حد ما تشجيع، ودعم، بالإضافة إلى العضوية التي يمنحها للعديد من الشباب المبدع.

**س: علاقتك كقاص بالشبكة العنكبوتية.**

**ج:** الشبكة العنكبوتية وسيلة عصرية للتواصل، والحوار، والإعلام، ونشر المعرفة، والتعلم؛ تؤدي نفس الدور، وأكثر؛ الذي قام به الكتاب، والجريدة والمجلة، والمذياع، والتلفاز، والفيديو؛ إلا أننا لحد الآن ما زلنا نتكيف أحيانا مع هذه الأداة الجديدة، ولم نحدد الهدف من استعمالها، ولا كيف يمكن أن تلعب دورها في نشر الأشكال الأدبية؛ من شعر، وحكاية، وقصة، ورواية؛ لذلك أحاول بدوري الإبحار، وبشكل مكثف في المواقع الإلكترونية، وأحاول استكشاف خدماتها للاستفادة منها.

**س: ما هي في نظرك الأعمال القصصية التي تخلد في ذهن القارئ؟**

**ج:** إن ما يخلد في ذهن القارئ هو الأعمال القصصية التي يستطيع كتابها التغلغل إلى نفسيات القراء، وجعل أحداث القصص مرآة يرى فيها الإنسان وجهه الحقيقي، وهذا لا يتأتى إلا برسم الشخصيات رسما دقيقا، وهي تتحرك في أمكنة وفضاءات، حيث يحاول المبدع أن يخلق شخصية تتفاعل مع تفاصيل الأمكنة بأسلوب سهل وشيق، وكلمات تؤدي دورها على أحسن وجه، لذلك فالأعمال التي يشوبها التعقيد، وعدم الوضوح، وإقحام التوجهات السياسية؛ سرعان ما يهجرها القارئ؛ تبقى التقنية شيء أساسي.

**س: آفاقك في المستقبل؟**

ج: الانتقال من كتابة القصة القصيرة إلى التأليف في الرواية، وهذا حلم يراود أي كاتب في مجال السرد؛ لكن بشكل، ومضمون جديدين؛ أسعى إلى التفرد والتميز بهما».

# حِواران
## أجراهما عبد العزيز بنعبو[58]

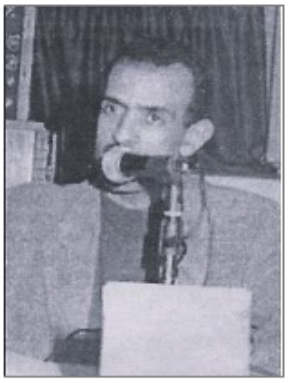

أحمد القاسمي

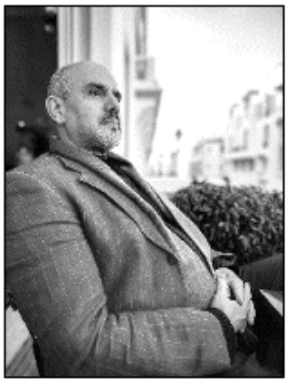

عبد العزيز بنعبو

## الحوار الأول[59]

### «الكتاب مُحارب من زمن الرومانسية؛ هل تمت إقالته؟».
### «حوارات على هامش أزمة الكتاب، والكاتب في المغرب».

«كانت الفكرة الأولى هي إنجاز ملف يضم بعض الحوارات الموجزة؛ حول مشكل النشر والكتاب في المغرب؛ على أن يُنشر كاملا؛ لكن بعد طول التفكير استقر الرأي على جعله ملفا في حلقات؛ حتى نتمكن من رصد آراء، وأفكار، ومعاناة عدد من المبدعين، والمثقفين. إلى جانبهم نقف على حقيقة الأمر عند الناشرين، وطبعا دون نسيان رأي الوزارة الوصية على القطاع الثقافي. طبعا الاستقرار على ملف متسلسل في حلقات حوارية؛ جاء نتيجة تزايد حدة الأزمة التي يعانيها الكتاب، والكاتب في المغرب، فالأول يعاني الركود والجمود على رفوف المكتبات، وحتى على أرصفة الأكشاك، والثاني

[58] عبد العزيز بنعبو؛ صحافي سابق بجريدة (المنعطف).
[59] نشر الحوار بجريدة المنعطف؛ العدد 2441؛ يوم الأربعاء؛ 14 دجنبر 2005م.

يعاني الأمرين ماديا؛ ليخرج كتابه إلى الوجود في شكل يليق بالأفكار، والإنتاجات التي يضمها بين دفتيه. من خلال هذا الملف، وهذه الحوارات سنحاول أن نضع الأصبع على مكامن الخلل، وعراقيل الطريق التي تحول دون انتشار الكتاب المغربي، ووصوله إلى القارئ المحلي أولا.

**س: نبدأ حيث انتهى كتابك؛ إذا علمنا أنك ما زلت تحتفظ بالعديد من النسخ. ألم يكن التوزيع كما ينبغي؟**

**ج:** نعم؛ لم يكن التوزيع كما ينبغي؛ كيف؟ بدأت كتابة القصة في عام 1984م؛ عندما كنت طالبا في المرحلة الثانوية؛ أي في مرحلة عمرية يحيا فيها الشاب أحلاما وطموحات، وترحل به الخيالات بعيدا، فكنت أتمنى أن أصبح كاتبا، ولما توفر دخل مضمون؛ قلت لما لا أمول طبع كتبي، وأنشر إبداعاتي وكتاباتي بين الناس، وقد حدث ذلك، وطبعت المجموعة القصصية الأولى؛ لكني وجدت نفسي فجأة مبدعا، وناشرا؛ في نفس الوقت، وهذا لن يحصل أبدا، وستكون المهمة الثانية؛ أي مجال الطبع والنشر؛ على حساب كوني مبدعا، لذلك يستحب أن يتفرغ المبدع لإبداعه؛ للتمرس على الكتابة، واستكشاف تقنيات، ومضامين ترقى بكتاباته، ويبحث له عن ناشر مختص له خبرة بمجال توزيع، ونشر الكتب.

**س: بقي كتابك يتيما منذ سنوات؛ ما سبب عدم إقدامك على طبع كتاب ثان؟**

**ج:** الإبداع كما يقول الكثير ممن لهم تجربة في هذا المجال؛ مسيرة طويلة، وشاقة، ويتطلب نفقات مستمرة للتنقل؛ لحضور ملتقيات، وندوات، والتواصل مع الكُتّاب المبدعين؛ ممن بقي من الرعيل الأول؛ والثاني، والأدباء الشباب؛ هذا عدا الاعتكاف في محراب الإبداع، والقراءة الدؤوبة، والمتأنية، والواعية؛ لساعات طويلة؛ ليلا نهارا، والإطلاع الدائم على تجارب الأمم والحضارات في ألوان الكتاب؛ من شعر، ومسرح، وحكاية، وقصة، ورواية، وعلوم إنسانية؛ ومعارف، وثقافات عامة.

ولو جنيت من الكتاب الأول رأسمالا؛ لأقدمت على طبع الكتاب الثاني، ويندر أن تجد دار نشر تمول لك طبع كتاب؛ يضم بين دفتيه مجموعة قصص قصيرة، أو رواية، لأن باعة الكتب يؤكدون دائما؛ أن هناك بطء كبير في بيع هذا اللون من الكتابة.

**س: كم استنفد منك الكتاب الأول؛ ماديا ومعنويا؟**

**ج:** استنفد مني الكتاب الأول رأسمال تمويله، وما زلت أذكر ما قاله منذ سنة[60]؛ الروائي المصري جمال الغيطاني (1945م- 2015م)؛ بأنه ما يزال ينفق على أدبه، أما معنويا بالعكس؛ فقد جنيت الكثير؛ كان سبيلا إلى أن يعرفني إلى كثير من الناس؛ منهم قاصون مغاربة؛ كانت لي معهم حوارات، ولقاءات، وأيضا مراسلات؛ كالقاص المغربي أحمد زيادي، وعدد قليل من الصحافيين؛ الذين ما يزالون يشجعونني على الاستمرار في الكتابة.

**س: هل لك أن تحكي محنتك مع الطبع والتوزيع؟**

**ج:** لم تكن هناك محنة مع الطبع؛ فقد توفرت على ما يكفي لطبع الكتاب؛ بعدد لا بأس به من النسخ، في حين كانت هذه المحنة كبيرة ومحبطة؛ إلى حد ما؛ عندما فشلت في لعب دورين في آن واحد؛ كما قلت؛ مبدع وناشر.

**س: كيف يبدو لك الكتاب المغربي في ظل استمرارية أزمة الطبع والتوزيع؟**

**ج:** هذا السؤال استشرافي؛ حبذا لو اعتمدنا على معطيات رقمية، وإسقاطات مستقبلية، وتحليلات إحصائية؛ لوضع نظرة استشرافية لمصير الكتاب المغربي؛ هل هناك تزايد، أو تناقص كمي في عدد المبدعين؟ وهل هناك متلق، وقارئ؛ إذا كان موجودا؛ أي رقم إحصائي يمثله؟ أما إذا كان هناك عُزوف عن القراءة، أو عن مضامين بعينها، أو أن هذا القارئ لم يعد يستسيغ بالذات كتابات؛ هذا يتطلب أيضا اختيار عينات من مختلف

[60] للتذكير فإن الحوار نشر سنة 2005م.

الأعمار والفئات؛ تقوم به إحدى الصحف؛ بالاتصال المباشر بالناس، أو عن طريق الشبكة العنكبوتية.

أما إذا حاولنا التكهن بمصير الكتاب المغربي؛ من خلال ما يظهر من بعيد؛ فالنتائج لا تُطمئن بالمرة؛ كما يبدو لي كمبدع، فوسيلة الشبكة العنكبوتية؛ التي غزت البيوت تدعم انتشار الكتاب الإلكتروني؛ هذا يجعل تراجع الكتاب الورقي أمر حتمي؛ بحيث أصبحنا نتحدث عن عصرين عاشهما الإنسان الحديث والمعاصر؛ عصر الورق المطبوع، وعصر النص الإلكتروني، والقديم دائما يتراجع في صمت وهدوء، والجديد يتقدم ويغزو بصخب.

## الحوار الثاني[61]

الرباط ـ «القدس العربي»: يُصر الروائي المغربي أحمد القاسمي، على الاحتفاظ بخطواته ثابتة مركزة في طريق الإبداع، الذي بدأه ذات يوم، ويواصله إلى حين استكمال ما بدأه من الصرح السردي. كما يصر على أن يركب صهوة الإصدار الورقي، غير حافل بمتاهات النشر الإلكتروني، رغم تأكيده على تمازجهما في تماهيهما مع بعض، فبالنسبة إليه الورقي والإلكتروني يكملان بعضهما بعضا. أصدر مجموعتين قصصيتين؛ الأولى عنونها بـ«الكتاب، والموطأ، وساعة جيب»، والثانية بـ«المعتقل»؛ بالإضافة إلى رواية بعنوان: «جزيرة في المحيط»؛ اِلتقته (القدس العربي)، فكان هذا الحوار:

**س: نسألك في البداية كيف السبيل إلى دخول عوالمك السردية؟**

**ج:** كتبت وما زلت في وسط زاخر بالإغناءات الأدبية، ومُفعم بالنصوص الإبداعية والعلمية والآراء والأفكار والاتجاهات والتيارات الأدبية والفكرية،

[61] نشر الحوار على موقع جريدة (القدس العربي) الإلكتروني: https://www.alquds.co.uk؛ في 20 ماي 2021.

وأدبنا العربي قديمه وحديثه ومعاصره ثَرّ، علاوة على ما نهلنا منه في الآداب الأوروبية، وجميع هذا كان الطريق إليه هو الكتاب، فأنا قارئ محترف له ومتأمّلُه، فإن مطالعتي للكتاب وفي شتى العلوم والآداب، وفي مضامين غزيرة، ولجميع الكتاب والمفكرين والمنظرين؛ دون استثناء أو انحياز أو تحيز أو ميل عاطفي، فكما أقرأ كتب الدين والشرع؛ أقرأ لداروين مؤسس نظرية التطور، وللمنظرين للمذاهب التجريبية والمادية؛ وهو – أي الكتاب – الذي يحدد الطريق الذي أسلكه إلى الأدب الإنساني؛ أُشارك الإنسان في أفراحه وأتراحه، وأناصره في استضعافه، وأشد بعَضُده إذا يئس لحق مُغتصَب، أو له مظلمة عند أخيه الإنسان، زمنيا قدمت من هنالك من تربة التراث الإسلامي العربي، من الوسط القبلي والعائلي؛ كانت نفحات منه؛ تقديس للكتاب السماوي واللغة العربية، ثم الوسط التعليمي بمستوياته الثانوية والجامعية، والتمسك باللغة العربية لغة الأدب بامتياز، وعشق للعلم وللحضارة العربية الإسلامية ببُعدها الروحي والإنساني؛ أخوالي كانوا حفظة للقرآن، وكانت لهم مكتبات في الدين والشرع، وفي مناقب الأولياء، وكتب التراث السردي، أحد أخوالي رحمة الله عليه؛ حج راجلا – كما رُوي – ربما في العقد الثاني أو الثالث من النصف الأول من القرن الماضي، وعرج على جامع الزيتونة وعلى جامع الأزهر؛ في غير موسم الحج ليتعلم. في حقيقة الأمر لم أسأل نفسي يوما إلى أي مدرسة أدبية تنجذب إليها كتاباتي السردية، أو التي أكون قد حاولت أن ألتمس حِضنَها، وألوذ بها اتقاء هذه المدارس والتيارات الأدبية الجارفة، وإذا حاولت أن أُموقِع نفسي، فأكون ولا أدري هل أخطئ في ما أقول؛ إنني أقوم بعمل هو من اختصاص المشتغلين بنقد الأدب، والتقعيد والتنظير للنص الأدبي، أو الذين يترصدون للظاهرة الأدبية بمختلف عوالمها ودوافعها وبيئاتها وأوساطها وتطوراتها وصيروراتها التاريخية؛ ربما أكون قد كتبت تأثرا في مرحلة زمنية، كتابات انحرفت إلى واقعية مناصرة الضعفاء، أو في المجتمع الفاضل، أو في حياء الحب والعذرية، الذي يمكن أن أقوله هو إنه بعد أن خمدت

العاطفة السياسية، وتبني قضايا سياسية بعينها؛ تكرست لديّ كتابات إبداعية تتناول الإنسان خارج الزمن والمكان؛ قد يموقعه الدارس في مرحلة زمنية آنية، أو قبل هذا؛ لا أدري، فأنا لست دارسا ولا ناقدا، ولا مُكتسبا لأدوات حرفية لفك النص وتشريحه وتحليله، أو دراسته من الداخل أو من الخارج، أو مثل هذه المغامرات أو الاندفاعات المغرية، أو انتواء قصب السبق في ذلك.

**س: وماذا عن تأثير التحولات الجارية حاليا في وضعية الكاتب؟**

**ج:** لا ننسى أننا غدونا تحت تأثير؛ ليس فقط عالم الكتاب الورقي الذي قد تؤرقنا القضايا التي عالجها، وحصرها في بوتقة النضال السياسي، إنما تحت تأثير عالم المواقع الإلكترونية ذي المواضيع والمضامين التي لا تحصى، التي تنوعت، وقد يكون فيه شيء من الإباء، إنني لا أريد أن أكون منتدبا لأي جهة أو مؤسسة أو مكان؛ ذلك نزوعي المذهبي إلى الأدب الإنساني، وفي تصنيف الكاتب في هذا الجيل أو ذاك، أليس فيه تقزيم لهذا الكاتب أو ذاك؟ إن مهمة الكاتب الروائي والقصصي لا تتغير، فهو إبراز إنسانية الإنسان، وفي إنسانيته انتصار الخير على الشر، قد يقول قائل إننا نحصر الكاتب في الثنائيات التي اشتغلت عليها الدراسة الأدبية في أوروبا؛ لا أدري أفي مرحلة زمنية معينة من تاريخ الأدب؟ الخير والشر؛ الحزن والسرور؛ الظلمة والنور، فإما أن تكون خيرا ينعم الناس في ظلك بالطمأنينة، أو شريرا يكابد الناس الخوف والقلق النفسي في قلعتك المريعة؛ من هنا المذهب الإنساني؛ لا زمان أو ظرف يفضح هويته التاريخية، ومكان جغرافي يكشف عن انتمائه للأرض؛ لكن المكان في قضيتنا الفلسطينية شيء محوري، وبالنسبة للفلسطيني شيء كالماء والأوكسجين؛ وفي هذا إشكال، وقد ننحرف مع التيارات الأدبية التي صدرت من المركزية الغربية، فنحن أبناء المنطقة العربية ومن ثمة الإسلامية،

نحاول أن نكون إنسانيي النزعة، لكن أرضنا الفلسطينية الحبيبة يجب ألا نفرط فيها، وفي ذلك أيضا مقاومة لكل كيان يقوم على أفضلية العنصر.
إن المسألة ليست في ما هو ورقي أو إلكتروني، وإنما الذي يعنينا أكثر هو فعل (القراءة) هل أبقت هذه الوسائل الرقمية على رغبة قراءة كتاب بعدد من الكلمات وبمضامين معينة؟

**س: في عز ثورة الرقمي؛ تصر على إصدارك كتب ورقية بوفاء وبعزيمة، كيف تجد الأمر أمام هذا الهجوم الإلكتروني؟**

**ج:** أنا على وعي بذلك، ومنح النشر الإلكتروني فرصا للنشر لم يمنحها النشر الورقي يوما؛ للقيود والمعايير الصارمة التي كانت لهذا الأخير؛ سواء على المادة المنشورة أو على مستوى شكل الكتاب. إذا أردت أن أجيب عن هذا السؤال، وأكثر من هذا؛ أن أخوض في الموضوع الذي يُولّده، فإنني أجد أن الأمر جد معقد، وقد تختلط فيه علينا المفاهيم والدلالات والمعاني والمصطلحات، وقد سبق وأن عالجته في مقال؛ انطلاقا من فعل (القراءة) وحاولت أن أشرح بدقة المقصود لغويا وقاموسيا لكل من فعل (القراءة) و(الكتاب)؛ هذا الأخير بحجمه المادي وبشكله الإلكتروني.. فكل ما هو جديد؛ قد ابتُكر –وتم التفكير فيه ولحاجة ماسة، ولأنه يُلبي الظروف المتطورة والمتغيرة– يغزونا حثيثا، والقديم يظل يقاوم مُنسحبا،فيصبح شيئا من التاريخ؛ هذا ما هو عام؛ إن المسألة ليست في ما هو ورقي أو إلكتروني، وإنما الذي يعنينا أكثر هو فعل (القراءة) هل أبقت هذه الوسائل الرقمية على رغبة قراءة كتاب بعدد من الكلمات وبمضامين معينة؛ إن (الكتاب) الورقي حامل من حوامل تقييد أو تدوين المعارف؛ سواء كان ماديا أو رقميا، إذا كان لي ميل إلى قراءة كتاب؛ فإني أقرأه سواء على الورق السيلولوزي، أو على شاشة قارئة إلكترونية.والذي يهمني في هذا السؤال هو أنني أبدأ أولا بإصدار كتب ورقية لأهداف عديدة وعميقة؛ منها أن للكتاب قيمته المطبعية؛ لا يمكن أن

أجازف بنشر كتاب دون تدقيقه وتمحيصه وتنقيحه؛ لا من ناحية اللغة فقط والمصطلحات، لكن أيضا من الناحية النحوية والإملائية، والذي يعزز كلامي هو أن تنظر إلى الأخطاء الإملائية والنحوية وبالحفنات؛ تملأ نصوصا معروضة رقميا على الكثير من المواقع، فالكتاب الورقي يجعلني أكثر رصانة وتهيّبا من الأخطاء التي قد تُسيء إلى سمعتي، ومن هنا فنشر الكتاب الورقي هو عملية تقنية يتدرب الكاتب أو المؤلف خلال مراحلها على النشر وبتُؤدة مُثمرة. وكثير من الناس يقع في اعتقاد خاطئ، وغير حضاري، وهو أن النشر الإلكتروني يعبر عن التقدم ومسايرة الركب، ودراية يُحسد عليها في هذا المجال، لكن قد يكون فيه حتف للكاتب وهو ما يزال في مهده، وخداع له وتلاعب بعقله، فالخير في الذي أراه هو أن يكون النشر الورقي مرحلة تُؤهِّل لمرحلة النشر الإلكتروني. لقد اختزل النشر الإلكتروني حرفة النشر الورقي، وأقصى حرفيين في مجال النشر، كالناشر الذي كان لا ينشر إلا ما هو أصلي وجيد، وليس لكل من هب ودب في هذا الميدان، والطبّاع كذلك والمُصحِّح للأخطاء المطبعية؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى أفسدت بعض المواقع العديد من الكتاب؛ التي لا تسعى إلا إلى الاستمرارية، وإلى المزيد من الربح المادي من العدد الكبير للزيارات الإلكترونية اليومية، حتى أضحت تنشر دون مراجعة، ولا تدقيق ولا تحري الجودة في اللغة وفي المضمون، لكن الكاتب الذي يحترم نفسه يظل صارما مع نفسه وفي أي شيء يكتب.

**س: هل لنا أن نسأل من أين تستمد عوالمك السردية؛ هل هي محض خيال أم لها امتداد في الواقع؟**

**ج:** أستطيع أن أُحدِّد ما هو محض خيال، وما له امتداد في الواقع؛ ذلك أنني قد أنطلق من حدث وقع بالفعل؛ لكن أصبه في قالب قصصي وروائي يطابق مقومات وقواعد هذين الجنسين الأدبيين، وأمنح لكل عنصر من عناصر الحكي حقه كالمكان والزمان والشخوص، ولماذا وقع الحدث ولِمَ

وقع.؛ هذا يجرنا إلى أن نقول إن في هذين النوعين من السرد والحكي مزج بين ما هو خيالي، وما قد يكون قد وقع بالفعل، وبين أمكنة مُتخيلة وأخرى موجودة بالفعل، ففي روايتي «جزيرة في المحيط»؛ أمكنة اِستوحيتها من أماكن جغرافية قرأت عنها أو ترددت عليها، ومن الصعب أن تنكشف للقارئ، إلا إذا أسررت إليه بذلك، ونبهته إليها، وفي قصتي «صاحب مطعم الطريق» فإني نسجت حدث القصة على مقهى موجود بالفعل بجانب طريق ساحلية، وأوحى إلي بالعديد من الأحداث، كما أن عنصرا من الحدث وقع بالفعل، وفي كتابي «البحري الغواص» وهو سيرة مهنية لغواص بحري، لكن فيها أشياء من الخيال، كيف بررت ذلك، وقد أكدته في المقدمة، وهو أن من المغامرات والإنجازات التي قام بها البحري الغواص ما قد يُفترض أنها وقعت بالفعل، وإن لم تكن مُوثقة واقعيا، ما دام أن البحري الغواص كان يُشهد له ببراعته ومِراسه في الغوص، وأنه كان المعلم الوحيد للغطس. فإني أنسج حدث القصة والرواية من موقف رأيته بالفعل؛ دون أن أجعله محور القصة، فلا بد من التخييلات، وإضافة للشخوص، وتطور للحدث وزيادة فيه، لأن القصة لغة وتعابير وتصوير ووصف، وسبر لأغوار النفس البشرية، الكتابة كما قيل تُعيد ترتيب الأحداث والأشياء، فالواقع اليومي صاخب ومختلط، ولا ندري ما سنُقدِم فيه وما نُؤخره، ولا نتنبأ بنهايته، فالكاتب بسرده ووصفه وبتسلسله المنطقي؛ يعيد عرض الواقع، كما أن الأدب مرآة سحرية نرى فيها خِلقتنا وخُلُقنا، ومن هنا كانت تلك الفائدة الجمة للقراءة».

# رحلات

# سفر بالقطار السريع

عندما يَطرُق سمعَك شيئان جميلان؛ فإنك تتحمس لهما؛ ثم لا تتأخر عن الاستمتاع بهما؛ أحدهما مدينة أكسبها موقعها الجغرافي ميزة وخاصية، وأخذت لها وصفا؛ أخذته حقا مستحقا لها، ونالت إعجاب الأقوام، وجذبتهم إلى بَحْرِيْها؛ البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلنتي، وطبيعتِها، ومواقعِها الأثرية، ومتاحِفها، وعمرانِها وعمارتِها؛ هذه هي عروسة الشمال (طنجة)؛ قَلّ من يتأملها كونها مدينة من عالم البحر الأبيض المتوسط؛ الذي يُستأنس بمدنه التاريخية، وتذكِّر حضارات شعوب بحرها القديمة (الفنيقيون؛ الإغريق؛ القرطاجيون؛ الرومان)، فإذا كان هذا الوصف يعني أنها مدينة في أقصى شمال بلاد المغرب، فهو ضيق، فهي بحق عروسة لشمال بلدان شمال إفريقيا، ولشمال القارة الإفريقية؛ ذلك وهذا أمر آخر؛ أنها لا تبعد عن يابسة القارة الأوروبية إلا بأربعة عشر كيلومترا، وثاني هذين الشيئين هو قطار؛ ليس كقطارات بلاد المغرب السابقة، سواء في شكله، أو في تخصيص سكة حديد له، أو في سرعته، وفي حاجة إليه؛ فرضتها شروط إقلاع، وتنمية اقتصادية؛ وهي بلوغ مستوى من السرعة؛ يصل إلى ثلاثمائة وعشرين كيلومترا في الساعة، وأُطلِق عليه اسم بالعربية؛ كما تجري بها العادة الآن في إطلاق أسماء لغة الضاد على العديد من المؤسسات ووسائل النقل، وغيرِها، فسُمّي بـِ(البُراق)، والسرعة هي الميزة المشتركة بين الدابّة (البُراق)، وبين أول قطار (بُراق) في المغرب؛ يربط بين (طنجة) و(الدارالبيضاء)، ويتميز به المغرب، فطنجة بالوصف الآنف الذكر؛ كانت بعيدة لمن تشتاق نفسه إلى شد الرِّحال إليها، وهذا بُراقُها قرّبها إليه، فكم من مبالغ مالية صُرفت لتسييره؟ فمد سكة حديد خاصة به؛ يوضح ضخامة المشروع وكلفتَه.

لم يسبق لي أن سافرت إلى طنجة، وأنا مشرف على نهاية العقد الخامس من عمري؛ كانت بعيدة في خيالي، وتتحدث نفسي بمشقة الذهاب إليها

بالحافلة، وتشعر بالخوف من السفر إليها؛ لأنه ليس لي أقارب يقيمون بها؛ ليُضيِّفوني ليلة أو ليلتين، أو أُساكِنهم مدة؛ تكفي لأعود منها إلى بيتي سالما، ومسرورا بالسياحة فيها.

في إحدى ليالي أواخر فصل الشتاء؛ تساءلت بيني وبين نفسي بغم وبحزن: «ألا يُكْتب لي أن أزور طنجة؟»، فأول ما فكرت فيه هو القطار (البراق)، ولم أحسب حسابا لمقابل ركوبه، فهو فرصة سانحة لي على السفر، وستسنح لي كلما أردت الركوب إليها؛ إنه لشعور ذاك الذي تحس به؛ إنه انتصار ساحق تُغبط عليه على الخوف من سفر كان يطول لبُعد المسافة، ومن مكان آوي إليه مرغما، وأبيت في بيت غريب عني، أو في غرفة في فندق؛ إذا كان هذا الأخير يُؤجّر غرفة فارغة في وقت من أوقات السنة، أو تُسدّ في وجهي أبواب الفنادق، لأن جميعها تكون قد احتضنت أمثالي من الوافدين الغرباء عن المدينة، ولم تتركهم يَقْبلون أيّ حال يكون عليه مَبيتهم.

فذلك كان القطار السريع، وكان انتصارا على الوقت؛ يُذكّرني هذا الذي كتبتُ بجملة قصيرة؛ تدل على معنى كما يرد في المعاجم وهي: «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك»، فمن قائلها بالمناسبة؟ يُروى أنها وردت عن ثالث الأئمة الأربعة؛ الإمام محمد بن إدريس الشافعي (767م- 820م)؛ حيث قال بأن مما تَعَلّم من صُحبته للصّوفية (العارفون بالتصوّف) قولَهم: «الوقت كالسيف؛ إن لم تقطعه قطعك»، وما يزال الإنسان يحاول أن يُخضِع الوقت بوسائل النقل المبتكرة، ومدة سفرنا نحن إلى طنجة لا تتعدى يوما واحدا؛ هذا -كما قلت- ما أتاحه لنا (براق) السكة الحديدية، والذي يجعل أيضا الوقت كافيا لذلك السفر؛ هو أن نستيقظ في وقت باكر من يومنا ذاك، وأن نستقل أول قطار بُرمِج وقتُه، وهو الساعة السابعة والنصف، ومن البيت إلى المحطة مسافة؛ فكان لا بد من الانطلاق بساعة قبل ذلك.

أراني أتكلم بصيغة الجمع، أو المثنى؛ ذلك أني اصطحبت ابني ذي السابعة عشرة؛ عملا بالمثل العربي: «خذ الرفيق قبل الطريق»، وكان صاحب رسول

الله صلى الله عليه وسلم؛ في هجرته من مكة إلى المدينة هو أبوبكر الصديق رضي الله عنه، وفي قوله تعالى؛ في سورة التوبة؛ الآية الأربعون: «إِذْ يَقول لصاحِبه لا تحزن إنّ الله معنا»؛ ما يَدْعم ذلك، وما يتأسّى به، لأن الرفيق يُستأنس به، ويُؤازِر الذي رافقه على قطع المسافة؛ خصوصا إذا طالت هذه، وحتى لا يكون الشخص وحيدا، فقد يجد قطاعُ الطرق في رحلته بمفرده فرصة سانحة؛ للسطو على ما يملكه من نقود معدنية أو أوراق مالية، أو متاع ذي قيمة مالية.

لم نحمل معنا ما يتطلبه السفر عادة؛ كحقيبة يد، أو التي تُشد إلى الكتفين، وتتدلى على الظهر، فما يملأ جيوبنا هي أوراقُ هويتنا، ونقودُ ورقية للتنقل بسيارة الأجرة داخل المدينة، لأن المدة -كما سبق الذكر- لا تتعدى يوما واحدا، وهذا ما لا نعتاد عليه، لأن قطار (البراق) غيّر من عادات سفرنا، فكل اختراع أو وسيلة جديدة تقْلِب حيوات الإنسان رأسا على عقب.

برحنا مسكننا في الساعة السادسة والنصف؛ بتوقيت المغرب، فكان ما يزال الظلام يلف دنيا حيث نوجد؛ الأزقة والشوارع والساحات؛ لا يُبدّده إلا قليلا من ضوء المصابيح، وقطعنا بالسيارة المسافة الفاصلة بين المدينة التي نسكنها، ومدينة (الرباط) التي قُرِّر أن تكون محطتها واحدة من محطات ركوب القطار السريع؛ في خط سكته الحديدية من (الدارالبيضاء) إلى (طنجة).

وبعد أن رَكَنّا مركبتنا في مكان آمن وقريب؛ قصدنا المحطة راجلين؛ كانت بنايتها تبدو مُضاءة، وعند اقترابنا منها، وفي تلك الساعة المبكرة والمظلمة؛ رأينا كثيرا من الناس يأخذ اتجاهه إليها؛ على أرصفة أسمنتية؛ تفصل بينها مساحات أُستُنبِتت بالعشب، وتحيط بها أشجار قصيرة ذات أوراق خضراء؛ مختلفة الأحجام والأشكال.

يمتد من أمام المحطة رصيف أسمنتي طويل وعريض؛ بدرجات متباعدة؛ بنافورة ماء مُسطّحة بزلّيج؛ إلى أن يرفعه طِوار عن إسفلت الشارع الكبير؛

الذي يسلكه عدد من السيارات والشاحنات في ذلك الوقت. في يمين المحطة الأسفل مطعم (ماكدونالد)، وفي يسارها مقهى، وبخطوات منها سيارة رجال الأمن؛ لونها أزرق غامق؛ موشومة بخطوط رمزية طبعا. يؤدي إلى طابقها العلوي؛ حيث مكاتب بيع التذاكر، وكشك بيع الصحف والمجلات والكتب، وكشكان لبيع الشوكولاطة والعطور، وكراس للجلوس عليها للانتظار، وأجهزة سحب النقود البنكية؛ أربعة سلاليم كهربائية؛ اثنان يصعدان بالقادمين إلى المحطة، واثنان يهبطان بالمغادرين لها، ونفس الشيء في الجهة الأخرى، لأن للمحطة بابان؛ واحد مفتوح في اتجاه الشرق؛ يلفظك إلى (أكَدال)؛ أحد أحياء المدينة الراقية، والآخر يرمي بك في اتجاه الغرب؛ إلى جانب من مقبرة لجثامين النصارى، وإلى شارع تسير فيه؛ إلى أن تُطِلّ على المحيط الأطلنتي وأمواجه الصاخبة.

دخلنا من باب واجهة زجاجية؛ ضاربة إلى أعلى؛ بارتفاع البناية، فصعد بنا أحد تلك السلالم الكهربائية بدرجاته المعدنية، بعد ابتياع التذكرتين؛ لم يُسمح لنا بالهبوط إلى الرصيف؛ إلا بعد أن يبقى على قدوم القطار عشرات الدقائق، ولما أُعطيت لنا إشارة بالتقدم، وإظهار التذاكر إلى المراقب؛ ليتثبَّت على أنها للقطار السريع؛ الذي سيدخل إلى المحطة في الوقت التالي، تنحى جانبا وتركنا نتقدم، هبط بنا سلم كهربائي آخر إلى الرصيف المخصص للقطار (البراق)، جاءنا عامل آخر ونظر في تذكرتينا، وأرشدنا بأن عربة رقمي مقعدينا ستتوقف بها القاطرة هناك، فسرنا قليلا، فالذي أدركته من كل هذا؛ إلى أي حد أن إدارة قطار (البراق) ذات نظام تسيير محكم.

قدم القطار السريع، فما أسرعه! وما أقوى هدير محركاته! فُتِحت لنا أبوابه أوتوماتيكيا، فصعدنا الدرجات، واتجهنا إلى مقعدينا، فلا بد أن يُطابق رقماهما رقمي التذكرتين، وقد تحققنا من ذلك؛ حتى لا نخل بنظام تسيير وسيلة النقل هذه العظيمة في عصرها، وفي بلدها، ثم أودعنا جذعينا وَثارَةَ الكرسيين، وطفقنا ننظر في كل قطعة رُكِّب بها داخل عربة القطار، والذي

أخذ باهتمامنا من شكل القطار وأدائه؛ هو شاشة رقمية تُبيّن عَدَّ السرعة التصاعدي، فأقصى سرعة تقافزت إليه الأعداد هو ثلاثمائة وعشرون كيلومترا في الساعة، فكنا نسمع صوت احتكاك الريح ببدن العربات المعدني، ولم تجذب أراضي سهل (الغرب) المغلالة نظرنا؛ بقدر ما كنا ننشرح لانطلاق القطار وزيادة سرعته، ثم نتحمس للمَقْصِف؛ هل أشعرنا بعربته المخصصة له أحد نطق بها في مكبر الصوت؟ أم تلقيناها بشيء آخر لم أعد أذكره، فكان أن دَرَجْنا إليها مجتازين العربات، وأنا أحس بأنه لا غنى عنه ذلك المقصف؛ في افتخارنا برحلتنا بالمطية السريعة، وكان النادل امرأة في سن الشباب؛ تقوم على خدمة المسافرين؛ تُلبّي ما يطلبونه لفطورهم؛ بحركات تمهّل في ذلك، ما اشتهته نفسي هو كوب حليب بالقهوة، وقطعة مما يُخبز هشّا هو أقرب إلى إسفنجة من عجين الدقيق يُقلى في الزيت، لا يتعدى تناوله أربع قضمات، حملنا هذا، والذي رأى فيه ابني فطورا يكفي له، وعُدنا إلى مقعدينا، ونحن نعرف أن أمام كل واحد منا لوح متحرك يُسحب؛ نضع عليه ما كنا نأكله، ويُطوى أو يُغمد كأنه لم يكن، بعد ذلك عدت إلى التدقيق في كل ما تتركب به العربة، ومن حين لآخر أرفع عيني إلى شاشة كيلومترات السرعة، لأرى ما إذا كان القطار يتجاوز الثلاثمائة والعشرين كيلومترا؛ إلى أن اقترب من محطة (طنجة)، فبدأ العد الإلكتروني ينزل، فلم يتجاوز إذن قطار (البراق) سرعته التي وصل إليها.

نزلنا من (البُراق) مع النازلين، فهذه آخر محطة في امتداد سكة الحديد إلى الشمال، وأول ما لاحظت هو العدد الكبير من الذين سافروا بالبراق، فالكثير إذن يُقبل على السفر به، فلم يُثن أحد منهم ثمنُ التذكرة المرتفع بالمقارنة مع أثمان القطارات الكلاسيكية، وسرنا مع المغادرين للمحطة، فجالت عيناي في مكاتب بيع تذاكر القطارات، ومكاتب شركات النقل البري، وأكشاك بيع البطاقات البريدية، وأشياء للذكرى وللزينة، وفي الكراسي التي احتضنت من ينتظر إقلاع القطارات. لم يكن تصميم محطة (طنجة) أقل فنية من محطة

(الرباط)، وما استرعى انتباهي لحظة خروجنا من المحطة هو الفنادق الضاربة إلى الأعلى ذات طوابق يتعدى عددها أربعة، وأول سؤال توجهت به إلى أحد سائقي سيارات الأجرة هو: «أما من أحد السائقين يُقلّنا إلى مغارة هرقل؟»؛ أجابني: « في هذا الوقت من السنة لن تجد من يؤوب بك، فالركوب إليها والعودة منها غير منتظم، وخير لك أن تؤجلها إلى موسم يكون في أيام صفاء الجو».

ولما لم يسنح لنا الظرف إلى القيام بذلك؛ استمررنا في خطونا في الاتجاه الذي ظهرت فيه صفحة ماء البحر، وسألنا أحدا عن مدينة (طنجة) العتيقة، فأشار بيده إلى بنايات تقوم على قمة تلة، فتابعنا سيرنا إليها مُترددين؛ بما إذا كانت أقدامنا ستتحمل السير إلى هناك.

كنا غرباء عن المدينة، ولا تتضح لنا مسالكها، ولا أحياؤها، ولا الأماكن التي تستحق زيارتها؛ هل فطن أحد إلى ارتباكاتنا؟ نعم؛ فقد توقف سائق بسيارة أجرة؛ كأنه يريد أن يقطع عنا طريقنا، فانتبهنا له خصوصا عندما ترجل، وجاء موجها كلامه إلينا؛ حيث قال: «أنا على استعداد بأن أحملكم في جولة؛ إلى أهم أماكن المدينة السياحية؛ بثمن يُرضيكما»، وزاد بأن يحمسنا إلى قبول خدمته بأن قال: «وسأتوجه بكما إلى مطاعم ميناء مراكب الصيد لتتغذيا على السمك الطازج إلى حد الشبع»، ثم نطق بالمقابل.

لم يُثنِنا عن قبول عرضه الثمن الذي طلبه، وإنما كنا لا ندري أي الأماكن التي سيتوجه بنا إليها، وما مدى أهميتها السياحية، وأحقيتها بالزيارة، وقررنا أن نتابع خطواتنا، إلا أنه بان لي أن نركب (طاكسي)، سألت أول سائق توقف لإشارتنا: «هل نجد مطاعم تُقدم وجبات غذاء بثمن يناسبنا في المدينة القديمة؟»؛ رد: «نعم»، وما يزال يصعد بنا التلة إلى أن توقف في ساحة تحيط بها الدكاكين، والمطاعم، والبيوت العتيقة، فنزلنا وتابعنا الصعود؛ إلى أن فوجئنا ببناء أمامنا عُلّقت على حائطه لوحة كُتب عليها: متحف (ابن بطوطة)، فكان هذا بُشرى لنا؛ إلا أن سعادتنا بذلك لم تدم طويلا؛ ذلك

أننا قرأنا بأنه مُغلق لترميمات تجري فيه، فضمنا زقاق يمتد بعده سِرنا فيه؛ إلى أن أشرفنا على ميناء رسو مراكب وقوارب الصيد، فرجعنا هابطين زقاقا بعد آخر؛ إلى أن لفظتنا البنايات القديمة إلى شارع يتفرع؛ يمينا حيث مسجد مُتقن التصميم، والميناء الذي لم تظهر لنا منه مرافقه، أو ما يُلحق به من مكاتب، ويسارا حيث مطاعم وجبات السمك؛ المحاذية لقوراب الصيد. لم نتابع استكشافنا أبعد من شاطئ تضرب صخوره أمواج البحر بعنف؛ في ذلك اليوم من فصل البرد والرياح، فرجعت بنا أقدامُنا؛ فهي التي تقودنا، لأننا لم نُعيّن من قبل الأماكن التي نريد أن نذهب إليها، بمعنى آخر لم نحدد برنامجا بناء على معلومات؛ نكون قد استقيناها من مصدر عن المدينة؛ أستمر فأقول: عندما عادت بنا أقدامنا؛ أحبت نفوسنا أن نمتع نظرنا في مراكب وقوارب الصيد والصيادين؛ كانت تلك راسية، وقليل من أولئِك كانوا على الرصيف، والدخول غير متاح، ولم ننظر إلى الميناء إلا من خلال عيون حاجز؛ مظفور سلكُها، فتحركت بنا مرة أخرى أقدامنا، ومررنا بين المطاعم، فلم نشم رائحة شيّ أو قلْي أو طهْي؛ ذلك أن العمال كانوا ما يزالون ينظفون المحلات، فغادرنا المكان إلى حين، وخطونا، وكان دكان صغير مرُكّب، وحافلة تقف أمامه مفاجأة لنا؛ ذلك أن فتاة الكشك زودتنا بمعلومات حول الحافلة الجميلة المظهر والنظيفة، فهي كما قالت تُقلنا مع السائحين؛ في أرجاء المدينة؛ إذا أردنا، وأعطتنا مَطوِيتيْن فيهما برنامجان لرحلتين بثمنين مختلفين؛ استعظمنا الفكرة، لكننا لم نشتر أيا من تذكرتي السياحة، لأنه لم يبق لنا من يومنا إلا وقتا نتغذى فيه، ونعود إلى محطة القطار، واكتفينا بأننا وعدنا نفسينا؛ بأن أول ما نفعله في السفر التالي إلى طنجة هو أن نحجز مقعدين في هذه الحافلة، أو أكثر؛ إذا ما زاد عدد أفراد الرحلة في مستقبل الأيام، وبعد هذا لم يبق لنا إلا أن نتناول غذاءنا، هل قوائمنا هي التي استجابت لرغبتنا أم بطنينا؛ قد يكون عَرْض سائق سيارة الأجرة هو الذي فتح لنا شهيتنا إلى السمك، ونبّهنا إلى مطاعم ميناء الصيد، فقصدنا هذه؛ كنا طبعا عائدين في نفس الطريق،

وكانت درجات ستهبط بنا إليها، فأسلمنا أقدامنا لها، وسمعنا كلمات الدعوة والترحاب من أكثر من عامل واحد؛ هل استجبنا إلى أحد منهم؛ أم سِرنا بين كراس وموائد ، وجلسنا على اثنين منها، أكان المطعم لواحد منهم أم لا؟ من طبعي لا ألبّي دعوة من يدعوني إلى مطعمه، بأن أختار واحدا تميل إليه نفسي؛ بعد أن أفحصه بعيني، ويظهر لي مدى جودة خدماته.

كان أول ما قُدّم لنا طبقان مملوءان عن آخرهما من الروبيان (القمرون)؛ ؛ وطبقان من الطماطم والبصل والخيار، فأكلنا ما احتوياه، وما تبين لي أن كمية ما هُيّء لنا هو غذاؤنا، فسألت ابني على ماذا اتفق مع مقدم الوجبات؛ أجابني بأنه قال له بأنه سيقدم لنا وجبة كافية من الأسماك، وفعلا فوجئت بطبقين آخرين يوضعان أمامنا، وبأكثر من أربعة أنواع من السمك، فأتيت على طبقي، أما ابني فلم يأكل إلا القليل، فدعوت أحد المنظفين فحمل الطبق الذي ما يزال ممتلأ وانتحى به مكانا غير بعيد، فقلت لآبني بأن هذا كثير، وسألته مرة أخرى: «فما ثمن ما قُدِّم لنا؟»، أجابني بكذا من النقود، فكان أقل ثمن نؤديه مقابل تلك الوجبة، وما لاحظت أيضا أن ما طُبخ لنا كان أنظف، فكان هذين ما سجلتهما عن عروسة الشمال، وكان سائق (الطاكسي) مُحقا فيما حاول إغراءنا به.

تكاد (طنجة) أن تكون فارغة؛ إلا من دائمي السكن فيها؛ في ذلك الوقت من السنة الذي سافرنا فيه إليها، وإلا لما كان أغلب كراسي الحافلة السياحية الجميلة فارغا، ولما لم يتغذ في مطعم الخير العميم إلا أنا وابني، ولم نر أحدا قادما إليها للأكل؛ إلا بعد زمن من جلوسنا؛ إذ أتى إليها فردان أو ثلاثة لا أذكر من كبار السن؛ كانت جميع المطاعم إلى حدود الساعة الواحدة نهارا خالية.

هل هناك وقت آخر يفد فيه إليها عدد كبير؛ هو تقليد في المدينة؟

إذن؛ هل يكون ما دفع ابني إلى الإسراع في مغادرة (طنجة)، واستبدال تذكرتي الإياب في ساعة موعد العودة بالقطار؛ كنا اخترناها؛ بتذكرتين

أخريتين وبموعد آخر وبثمنين زائدين؛ هو هدوء المدينة وكأنها نائمة في سكون؟

هل كانت طنجة تتعافى، أو في فترة نقاهة بعد مرض ألم بها؟ الذي يدعوني إلى قوله بعد هذا التساؤل؛ هو أن ركوبنا إليها كان في شهر فبراير من سنة 2021م؛ بعد 2019م و2020م؛ سنتا حجر جائحة (كورونا).

بعد عودتنا بالقطار (البراق) طبعا قبل مغيب شمس ذلك اليوم، وبعد خروجنا من محطة (الرباط) قلت لآبني: «لا يتطلب مني الذهاب إلى (طنجة) للتصييف في شاطئها؛ إلا قبعة حيكت بأوراق نبات الدوم الإبرية الشكل؛ تحمي رأسي من لفحات شمس الصيف الحارقة، وقميص قصير الأكمام، وسُرِيْوِل قصير الأكمام أيضا، وشِبْشِب لَدِينِي لقدمَي، وفوطة على أحد كتفي؛ مُستقلاّ (البراق)، وأعود، وقد سبحت في بحر (طنجة)، فوقتٌ من شروق شمس الصيف؛ إلى هبوطها كاف لتستمتع بذلك، والدور في ذلك يعود إلى القطار السريع».

سُرّ ابني بالفكرة، وراقت له، فابتسم، ونابت عيناه وملامح وجهه عن ما كان سيقوله بعد كلامي ذاك.

# (عَرْبَاوَة[62])
# مدينة الغاب والأودية والتلال

تكون قد قطعت أكثر من عشرين كيلومترا، وفي شهر من السنة هو (يناير)؛ قادِما من مدينة (سوق الأربعاء)؛ وسط سطح أرض؛ يتدرّج بك من سهل (الغرب) المنبسط؛ إلى تلال تبدو هنالك بعيدا تزداد ارتفاعا، فيضُمّك امتداد الطريق؛ على جانبيه أشجار كثيفة، وما بعدها سفوح تلال؛ مبذورة بالحبوب، أو مغروسة بأشجار التين والزيتون، وعلى تلة هي الأعلى؛ وهي أول ما يُصادفك في علوها؛ بُنيت عليها بيوت، ومحلات، ومرافق عمومية، أو خصوصية حديثة، ومساجد، وصومعات؛ هي مدينة (عرباوة)، ولها طريقان ثانويان يتفرّعان إليها، واحد من هذا الطريق الوطني الذي تسلكه من الجنوب؛ يمر على قنطرة قديمة؛ تحتها سكة حديد، وعبرها تتجه إلى المدينة، وعلى يمينك تظهر محطة القطار، والآخر قادم من شمال (عرباوة) من مدينة (القصر الكبير)؛ فإنه يتفرع بك إلى اليمين؛ طريق ثانوي آخر يصعد مُلتويا تلّة (عرباوة)، والأشجار القصيرة والعالية تحيط بك من كل جانب؛ بحفاوة طبيعية؛ لم يسبق أن أحسست بها بنوع من سعادة.

فالمدينة إذن مُقامة على تلّة كما أسلفنا، وتحيط بها تلال مختلفة الارتفاعات، وغابات من أشجار، كشجر (الأوكاليبتوس)، وأنواع أخرى تحتاج إلى تحديدها، وتتخللها بساتين مُستنبة بأشجار التين والزيتون، ومغروسات أخرى، وفي عمق سفح تلّة المدينة تلك واد لا تجري فيه مياه؛ أمكنة منه مبنية بالبيوت؛ إنه منظر طبيعي أخّاذ، ومن تشييدات الإنسان؛ تتفرد به (عرباوة)، فعلى القمم المساكن، وأبنية إدارية، وعلى السفوح الدنيا بجانب الطريق مقاه؛ أحدها ترتقي إليه درجات؛ ينعزل بعضها عن بعض،

[62] مدينة صغيرة تقع إلى الشمال الشرقي من العاصمة (الرباط) بمسافة 166 كلم؛ يبلغ عدد سكانها حسب إحصاء 2004؛ 2333 ساكن.

وتمتد أمامها مساحات تَرِبة؛ تكون موقفا للمركبات العائلية، وأخرى للمسافرين، وأيضا للبضائع، وأخرى يَنبُت العُشب فيها؛ تسطع عليها أشعة شمس سماء صافية، فتُغري بالانتحاء إليها بكراس وموائد، وفي أدنى مستوى من الوادي عين هي الوحيدة في المدينة؛ سُمّيت بِـ(عين لابَرْوال)، فمِمّا استمد اسمها هذا؟ ولنخاطب عين (لابروال) الدائمة الجريان؛ خطاب سؤال هو: ألولاك يا عين (لابروال) لما وُجدت (عرباوة)؟ وسؤالنا هذا؛ أهو صحيح بهذه الصيغة؟

جُلت في المدينة بمعرفتي بأدوات التأريخ، فتصميم البنايات، ومواد بناءاتها، وآثار القِدم عليها؛ يُعطيك فكرة عن أي من البنايات القديمة والحديثة، ولأي غرض أقيم إحداها أو وظيفة، فالأبنية التي بدت لي مشققة المِلاط الطيني

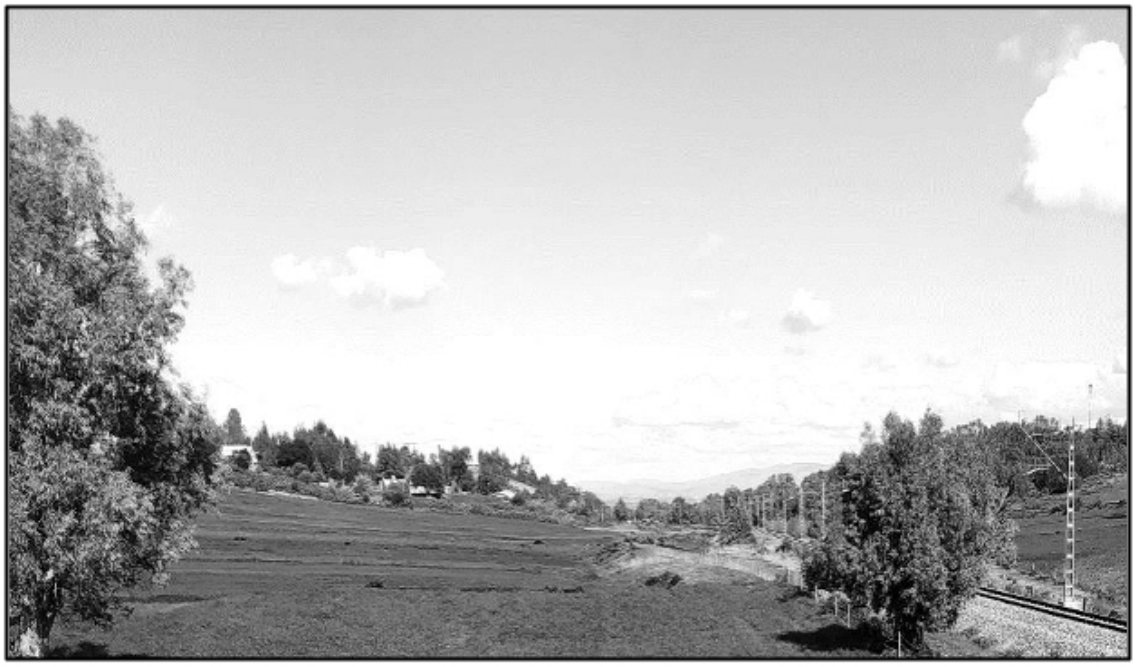

تبدو بنايات عرباوة على قمة تلة؛ في أسفلها تمتد سكة الحديد (بعدسة المؤلف).

أو الأَسْمنتي، فتظهر لبناتُها الحجرية المنجورة، أو الآجورية، وسقوفها من القرميد الأحمر؛ هي لسُكنى حامية عسكرية، أو لإدارة مهام الجنود أو شؤونهم الإدارية؛ أهي الأقدم إذن؟ أهي نواة توسع المدينة؟ لنعرف أن في الطريق الرابطة بين مدينة (عرباوة) ومدينة (القصر الكبير)؛ مقر الجمارك

مهجور؛ مُكسّر دفات النوافذ الزجاجية؛ كان عبورا بين منطقة الشمال الخليفية، التي كانت تحت الحماية الإسبانية؛ إلى المنطقة السلطانية؛ التي كانت تحت الحماية الفرنسية، الأغلب هو ما تم السؤال فيه.

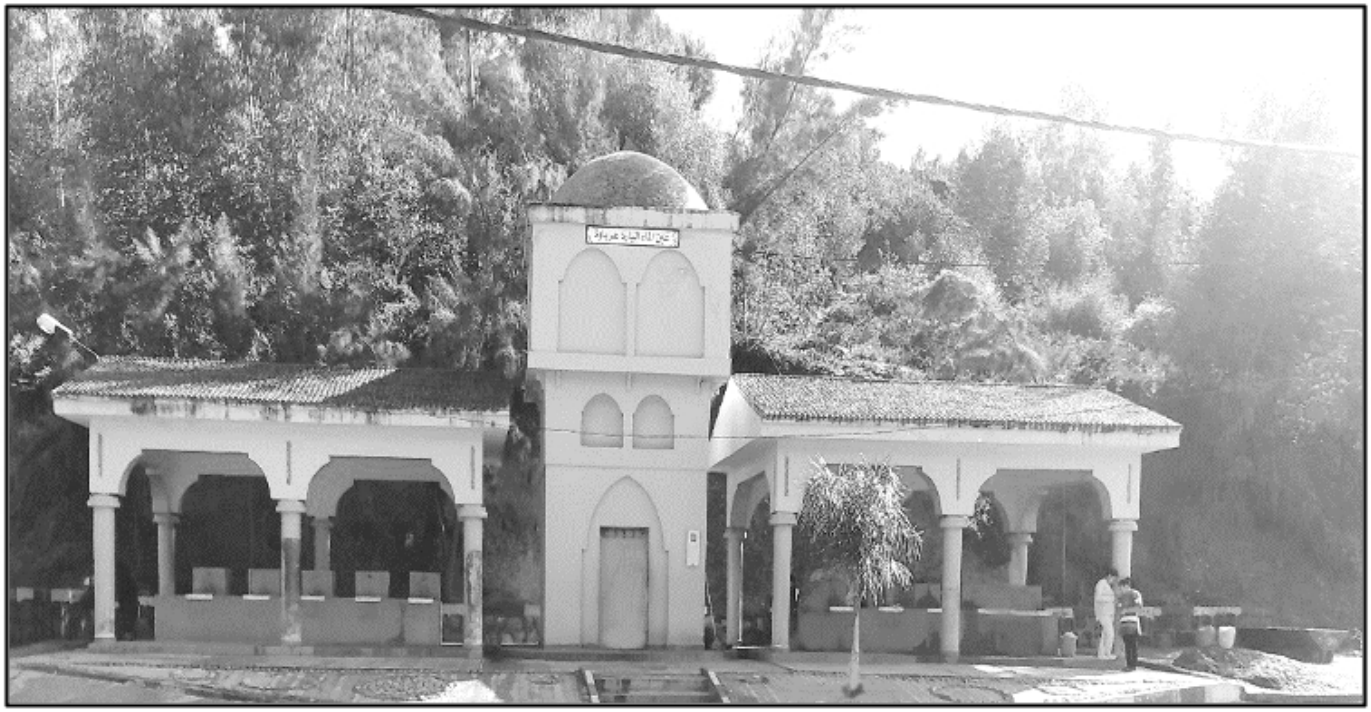

عين عرباوة (لابروال)
(بعدسة المؤلف)

بنايات الحامية العسكرية هذه من معالم المدينة المعمارية؛ قد تكون تأريخا لبداية المدينة، وخزان ماء قديم أسمنتي في جانب من (سوق الثلاثاء) الأسبوعي؛ مطلي بصباغة أو جير أحمر اللون، وما عجبت له، ولا يوجد مثله إلا في (الرباط) العاصمة؛ فرضه الشكل التضاريسي لوادي (أبو رقراق)؛ الذي يصب نهره في المحيط (الأطلنتي)؛ بين العدوتين (الرباط وسلا)، وفي الغرب من مدينة (تازة)؛ على بعد حوالي ستة عشر كيلومترا؛ في (الرباط) حُفر نفق تحت الهضبة التي توسعت عليها العاصمة؛ لمد سكة الحديد؛ الآتية من الجنوب؛ من (مراكش) و(الدارالبيضاء)، وتلك التي تتجه إلى الشرق إلى مدن (مكناس) و(فاس) و(تازة) و(وجدة)، وإلى الشمال؛ إلى (طنجة)، وغير بعيد عن (تازة) حُفر مثله، وفي (عرباوة) حُفر نفق في تلة المدينة؛ لمد

سكة الحديد؛ القادمة من (سوق الأربعاء)، والمتجهة إلى مدينة (القصر الكبير)، فهو معلمة من تلك المعالم؛ أضفى على المدينة مشهدا كأنه خرافي، وأنت في بيتك؛ بين الجدران، وفي سكون الليل؛ تسمع ضربات عجلات القاطرة وعرباتها في قضبان سكة الحديد الرتيب؛ يرحل بخيالك هنالك؛ إلى تلك المدينة البعيدة، أو التي الأبعد منها.

ومن تلك المعالم أيضا، والتي تزيد من اهتمامك هي محطة القطار؛ توجد خارج المدينة؛ بمسافة مئات الأمتار؛ سواء من ناحية تصميم بناياتها، فهو من طراز قديم، أو من ناحية سكة الحديد متفرعة؛ لآنتظار القطارات بعضها البعض، أو لتبديل القاطرات والعربات، والذي يدفعك إلى البحث عن المزيد من المعلومات عنه؛ هو مبنى مُهدمة بعض حيطانه، ومقتلعة نوافذه،

محطة قطار عرباوة
(بعدسة المؤلف).

وما يزال القرميد الأحمر يزين سقوف غرف طوابقه؛ تقرأ على واجهته اسما له؛ هو (فندق طريق فرنسا؛ Hôtel de la route de la France)؛ ما أمتع قضاء أيام فيه! تُشرف بك نوافذه على منظر بانورامي؛ يمتد إلى سطح سهل الغرب، وإلى تلال مقدمة سلسلة جبال الريف؛ للأسف هو الآن أقرب إلى أطلال، ومكتوبة عليه كلمة وبخط عربي رديء؛ تكتئب له النفوس هي (للبيع)، فما يباع منه هو بقعة الأرض المشيد عليها، فمنذ متى أقيم؟ أتُؤرّخ

به بداية المدينة؟ أيُعبّر عن مشروع سياحي سابق لأوانه دُشّن في (عرباوة)، في عمق الوادي، وبجانب الطريق الوطنية؛ مجمع سياحي خاص حديث البناء؛ أهو بداية موفقة لسياحة داخلية وخارجية نشِطة في المغرب؟

إذا كان الشكل التضاريسي عادة ما يجذب إليه استقرار الإنسان؛ فإن (عرباوة) ظهرت على رابية، وما بعدها إلى الجنوب تنخفض الأرض؛ إلى أدنى مستوى ارتفاع من سهل الغرب، سَهُل فيه مد الطرق المؤدية إلى مدن الساحل (الأطلنتي)، وإلى مدن الوسط والشرق، وفي ظاهر المدينة دواوير؛ هي ما يُصطلح عليه في جغرافية المجال بـِ (التّوابع؛ Satellites)؛ تستمد ازدهارها وتوسعها من مدينة (عرباوة) المركز الحضري، وتسيير شؤونها المحلية؛ تربطها بها طرق ثانوية ضيقة؛ لا تتسع لمرور مركبتين مختلفتي الاتجاه، ولكنها تُخرِج هذه الدواوير من عزلتها ومن محنتها؛ خُصصت المنخفضات لبناء بيوتها ومساجدها، والسفوح والقمم للزراعات؛ تخترقها مسارب تؤدي إليها مشيا عليها بالأقدام، أو ركوبا على ظهور الدواب. في شهر دجنبر؛ بعد هطول أمطار فصل الشتاء؛ ترى الفلاحين من سكان الدواوير يمتطون بغالا قوية، الدواب المؤهلة للضرب بحوافرها في الحادور؛ لصعود السفوح والوصول إلى القمم، وفي أوعية مزدوجة تتدلى على جانبي الدابة؛ مضفورة من أوراق الدوم المجففة؛ يحملون محاريثا؛ فرض شكل صناعتها على حدادي (عرباوة) حاجة الفلاحين إليها؛ في فلح الأراضي؛ لأجل زرعها ببذور البازلاّء (جلبانة) والفاصوليا والحمص؛ فهذا نشاط فلاحي يغلب في موسم من السنة، وهذا محراث حديدي؛ يختلف عن المحاريث؛ أو متطور عنها لحاجة خاصة؛ هو أداة لفلح التربة.

على جانب إحدى الطرق المؤدية إلى أحد الدواوير؛ لا يبعد إلا بثلاثة كيلومترات تقريبا؛ بحيرة تكونت من ماء المطر الذي يجري في الأودية من عالية التلال، فهي موسمية؛ تسبح فيها طيور مهاجرة، وتجف في فصل الحار؛ تزيد من جمال طبيعة المنطقة في فصلي الشتاء والربيع؛ تستهوي البعض في

وقت انفراج السماء من الغيوم الممطرة، فيقصد ضفتها؛ فيجلس على كرسي مريح، واضعا أمامه مائدة تستوي أرجلها المتحركة؛ مُستقبلة صحونا من أكل لذيذ، وأكواب من قهوة محضرة من حبوب بُنّ برازيلية مُحمصة، أو شاي مُنعنع مُستساغ.

(عرباوة)؛ ما أجمل موقعها الجغرافي! وما أروع تلتها المشرفة! وما أكثر أشجارها وعُشبها خضرة! وما أطيب سكونها، وهدوءها! ومن أهم ما اكتشفتُه فيها هو ما دلت عليه اللوحات التي تشير إلى اتجاهات عدة مدن،

بحيرة عرباوة الشتوية
(بعدسة المؤلف).

وعدد كيلومترات مسافة الطرق المتجهة إليها، فـ(عرباوة) أمثل مكان تقيم فيه لتستمتع بهدوئه وجمال طبيعته، ومنه تتجه إلى تلك المدن، ولا تتطلب منك المسافات إلا يوما، أو نصف يوم، أو أقل؛ ما بين أربعين كيلومترا، وأقل من مائتي كيلومترا؛ شمالا إلى (القصر الكبير) و(تطوان) و(طنجة)، وإلى الشرق إلى (وزان) و(شفشاون)، وإلى الغرب إلى (العرائش) و(أصيلا)، وإلى الجنوب والجنوب الغربي إلى (سوق الأربعاء) و(سيدي قاسم) و(القنيطرة) و(الرباط) وإلى الجنوب الشرقي إلى (مكناس) و(فاس).

# رحلة إلى مدينة (شفشاون)

هل لمدينة شفشاون شبيه؟

وإذ أجيب، فأقول: لا، ثم أُبيّن لماذا كانت إجابتي نفيا؛ بأن أكون قد تساءلت بيني وبين نفسي: «في أي اتجاه من الاتجاهات الجغرافية توجد مدينة شفشاون المغربية، وأي طريق ممهد من الطرق يوصلك إليها؟»، فأتخيل أحدا ينطق في أذني إجابة عن ذَينِك السؤالين، فيقول: «لن تطرق أبواب مدينة الجبل تلك إلا أن تجتاز أودية عميقة، وسفوح جبال وعرة، وقممها صخرية عالية تنحبس لها أنفاسك، وإن اخترقها -وبصعوبة بالغة- ممر أسفلتي ممتد، وعريض إلى حد ما، إذ لم تستسلم له تلك الأشكال التضاريسية، ذلك أنها فرضت عليه منعرجات ومنحدرات قاتلة، فالسائق كله حذر، والسيارة كلها قطع فولاذية تتمفصل، وصفائح أسطوانات تكبح العجلات المنتفلتة بجنون، والذي لا يُجادَل فيه هو أن -ولسرعة قطع المسافة، وللحظة يفاجئك فيها انعراج ضيق؛ بزاوية خمسة وأربعين درجة- لا بد أن يُنجّي أرواح من يركبون العربة؛ الكُلُ التالي: اليد اليسرى القابضة بالمقود، واليد اليمنى الماسكة بناقل درجات السرعة، والرِّجل اليسرى التي تتولى دواسة أسطوانة تبديل درجات المحرك، والرِّجل اليمنى التي فُوّضت لها دواسة الوقود ودواسة المكابح، ولا مفر من أن تجد الرهبة سبيلها إلى القلوب غير المعتادة على هذه البيئة، فتغدو الطريق همّا وليست سياحة، فقد يتخيل حينئذ أحد من الناس؛ ممن له اطلاع على تجارب أمم أخرى؛ في طرق التفكير والابتكار، وتنفيذ مشاريع هي حل لكل إشكال أو معضلة؛ صورةَ تثنية طريق؛ بأربعة مسالك؛ كل مسلكين في اتجاه؛ مُعلقة تلك الطريق في الجو؛ ترفعُها ساريات عملاقة؛ ضاربة بأساساتها في ضفاف الأودية والسفوح، تنأى بها عن التضرُّس الوعر، والخطِر، وتقليل للوقت، أو مدِ أرصفة عائمة؛ على بحيرة سد تلي قريب من المدينة؛ ترسو

عليها طائرات مائية، أو تُقلع منها؛ ذات طوافات تنساب بها على الماء، وهذا يتطلب تمويلا كبير المبلغ، وعائدات تغطي النفقات.

سواء قصدت شفشاون من الشمال والشمال الغربي، أو من الجنوب والجنوب الشرقي، فالمنعرجات والمنحدرات هي؛ هي؛ تستوجب من السائق ما قيل سلفا؛ يربطها ذلك الطريق بمدن الشمال الغربي من البلاد؛ كطنجة والقصر الصغير وسبتة المحتلة والفنيدق وتطوان وأصيلا...، وبمدن الجنوب الشرقي؛ كوزان والقصر الكبير وعرباوة ومكناس وفاس وسوق الأربعاء الغرب ومشرع بلقصيري...، وكم من ممرات هي مخلوط من الحصى والقارّ تؤدي إليها، وتختلف في مدى صلاحيتها، فيظل الطريق الذي يربطها بمدينة وزان ومدينة تطوان هو الأنسب، وتجري فيها أشغال تصير بها مزدوجا؛ في كلي الممرين مسلكان يُوجزان وقت قطع المسافة، ويُتيحان التجاوز الذي كان فيه مخاطرة في الطريق ذي الخطوط المتصلة؛ التي لا تسمح بالتجاوز، والخطوط المتقطعة التي تسمح بذلك، وقليل من السائقين في هذا الوطن من يمتثل لقانون السير؛ ولعلامات المرور المقننة المتعارف عليها دوليا؛ منهم من يجهلها، وحسبه أنه يجيد إدارة المقود والدوس برجليه على المُسرّع والكابح، ومنهم من يجهلها أو يتجاهلها، والجميع لا يعلم بأن الطريق قد تسحقهم إذا اعتدّوا بأنفسهم، وسولت لهم أنفسهم أن يتمردوا عليها.

كان لهذه الرحلة بالسيارة نقطة وصول طبعا؛ هي شفشاون، ونقطة انطلاق هي مدينة (عرباوة)؛ كانت هذه الأخيرة محطة بعد المرحلة الأولى من هذا السفر من إحدى مدن ساحل المحيط الأطلنتي؛ كانت أيام شد الرحال إلى شفشاون هي الأخيرة من شهر يونيو، وكان الوقت صباحا؛ معتدل الطقس؛ ما تزال قطرات من المطر تنزل خفيفة من حين لآخر، وما يزال المزارعون ينقلون أكوام الحصاد والحصيدة إلى المخازن؛ على ظهور الحمير والبغال وعربات الدواب، وما تزال الحاصدات والدّرّاسات تطُفن في تلك الجهة الفلاحية، ممتشقات أمواس جز السنابل الناضجة المصفرة والدّرّاسات. تُسمع

من حين لآخر من البساتين والحقول شقشقات العصافير، وهديل القُمْري، ونعيق الطيور، وصهيل الأحصنة، ونباح الكلاب، ونهيق الحُمُر؛ قليلا ما ينقل السائق عينيه في مناظر الأرض الطبيعية الرائعة تمتعا، وهو يُمعن نظره في علامات تحديد السرعة والانعطافات، ويدقق في مؤشر السرعة؛ آخذا حذره من أن تقنصه عدسة منظار تجاوز السرعة؛ يكون أحد ممن يلاحقون المخالفين يُصوبه في اتجاهه، وكانت رفيقتي في السفر الدنيوي؛ تُنبهني من حين لآخر من كل ذلك.

لم نعرف للأشجار البرية النابتة في الأودية والسفوح والقمم أسماء؛ إلا المغروس منها كشجرة الزيتون، والمنطقة مشهورة بها، فلا غرو أن نقرأ من وقت لآخر لوحات كُتبت عليها جملة واحدة هي: مَعْصَرة (فلان) للزيتون، وقد وصل ثمن الليتر الواحد من زيت الزيتون في ذلك الشهر مائة وخمسين درهما، وما عُرضت ثماره على جانب الطريق كالتين أخضر اللون والبرقوق. والذي يرفع عنك جزع الطريق، ويجعلك تسترجع أنفاسك وارتياحك؛ هو عروش من الحشائش الجافة ذات ظل نُصِبت للتوقف لشاي أو قهوة، وقناطر يجري أسفلها ماء قليل الصبيب، وأنهار، وبنايات قرى، وصومعات ومساجد، وأماكن لأسواق أسبوعية، ومحطات وقود المركبات، وأيضا، وما يثير فيك الحنين والشوق، ويوقظ فيك فطرة الإيمان بالله عز وجل؛ هو ما قرأناه في لوحة توجيه مستطيلة الشكل؛ بأن في ذلك الاتجاه مدرسة للتعليم العتيق؛ فما أمتع ذلك المكان الذي بُنيت فيه حُجراتها وغرفُها وأروقتُها وممراتها! وما أصلح لطلبتها، وأنسب لهم لحفظ القرآن وتعلم علومه! فهي بعيدة كل البعد عن ضوضاء المدن وصخبها وفتنتها، فلتلك المناظر الطبيعية الخلابة المحيطة بها، والهدوء والسكون؛ حافز على حفظ آيات الكتاب المسطور عن ظهر قلب واستظهاره، وتأمل كتاب الله المنظور، والتفكر في عظمة الخالق، وما يُصادفك، ويجعلك ترجع بتفكيرك إلى فترة زمنية تاريخية؛ تغطي النصف الأول من القرن العشرين، فأوجز عنه معلومات قائلا بأنه مقر الجمارك مهجور؛

يعود تاريخ نشاطه عندما كان المغرب مُقسما بين منطقة الشمال (الخليفية)؛ التي كانت قد احتلتها إسبانيا في سياق التنافس الإمبريالي في العقد الثاني من القرن العشرين، وفي إطار توافقات ومعاهدات بين الدول الأوروبية الاستعمارية المعروفة، ومنطقة الوسط (السلطانية)؛ كانت قد احتلتها فرنسا كذلك بذلك المنحى السياسي العام، فكانت مهمة تلك البناية هي مراقبة المتنقلين بين المنطقتين وما يحملون، وظل حيث هو معلمة تاريخية شاهدة، هذا عدا لوحات اتجاهات المدن المنصوبة في التقاءات الطرق، وعدد كيلومترات الطرق الموصلة إليها.

ضاربة هي أسوار ومساجد وصومعات وبيوت ومرافق شفشاون في سفح الجبل! ترى سور حماية المدينة القديمة من المغيرين؛ يتسلق الجبل إلى أن يحيط بها، ولم يحُل بين الإنسان وبين الاستقرار في ذلك المكان انحدار الكثلتين الصخريتين الحاد، فالسؤال إذن: ما هو العامل الرئيس في جذب من بنى حيطان شؤونه وحاجاته في ذلك المنحدر؟ في ميمنة المدينة عين ماؤها دائم الجريان؛ يُسمع له خرير قوي؛ اسمها (رأس الماء)؛ أهي التي كانت مورد ماء لا ينضب للشرب، وتصبين الملابس، والغُسل، وغسل جِزز صوف الشياه، وخلط مكونات الصناعة؟ نعم؛ فإلى النبع الذي لا يجف يستكين الإنسان، ويأمن على نفسه؛ منذ متى؟ منذ أن تردد عليه الإنسان في تَرحاله في أزمنة غابرة، ثم في عصور استقراره؛ قال لي أحد يبيع في أحد محلات شفشاون

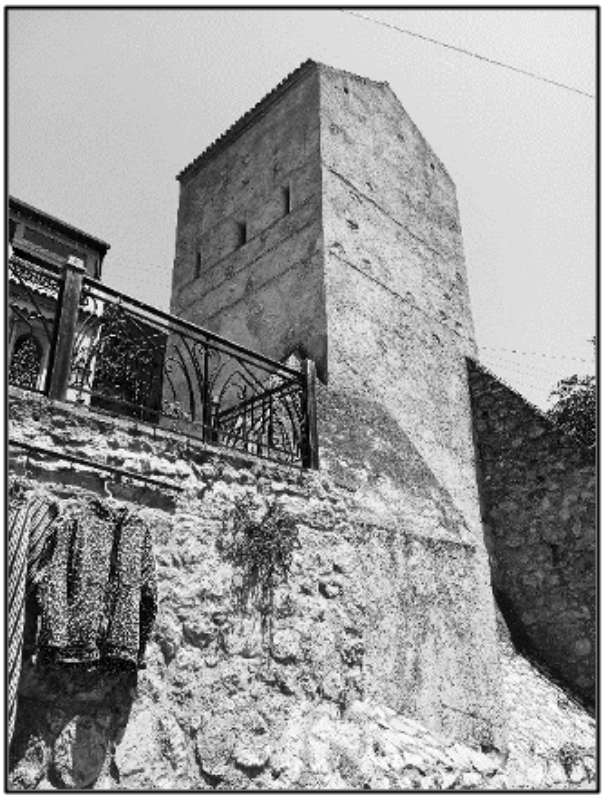

أحد أبراج مدينة شفشاون القديمة (بعدسة المؤلف)

التجارية الأثواب والألبسة الجاهزة؛ بأن أول حرفة عُرفت بها شفشاون هي النسيج؛ فالصوف المغزول والنيلة، وغمسهما في ماء (رأس الماء) يُعطيان للخِرقة المنسوجةِ خيوطها الصوفية ألوانا زاهية تُبهر العين، وأيضا العزف، وهذا الأخير يتخذ من أوراق الدوم المجففة، وعيدان القصب؛ مادة لصناعة السِّلال وحقائب اليد والقبعات وبُسط للصلاة والقيلولة، وعُلب لآحتواء الأشياء الدقيقة.

ولهذا العمران الذي توسع –سواء بمدينته القديمة أو الحديثة– على السفوح، أو في الوادي، أو في السفوح المقابلة؛ حيث شُيدت على هذه الأخيرة طُرق واسعة ومنازل عصرية؛ اسم هو (شفشاون)، فماذا يعني؟ وهل كان للمدينة أسماء أخرى سابقة؟

درب القاضي بن ميمون؛ أحد دروب مدينة شفشاون العتيقة. (بعدسة المؤلف).

كنت قد سلكت أحد زقاق مدينة شفشان القديمة لاستكشاف ما تحتويه من بناء وناس ومعروضات تجارية، فوجدت مكتبة لبيع الكتب اسمها (مكتبة القاضي بن ميمون)؛ جلست إلى صاحبها، فإذا هو من أسرة أندلسية عريقة، وكان أستاذا بمعهد الموسيقى، وينظم الشعر، ومؤلف كتاب؛ عنوانه: (شفشاون لؤلؤة الشمال)؛ أصدره في سنة 2011م؛ اسمه عبد الخالق بن ميمون؛ من المنحدرين من القاضي بن ميمون؛ المعروف بـ(علي بن ميمون الغماري) سيأتي الكلام عنه في ذكر أعلام

شفشاون، فأمدني مالك المكتبة هذا بمعلومات تاريخية، فمما قال بأن للمدينة ثلاثة أسماء؛ الأول (أيْنُوم) وهو اسم روماني، ووجود قنطرة رومانية في (الصبانين) أحد الأحياء القديمة؛ هما دليل على أن رومان العصر القديم استقروا كذلك بالمنطقة، والثاني (مدينة الثعبان)؛ سُميت المدينة بذلك للأحجار الصخرية والغابات الكثيفة الأشجار والنباتات الموجودة بالمكان، والثالث (الشاون)، وهي كلمة بربرية تعني (القرن)؛ قرن تيس أو قرن كبش؛ لشبيه رأسي جبل شفشاون بقَرْنين، ثم أضيف إليها فعل الأمر الدارج في التداول العامّي(شُفْ) أي (أُنظر)؛ في المصادر التاريخية في عهد المغفور له الحسن الثاني، فغدت اسما مركبا من (شُف) و(شاون) أي شفشاون، ومعناها (أُنظر إلى قمم الجبال).

من هو الذي حل بالمكان وأسس نواة توسع عمران شفشاون بالهيئة التي تظهر عليها الآن؟

يقول الأستاذ عبد الخالق بن ميمون بأن المؤسس الحقيقي للمدينة هو (الحسن بن محمد) الذي عُرف بـِ(أبي جُمُعة)؛ ينحدر أصله من الشيخ الصوفي عبد السلام بن مشيش (1163م –1228م)؛ من ابن له اسمه (علال)، وقد ورد البعض من هذا الذي ذُكر في كتاب (وصف إفريقيا) الذائع اسم مؤلفه بالليون الإفريقي، وهو الحسن بن محمد الوزان (1488م –1554م)؛ بيد أن البعض يكتب نقلا عن آخرين؛ أن الذي أسس المدينة هو (أبو الحسن علي بن راشد العلمي؛ 1440م –1512م)؛ كان ذلك في عام 1471م، والذي يرفع هذا الاختلاف هو عدوتا نهر عين (رأس الماء)، في العدوة اليمنى كان الأول الذي أقام فيها هو الحسن أبو جمعة، وفي العدوة اليسرى كان من أنشأ القصبة بها هو ابن عمه الأمير أبو الحسن علي بن راشد، لذا كان الأول هو السابق؛ فهو المؤسس الحقيقي للمدينة؛ كان للثاني وهو علي بن راشد ثلاثة أبناء ذُكِروا عند الحديث عن إمارة الرواشد على شفشاون؛ هم ابراهيم ومحمد، وعائشة التي عُرفت فيما بعد بالسيدة الحرة (1485م –1561م)؛ تزوجها

أحد من سلالة حكمت مدينة تطوان حملت اسم (المنظري)؛ يختلف البعض فيمن يكون؛ هل سيدي علي المنظري الأول (1440م –1540م)، أم المنظري الثاني؟ بوفاة زوج الست الحرة هذا؛ الذي انجبت معه فقط أنثى اسمها فاطمة، وزواجها من سلطان المغرب في عهد الدولة الوطاسية أبو العباس الوطاسي (؟ –1549م)، أصبحت آمرة على تطوان، لتُصبح نموذج امرأة حاكمة؛ أصل أمها اسبانية أسلمت بعد زواجها من والدها علي بن راشد؛ فسُمّيت بلالا زهرة، هل تبعية المنظريين أصحاب تطوان إلى والدها، ثم أصلها الشريف من جهة عبد السلام من مشيش، وزواجها من سلطان المغرب الوطاسي؛ هو الذي منحها هذه الحظوة في حكم تطوان؟ فتصدت (الست الحرة) هذه للأيبرين (الإسبان والبرتغال) بالنشاط العسكري البحري الذي كان قد ساد في حوض البحر الأبيض المتوسط؛ بعد أن دفع مسيحيو شبه الجزيرة الأيبيرية المسلمينَ إلى مغادرة بلاد الأندلس؛ بشتى الطرق والوسائل المتاحة؛ في إطار حروب استرداد بلاد الأندلس، واحتلال ثغور في ضفة البحر المتوسط الجنوبية، وصدها لهجومهم على بعض مدن شمال المغرب الغربي، وهو (الجهاد البحري)، الذي يُوصف بحق بهذه الجملة، وليس بكلمة (القَرْصنة) المشينة، ولعل هذه من صياغة أقوام ضفة البحر المتوسط الشمالية المسيحية، وقد جاء ذلك على لسان الجهادي البحري (عروج ريس) أخو (خير الدين بربروس ريس)؛ حينما قبض على أمير مدينة (تنس)[63]، وهو ابن أخ سلطان تلمسان (أبو حمو الثالث) من البيت الزياني، وكان مُمالئا للإسبان، وقال له: «مالك أيها السافل! إن ما فعلته لم يجرؤ أحد من قبلك على فعله، ولن أُعير اهتماما بما تُشيعه عني من أني قرصان؛ لا همّ لي إلا قَطْع الطريق في عُرض البحر. أيها الملعون، يا من جعلت نفسك عبدا لسيدك ملك إسبانيا. ألم تعلم أن مَلِكَك هذا قد أعمل السيف في رقاب مئات الآلاف من مسلمي

[63] تقع هذه المدينة على بعد مائتي كيلومتر غرب العاصمة (الجزائر).

الأندلس؟!! نحن لسنا قراصنة؛ بل مجاهدون نقاتل في سبيل الله ولله الحمد»؛ ثم ضرب عنقه[64].

كان للسيدة الحرة عسكر بحري يغير بأسطول من المراكب على سفن المسيحيين التجارية في البحر المتوسط، ويعود بغنائم تغدو بها تطوان موسرة، وتُوفر للفقراء ما يجعلهم لا يُلحِفون في السؤال، ويقال أنها تحالفت مع خير الدين بربروس؛ أقوى جهادي بحري سواء في شرق أو في غرب حوض البحر الأبيض المتوسط؛ في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي؛ إلى جانب أخيه عروج ريس، ويُعرفان معا بـ(الأخوين بربروس)، وهو الذي كانت إغارته على سواحل إسبانيا وصقلية وإيطاليا؛ إلا عمليات يقوم بها وهو في إحدى رحلاته البحرية إلى أراضي الأناضول؛ لزيارة السلطان العثماني. ولم يكن من سيخلع الست الحرة من حكمها إلا آل المنظري، فهذا (محمد الحسن) حفيد حاكم تطوان يعلن نفسه حاكما على تطوان، ومستقلا عن الوطاسيين؛ بعد فراره من أحمد الوطاسي، متآمرا في ذلك مع والده وأهل تطوان، فتعود السيدة الحرة إلى شفشاون، لتودي بها المنية عام 1561م، وتُدفن بها.

أحد أبواب مدينة شفشاون القديمة
(بعدسة المؤلف)

[64] وردت هذه الفقرة في كتاب (مذكرات خير الدين بربروس)؛ ترجمة عن التركية محمد دراج؛ صدرت عن دار نشر (وسم للمعرفة والثقافة) باسطنبول؛ سنة 2021م.

لقد كان كل من والد السيدة الحرة علي بن راشد باني قصبة شفشاون وأمير المدينة، وسيد علي بن المنظري حاكم تطوان ومُعمّرها، قد جازا مياه البحر المتوسط إلى الشمال الغربي لبلاد المغرب؛ كما عبره قبلهما وبعدهما غرناطيو تطوان واليهود وعائلات أندلسية أخرى، يصدان هجوم البرتغالين والإسبانيين عن مدن الشمال بما يُسعفهم، ويراودهم ربما حلم استرجاع بلاد الأندلس؛ الفردوس المفقود كما يعبر عنه، لذلك سواء حكم تطوان رجل أو امرأة في ذلك التاريخ الفارق، فإن تأسيس إمارات من طرف مسلمي الأندلس بشمال المغرب، وكفاحهم؛ كان بعد أن عبروا بحر زقاق جبل طارق إلى الضفة الجنوبية لحوض المتوسط، ليغدو المسيحيون الصليبيون في موقف هجوم، والمسلمون الجهاديون في موقف دفاع، وكان قد رجح ميزان القوة لصالح ملوك أوروبا الغربية في النصف الثاني للقرن الخامس عشر، والنصف الأول من القرن السادس عشر الميلاديين، وقد تتالت الأحداث السياسية والعسكرية على شفشاون بعد هذا في العصور التاريخية المتأخرة الثلاثة، وفي المصادر والمراجع التاريخية ما يُغني معلومات القارئ.

لم يُخيِّر مرسوم -عُرف تاريخيا بـ(مرسوم الحمراء) -هل نسبته كانت إلى قصر الحمراء بغرناطة- الذي أصدره كل من الملك الإسباني المتدين بمسيحية بابا الفاتيكان (فيرناندو الثاني؛ 1452م -1516م)، وزوجته الكاثوليكية هي أيضا (الملكة إيزابيلا الأولى؛ 1451م -1504م)؛ فقط المسلمين بين أن يدخلوا في دين المسيحية الكاثوليكية، أو أن يغادروا الأندلس حفاة عراة، بل حتى اليهود، فكانت شفشاون من بين مدن أخرى مستقرا لهؤلاء الأخيرين، وكانوا في الأول في منطقة (واد الفوارات)؛ قريبا من شفشاون؛ ما تزال هناك مقبرة لموتاهم، ولم يكن الذي أدخلهم إلى شفشاون إلا أميرها علي بن راشد؛ لقد كان عسكريا وسياسيا، حيث سكنوا بحيهم (الملاح)؛ قريبا من القصبة. من أسر شفشاون الموريسكية الأندلسية مثلا؛ ولا تُحصَر في هذه الأسماء: الأندلسي ومورسيا وخيرون والسمار وهذه عائلة اشتغلت بالتجارة، والطريس

وعفاق، والمشاط وهذه اشتغلت بالصوف؛ كانت قد رحلت إلى فاس، والحضري وتعود أصول هذه إلى حضرموت باليمن، والبيضا.

وقد أشار علي الأستاذ عبد الخالق بن ميمون بالرجوع للتوسع في هذا المجال إلى كتاب (دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر)؛ مؤلفه محمد بن عسكر الشفشاوني (1529م –1578م)، وإلى كتاب الدكتور عبد القادر العافية، اسمه (الحياة السياسية والفكرية لمدينة شفشاون)، وإلى كتاب (شفشاون لؤلؤة الشمال) الذي سبق الحديث عنه.

ليس من الصدف أن يكون من رحم شفشاون علماء برعوا في العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الدنيوية، ومؤرخين، وأدباء كانت في أقلامهم سلاسة؛ في الشعر بالدرجة الأولى ثم النثر، فعلى بُعد ستة وثلاثين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من المدينة؛ أسس القائد العسكري الذي فتح شبه الجزيرة الأيبيرية طارق بن زياد (مختلف في تاريخ ازدياده بين 670م و679م؛ سنة وفاته حوالي 719م) أول مسجد في إفريقيا حمل اسمه؛ في القرن الثامن الميلادي، وبعد مسافة مائة وتسعين كيلومترا اشترت أم البنين (فاطمة بنت محمد الفهري القرشي) قطعة أرض بنت عليها (جامع القرويين) في القرن التاسع الميلادي؛ صار نواة لأول جامعة في العالم بلا منازع، لأنه كان له مدرسون علماء، ودروس منتظمة في مختلف العلوم الشرعية والعلوم النظرية، وطلبة، وحاضر فيه أشهر علماء الغرب الإسلامي بلغة القرآن، وبنت بجانبه أختها (مريم الفهرية) جامع الأندلس؛ أدى نفس الدور؛ إذ لم يكن لمحمد الفهري الميسور إلا هذين البنتين الصالحتين، فلهذا طبعا إشعاع ديني وثقافي إسلامي على شمال المغرب وعلى الأندلس، بالإضافة إلى المستوى التعليمي الحضاري الذي كان للأسر الأندلسية التي هاجرت قسرا من بلاد الأندلس إلى شفشاون، وكان لهذه قصور ورياضات وجوامع وجامعات وعلماء وأدباء، وملوكها وقادتها الذين حكموا بالسيف وأبدعو بالقلم، فالخلوة لطقس الصلاة، وحفظ آيات القرآن، والرقم بالقلم على اللوح، وتدوين ما تجود به

القريحة؛ تكون في الجبل، فمن علماء شفشاون الفقيه محمد بن عياد المصري؛ لُقب بـ(المصري)، لأنه دخل إلى مصر في يوم تشييع جنازة المفكر وعالم الدين محمد عبده بن حسن خير الله (1849م –1905م)، مكث هذا العالم الشاوني بمصر مدة خمسة وعشرين عاما؛ تزوج بامرأة مصرية، والعلامة القاضي علي بن ميمون الغماري بن أبي بكر بن علي، ولد بـ(غمارة) بـ(السطيحات) في عام 1450م، ودرس بجامع القرويين بفاس؛ كان قد ولاه علي بن راشد قضاء شفشاون؛ توفي بالشام في سنة 1511م، وكان مدفنه بلبنان الحالي، والعلامة الشيخ محمد أصبان الحسني (1907م –1984م)، وقد نظم الأستاذ عبد الخالق بن ميمون قصيدة بمناسبة ذكرى تأبين هذا الأخير؛ عنوانها (العبقري الفاضل)؛ وهذا مطلعها مع بيتين بعده:

**مُنذ عرفناك كنتَ لنا شهْما * ساطِعا مُنيرا بعلمِك الزَّاخِر**
**منذ عايشْناك كنتَ لنا نجما * نابغا مُنيرا بمجدِك العاطر**
**فيا بُشرى لمن رآك يوما * تهتِف فوق كل المنابر**

من سلاطين المغرب وملوكه الذين شرّفوا شفشاون بالقدوم إليها، وأغلبهم من الدولة العلوية الشريفة؛ أربعة: السلطان الحسن الأول (1836م – 1894م)؛ كان قد دخل إلى المدينة عبر الباب الشمالي الغربي والمسمى بباب (السوق) في 28 غشت 1888م، والملك محمد الخامس (1909م –1961م) كان قد زارها في سنة 1957م، والملك الحسن الثاني (1929م –1999م)؛ كان دخوله إليها في 10 شتنبر 1962م، وزيارة الملك محمد السادس لها كانت في سنة 2006م.

توزعت بيوت مدينة شفشاون العتيقة، ومحلاتها التجارية، ومساجدها على خمسة أحياء؛ أعطيت لها أسماء تُقرب فهمنا إلى حد ما إلى سبب تسميتها بها، ولها سنوات تُؤرخها، وهي كالتالي؛ مُرتّبة من أقدمها إلى أحدثها: السويقة (1471م)، والصبانين (1483م) والخرازين (1483م) والأندلس (1492م) والعُنصر (1502م) والسوق (1541م)، وعرفت المدينة عددا من الهجرات

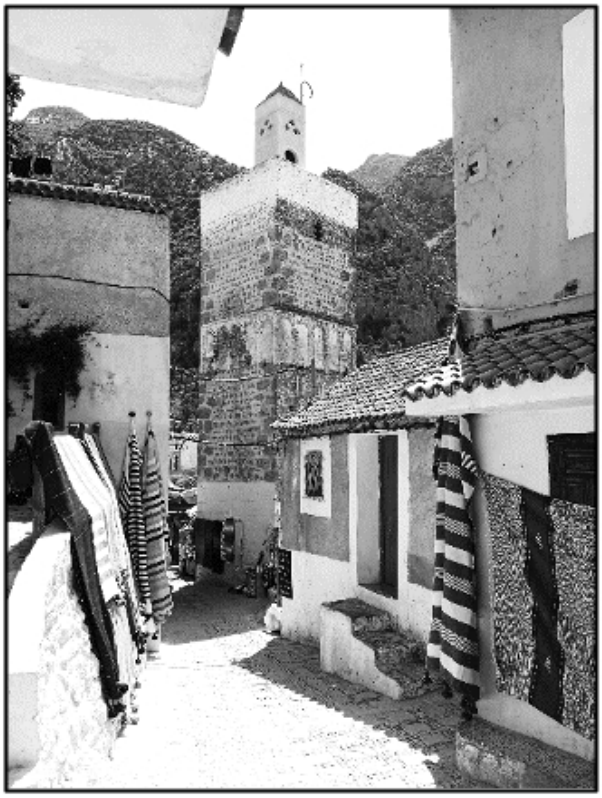

إحدى صومعات أحياء شفشاون القديمة.
(بعدسة المؤلف)

الأندلسية إليها، الأولى بحي الصبانين وحي الخرازين، والثانية بحي الأندلس، والثالثة بحي العُنصر، والرابعة بحي السوق، ولها سبعة أبواب: باب السوق وباب العين، وباب الحمّار وباب المحروق، وباب الهرمون، وباب العنصر، وباب الصبانين، وبها معهدان للتعليم العتيق؛ أحدهما اسمه (معهد المشيشي)؛ نسبة إلى العالم المتصوف عبد السلام بن مشيش، والآخر اسمه (معهد الإمام الشاذلي الديني)؛ نسبة إلى تلميذ عبد السلام بن مشيش الصوفي أبي الحسن الشاذلي (1197م -1258م)؛ دفين وادي (حميثرة) بصحراء عيذاب بمصر. من مساجدها نذكر: المسجد الأعظم؛ بناه محمد بن علي بن راشد، ومسجد (أبو خنشة) بشارع السيدة الحرة، ومسجد ريف الأندلس؛ بناه الأندلسيون، ومسجد مولاي علي بن راشد، ومسجد ريف الصبانين، ومسجد العنصر بشارع الحسن الأول، ومسجد (العاقل) نسبة إلى مؤسسه وهو من أسرة أندلسية، ومسجد باب السوق، ومسجد الحسن الثاني؛ قرب المحكمة؛ أُسس في عام 1975م، ومسجد بدر بشارع مليلية، ومسجد السُنّة بشارع المغرب العربي، ومسجد مولاي عبد الرحمان الشريف، ومسجد ينفرد بتصميم يختلف عن مساجد المغرب المعهودة، فله صمعة وله بناء للصلاة، ولا يؤمه المصلون، وحكايته تزيدنا دهشة، فالذي أمر ببنائه هو حاكم شفشاون العسكري الإسباني (فيراردو كاباس؛ Ferardo Cabas) في سنة 1926م؛ في زمن احتلال المنطقة من طرف الإسبان؛ يطلق عليه سكان المدينة اسم مسجد (أبو العصافير)،

أو اسم مسجد (بوزعافر)، ومصدر هذا الإسم الأخير هو أن الحاكم الإسباني كان له (جعافر) بمعنى شاربان طويلان. من مكتبات شفشاون الخاصة التي تبيع الكتب والمجلات والصحف؛ المكتبة الراشدية أسست سنة 1984م، مكتبة القاضي بن ميمون أسسها عبد الخالق بن ميمون سنة 1990م، ومكتبة العرفان، ومكتبة الصالحي بشارع المقاومة، ومكتبة الجيلالي بشارع الحسن الثاني، ومكتبة بن عزوز توجد قرب المحكمة، ومكتبة تامسالة، وغيرها من المكتبات.

لم يكن الاهتمام بشفشاون؛ من ناحية سحر مكانها الطبيعي، وأصل سكانها من الموريسكيين واليهود الذين كانوا مستقرين بها، أو من ناحية كونها كانت قاعدة عسكرية لآنطلاق الجيوش المغربية إلى شن حروب دفاع ضد الإسبان والبرتغال الذين غزوا سواحل المغرب؛ قريب العهد؛ بل يرجع تاريخ أول صورة أخذت للمدينة إلى أواخر النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي رسم بريشة المستكشف والجغرافي الفرنسي (شارل دو فوكو؛ 1850م – 1916م؛ Charles de Foucauld)؛ كان قد تنقل فيما بين سنتي 1883م و1884م في بعض مدن المغرب في هيئة يهودي متنكر، وكان دليله الحاخام المستكشف اليهودي (مردوخي أبو سرور)؛ كان هذا الأخير مراسلا للجمعية الجغرافية الباريسية، ولد بمدينة عقا بإقليم طانطان عام 1826م وتوفي بالجزائر في سنة 1886م، دخل (شارل دو فوكو) إلى شفشاون في 3 يوليوز 1883م، ويُظهر رسمه قمتي الجبل الذي بنيت على سفحه شفشاون، وقصبة علي بن راشد العلمي، وبرجها العالي، وأربع صومعات، والبنايات ذات السقوف المائلة، وصورة أخرى للمدينة لا أدري ما إذا كانت هي التي تلي الأولى في الأقدمية، وهي فوتوغرافية باللونين الأبيض والأسود، ويحتاج الإخبار بها هنا إلى البحث عن مُصورها، والأرجح وانطلاقا من حدث تاريخي تعرضه وقع في المدينة؛ حيث تظهر جماعة من سكان المدينة أو المناطق المجاورة بجلاليبهم وعمائمهم البيضاء؛ يتابعون من بعيد أوروبيين بألبستهم وخيول لهم، ولن

يكونوا هؤلاء إلا إسبانيين؛ يقفون في ساحة تحيط بها بيوت شفشاون، وعلى يمينهم سور قصبة علي بن راشد المسنن.

كانت تُبنى جُدر شفشاون بالحجر المحلي، والتراب مخلوطا بالجير في أول الأمر، ثم أصبحت لبناتها من الياجور الأحمر، يسميه الشفشاونيون بـ(الماسديسو)، وتُسقّف بسقفين مائلين من القرميد الأحمر؛ يشكلان رأسيا مثلثا منفرج الزاوية؛ متلاحمة أبنيتها بحيث تصير كصخر بلوري، وفرض عليها انحدار السفح سلاليما صاعدة نازلة؛ بأعداد من الدرجات. إذا حملتك قدماك وعبرت بهما باب السوق المقوس؛ فستجد نفسك في زقاق تجاري؛ على جانبيه دكاكين؛ تعرض للبيع الأغطية، والألحفة، والجلابيب الصوفية، وألبسة من نسيج قطني عصري، وتذكارات ورقية ومعدنية، وتحفا فنية منحوتة، أو مصبوبة صُهارتها في قالب؛ اتخذت من كائنات الطبيعة الحية أشكالا. يصل بك هذا الزقاق إلى ذلك النبع من الماء الذي يُسمى بـ(رأس الماء)؛ مقصد الجميع للاستجمام والاسترواح والاسترخاء بصوت خرير الماء الجاري؛ على ضفتيه مِرشات تقذف ماء العين البارد على حبات برتقال؛ جُلبت من منطقة الغرب الخصيبة؛ في انتظار من يطلب كوب عصير منعش، وقد تحلب فمه لحموضة لذيذة في السائل الأصفر مُستساغة، وكانت فيما مضى خمس أرحية على الأقل على طول مجرى عين (رأس الماء)؛ لها أسماء؛ تنتفع من طاقة تيار الماء في تدوير دواليب إحدى الحجرتين؛ لتحويل الحبوب إلى مسحوق الدقيق، وهناك من يقول بأن عددها وصل إلى واحد وعشرين رحى، وأشهرها عند السكان (رحيوة النساء).

يوم معلوم ذاك؛ في شارع أسفلتي؛ يبدأ من باب السوق؛ سواء الذي دخل من هذا الأخير إلى المدينة العتيقة قادما من المدينة الأسمنتية، أو خارجا من تلك متجها إلا هذه، فكليهما تجذبه في فصل الصيف أسطال من التين أخضر اللون، والبرقوق بنفسجي اللون، وقنينات مملوءة عن آخرها باللبن؛ الحليب الممخوض، وزُبدة الضروع، والنعناع، ورُزم من أعشاب برية عَطِرة

مُنسِّمة للشاي، وزيت الزيتون، وخضر الكوسال (الكَرعة خضراء اللون؛ Courgette)، واليقطين؛ هذا مما تبيعه نساء قدمن به من حقول وبساتين خارج شفشاون؛ تضع جميعهن على رؤوسهن قبعات عزفية؛ مجدولة بأوراق الدوم الإبرية الشكل والمُيبّسة؛ مزينة بخيوط صوفية غالبا بالأحمر أو الأخضر، ويئتزرن بقطعة من نسيج صوفي؛ موشات بخطوط طولية حمراء؛ يُحطن به أنصافهن السفلية؛ إنهن نسوة الجبل الحاذقات المشمرات دائما لأثوابهن للعمل والكد فيه؛ لعل ذلك اليوم هو الخميس؛ السابق للجمعة؛ يوم قراءة القرآن جماعة، والخطبة الوعظية التذكيرية، وصلاة الركعتين، والدعاء بالهناء والشفاء للأحياء، والرحمة والمغفرة للأموات.

في رحلتي هذه في المسافة الجغرافية، وفي فترات شفشاون الزمنية التاريخية؛ آن لي أن أذكر ما لم أُفصح به في البداية، وهو النية الأولى من وراء سفري إلى شفشاون، ويدخل في اهتماماتي الرئيسة، وهو ما إن قرأت بأن معرض الكتاب بجهة (طنجة –تطوان–الحسيمة) سيُنظم في دورته الثانية عشرة في مدينة شفشاون ما بين 27 يونيو و4 يوليوز 2024م؛ تحت شعار: «شفشاون؛ مدارات التاريخ والإبداع»، ونُسبت إلى الشاعر المغربي الشفشاوني عبد الكريم الطبال؛ حتى تحمست إلى أن أكون من بين الزوار المختلفة درجات تلهفهم على الكتاب الثقافي الورقي، ثم شيء آخر وهو ستة من إصداراتي في مجال السرد (روايتان، ومجموعتان قصصيتان، وكتاب يسرد رحلات ومغامرات بحري غواص...) ستكون من بين الكتب المعروضة، ثم برمجة إلكترونية لحجز تذاكر دخول؛ إلى تمثيلية تاريخية تثير الحنين إلى تاريخ شفشاون؛ يقوم فيها الممثلون بدور علي بن راشد، وبدور الست الحرة، وشخصيات تاريخية أخرى، وبدور جهادي الدولة العثمانية البحري خير الدين بربروس ريس وبحارته، وبأدوار عسكر القصبة؛ بأيديهم نبال وسيوف ودُرق؛ بعمائم وخوذات جلدية على رؤوسهم، وأحزمة يشدون بها أوساطهم، ويحتذون جزمات جلدية طويلة، وستجري مبارزة، ولقاءات رومانسية بين

متغزل ومتغزلة، بأقدام حافية يطآن بها في ماء يتدفق على الأرض المبلطة من نافورة مقامة في الوسط، وبيدي المتغزل طائر ببغاء يلاعبه نقلا من يد إلى أخرى، وفتيات يُحطن قدودهن بأزر بيضاء، يشددن أطرافها برؤوسهن، ولا يُبدين غير عيون واسعة كحيلة يشزرن بها في استحياء، يستدرج البعض منهن بائع أثواب؛ يعرض سلعته في سوق تتالت فيه -على أحد أسوار القصبة- سُقف وأعمدة؛ هي بمثابة دكاكين؛ في البعض منها جرار طينية تحتوي على عسل أو زيت أو زبدة أو سمن مُعتق، وبضائع أخرى، وتؤدي فرقة رقصات على إيقاع موسيقى؛ يرتدي أفرادها أكسية قُرصانية، ويتمنطقون بمشدات حمراء، وتبارز السيدة الحرة أحد الجهاديين البحريين بالسيف، فتهزم سيفه، فيخر هو راكعا أمامها، وينسحب من أمام أدائها الفذ في مقارعة السيوف، ولم يكن الفضاء المسرحي الذي جرت فيه هذه التمثيلية التاريخية؛ إلا أبهاء وحدائق وساحات قصبة علي بن راشد؛ تعكس دوحاتها وأشجارها ونباتاتها وورودها وأزهارها وأسوارها الطينية؛ الأضواء الكهربائية في مساء ذلك اليوم ألوانا مضيئة.

اِلتقيت بالشاعر عبد الكريم الطبال في رحاب معرض الكتاب، فجمعتني به جلسة حميمية؛ حدثني فيها عن تأسيسه لمجلة أدبية وفكرية وثقافية اسمها (شراع)؛ في يناير 1960م؛ وكانت هيئة تحريرها تتكون من الشعراء والأدباء: محمد شهبون، وعبد القادر العافية، وعبد القادر المجاهد؛ كانت تصدر أربعة مرات في السنة مؤقتا؛ بإمكانيات مادية محدودة؛ تطبعها مطبعة (كريماديس) بحجم 170x240؛ صدر منها خمسة أعداد، وعن أول مهرجان وطني للشعر؛ نظمته (جمعية أصدقاء المعتمد) في سنة 1960م؛ كان الأستاذ عبد الكريم الطبال من أحد المؤسسين لهذه الجمعية، والذي قصدت إليه الجمعية باسم العلم (المعتمد) هو (المعتمد بن عباد؛ 1040م -1095م)؛ ثالث وآخر ملوك بني عباد بالأندلس؛ من شعراء شفشاون الآخرين؛ محمد الميموني (1936م -2017م)، وأحمد بنميمون؛ من مواليد سنة 1949م، ومحمد بن يعقوب،

وعبد السلام مصباح الشاعر والمترجم عن الإسبانية، والكاتب والشاعر عبد الخالق بن ميمون صاحب (مكتبة القاضي بن ميمون)، وغيرهم من الشعراء.

فما أزخر شفشاون بمناظر طبيعية جبلية، وبآثار عمرانية تاريخية شاهدة، وبألوان بيوتها الزرقاء -وإن كان في حقيقة الأمر كما قال البعض بأن صباغة حيطان شفشاون باللون الأزرق لم تأت إلا فيما بعد- ومساجد وصومعات، ومؤسسات للتعليم العتيق والعصري، ومكتبات، وبأحداث العصور والبطولات التاريخية؛ تجد البحث والتحقيق فيها في كتب التاريخ، وبوصفها في المنثور، وفي شعرٍ نَظَم شُطورَ بيوته وقوافيه؛ شعراء وأدباء ينحدرون من بيوتات شفشاون الأدبية والعلمية!

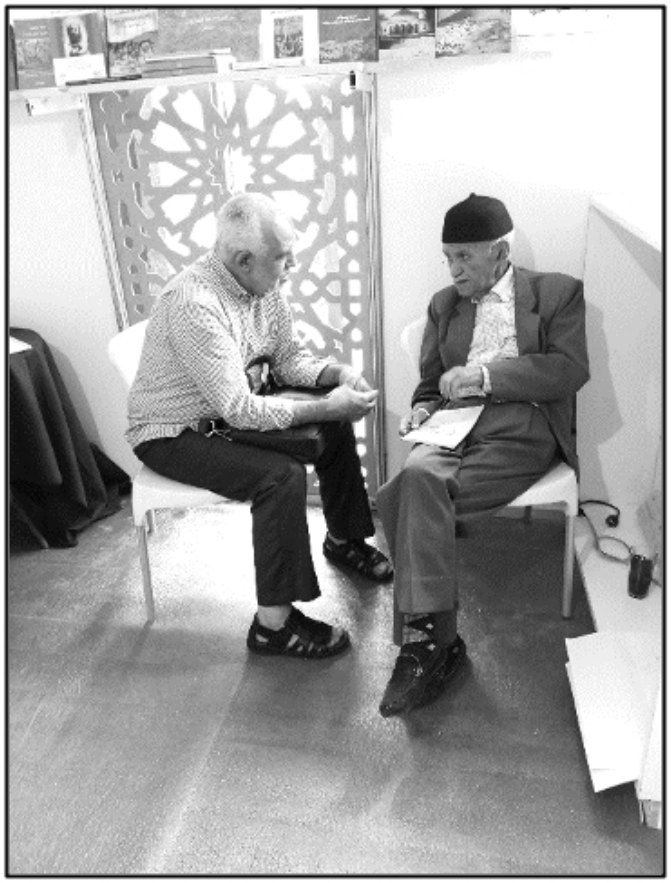

جلسة حديث تجمع بين الشاعر المغربي الشفشاوني، والمؤلف.

# ما خَطر في النّفس

# الكِتاب والكِتابة

لا أذكر آخرة مرة تناولت فيها قلما وورقة؛ وكتبت أحرُفا وكلمات وجملا؛ تقديري أن السنتين والنصف السنة كانتا هي مدة هجري للكتابة، ومهما حاولت أن أُترجم شعوري الذي يملأ الآن أعماق النفس إلى كلام مكتوب، فلن يبلغ المعاني المعبرة عن تلك المشاعر أدق تعبير، فما أشعر به هي حسرة أحس بها ثقيلة على القلب، وتُحدث غُصة في الحلق، وتحبس عني أنفاسي، فيضيق بي المكان...

إلى هذا الحد أكون قد أسررت كربي، فكان هذا تنفيسا علي؛ هو إذن حزن على ما فرّطت فيه.

فأحنّ إلى أيام خلت ليست كمثل هذه الأيام ، فقد راكمت الأيام من الأحداث ما لم يكن في الحُسبان، وما لم تكن النفس لترغب فيها، ولكنها قدر كانت خيرا أو شرا؛ كنت أكتب فأجد سعادتي وكلماتي منشورة يقرأها نفر من الناس، والفرق هو بين أحلامي ورغباتي في تلك الأيام، وبين نفس مَضطربة لا تستقر على حال لرجل تتقدم به السِّنون؛ لم يبلغ ما كان يرمي إليه، كان شيئا يتراءى له في الأفق؛ قد يكون حيا أو سرابا.

أحد من الذين تلتقي بهم في مدارج الحياة، وتجمعه بك معرفة محدودة في مَسلك اكتساب الرزق، ويَعْرِفُك حق المعرفة، ويقف على آمالك وميولك ويستحسنها؛ شخص على خُلق حسن، رمى به الزمن في أحضان أسرته الصغيرة في حي فقير، أُجبر تحت حكم جائر صادر عن المحكمة؛ على إخلاء بيت الوالدين؛ قاضاه فيه أخوه من أبيه وأمه؛ سألته يوما: «أما زال على قيد الحياة أقارب لك؟»؛ أجاب: «كلهم ماتوا؛ كان آخرهم أخت لي توفيت منذ سنين عدة»؛ يسألني من حين لآخر: « كيف حالك مع الرفيق؟».

يقصد بالرفيق (الكتاب)، كان يراني، وبرفقتي كتاب أقرأه، فلم يعد يراني مع رفيقي هذا، سألني آخرة مرة بنفس السؤال الآنف الذكر، وفي نظراته عتاب، في تلك المدة كنت قد هجرت الكتاب كما هجرت الكتابة.

من الأسباب المباشرة التي تحول بين عاشق الكتابة أن يكتب؛ هي أنه يمارس عملا لا صلة له بميدان الكتابة، وبناتها من الأفكار؛ يكسب به قوت أفراد أسرته، أيمكن أن يتعيش الكاتب بكتاباته في عصر أصبحت القراءة حنينا وحلما؛ يُصاحب الإنسان في غُدُوُّه ورَواحِه؟ والأوقات الرسمية والمواعيد تستحثُّه، أيجد الكاتب فُسحة، ومكانا قصيا لا جلبة فيه ولا ضوضاء كي يخلو بنفسه، حتى يستطيع تدقيق معلوماته، وصياغة أساليب بليغة ومعان رشيدة؟

إن جلسة واحدة في يوم من أيام العطلة أمام التلفاز أو أمام الحاسوب، أو تحديقا في الهاتف المحمول؛ تأكل من ذلك اليوم مدة زمنية تزيد عن ساعات، فلو تفكّر في الأمر؛ ذلك الذي يركن إلى هذه الأجهزة المغرية بأشكالها وألوانها، و بأزرارها الطيعة والناعمة الملمس؛ خلال ساعات لبُهت، فقد صرف وقتا قد يكون في غير طائل.

إن الذين حافظوا على علاقة وطيدة ودائمة مع القراءة والكتابة؛ وهم قِلّة يُشاطرونني رأيي هذا: فإنهما أي القراءة والكتابة تبعثان الحياة في الإنسان، فهو يَحيا ولا يموت تحت ضربات الفراغ والانشغالات اليومية الروتينية؛ تُشعِره بأنه ما يزال طفلا يحلم، وشابا يتهيأ للمغامرة، وكهلا خبر الحياة وعركها، فينثر ما هو صائب من الحلول والأفكار؛ بعزم وثقة نفس.

أُشاهد الناس وهم يدبون دبيب النمل في ذهاب وإياب، وفي أَخلادهم أنهم أحياء وهم أموات؛ هل الآلة التي تعمل ببرمجة معينة فيها حياة؟ فهي تتحرك بإرادة شخص ما، وهذا نفسه مات ضميره وتحجر قلبه؛ بل لا خُتِم على قلبه، فلا إحساس بالذنب، ولا شعور بالتقصير، أو بالواجب؛ يبسط يديه لتغرف من الآلة؛ مما تنتجه هذه الأخيرة من الطبيعة، وتصُبُّه مالا في كفيه

صبا، وإذا أصاب الآلة عَطَب اِستبدلها بأخرى حديثة الصنع، ومتقدمة في خيارات عطائها؛ تعمل تُروسها وعناصرها الميكانيكية بإيقاع مُتناغم؛ ذو رنات تُطرِب ذلك الشخص المتعطش دائما إلى المال.

أنت تستشعر حريتك في اختيار ما تقرأ، وأنت في كامل صفاء ذهنك وحريتك؛ وعندما تُمسك بالقلم وتكتب على سجيتك، وما يحلو لك من أفكار؛ سواء رضي الناس عليها أم لم يرضوا.

فكذلك أستشعر حريتي في مكتبتي وعلى مكتبي؛ أقرأ ما أرغب فيه، وأكتب ما أستسيغه من أفكار، وما يحلو لي من معان، وما يلذ لي من أساليب.

فإني أُشبه من يسعى وراء مسؤولية القبض على زمام الأمور في جماعة ما، فما مدى تمتعي بحرية اتخاذ القرار، وأمْرُ هذا القرار يتعلق بأفراد تختلف رغباتُهم ومصالحهم؟

على أي حرية نتكلم، ونحن حبيسو الحيطان التي تُقام على أساس تصميم؛ لا يُنفّذ إلا بمصادقة السلطات المحلية، وبين شوارع، وأزقة مرسومة على الشكل الذي يريدونهم هم وليس نحن، فهم يعرضون سنتيميترا مربعا من الأرض للبيع، أو من البحر أو من الغابة؛ أُنيطوا بمهمة التعمير وإقامة صروح من الأسمنت، فابتلعوا خضرة أراض واسعة من الغابات، ورمال امتدادات الشواطئ؛ يكونون بهذا قد افتضوا عذرية الطبيعة، وخربوا سطوحها الخصبة، وقضوا على النيات الحسنة، والسذاجة المحمودة في جانبها الإيماني بالله تعالى.

نشيّع في هذا العصر جثمان البيئة والكتاب، والكتابة، ورومانسية قرنين مضيا.

وأنقل إلى هذه الصفحة كلاما يُثير الشفقة والكآبة، وهو ما خطه كاتب من القطر العربي المصري؛ طويل الباع في مجال الكتابة، وما دام هو كذلك فله رأي في مصير الكتاب، فقد قال، وحسب ما بدا له بأن نودّع القراءة، وقال بالحرف: «الفرق بين الكتاب والمرأة، أن الكتاب لا يبحث عن من يقرأه إذا ما هجره صاحبه»، وهناك من رأى أن الشبكة العنكبوتية لم تسلب

الكتاب مكانته؛ بل دعمته بأن أصبحت معروضة عناوينه على الصفحات الإلكترونية، وجعلته قابلا للشراء عن طريق العناوين الإلكترونية وبطاقات الائتمان؛ بمختلف برامج القراءة والتحميل.

وأرى من جهتي أن الكتاب سيظل بشكله يُغري بالقراءة، وستظل الكتابة بمختلف أنماطها، وأشكالها، ومضامينها تستهوي فئات من الناس، ولن يجف مداد الأقلام إلا بجفاف العقول نفسها، وسبب علتها هو التهالك على الملذات المادية، أما القراءة والكتابة فهما غذاء للروح والعقل معا.

# الصيّاد لا يُطعم السّمكة مرتين

في حقيقة الأمر؛ هذه الجملة التي جعلتها عنوانا لهذه المقالة ليست مما صُغته، وإنما التقطتها من إحدى مطالعاتي لأحد الكتب، فرأيتها مناسبة لهذا النص القصير...

فأقول:

... والبيت في حالة توتر روتيني، ومُملة في كثير من الأحيان أيام حياته المتكررة؛ إذ هبّت عليه في لحظة ما هبة نسيم انفراج، فرفعت الزوجة عينيها في وجه بعلها، وكانت تُحيك جواربا من صوف؛ ذات خيوط ملونة؛ لحفيدها الذي رأى النور منذ أسبوع، تقي رجليه الصغيرتين؛ اللينتين واللطيفتين؛ برد فصل الشتاء القادم، وهي في أوج إشراقها، تأملت شُعيرات شيباء في فَوْدَي زوجها الشيخ ذاك، ثم قالت:

-لم تدأب على عادتك يا زوجي العزيز؛ أيام كنت تأتيني بهدية جميلة في خطبتك لي!؟

لم يرفع الزوج عينيه عن الجريدة؛ المتنوعة الأخبار والمواضيع، والصور الفوتوغرافية المغرية بألوانها، وقال بابتسامة غير المهتم بالأمر:

-الصياد لا يُطعم السمكة مرتين.

فالهدية لا تتعدى استمالة المرأة وهي ما تزال عزيزة إلى القلب، وصاحبها متلهف للقاء الأسابيع الأولى.

كثيرة هي المُلح التي تُغنينا عن مباشرة الأشياء، وعن تجنّب ما من شأنه أن يُخِلّ بصوابنا؛ في زمن تلبدت فيه الخيوط، فأصبحت أشبه بلبدة الأسد، فقد مر زمن ليس بقصير، ولم نمسك فيه إلا الفراغ، كأننا نزلاء إحدى المراكز الاجتماعية؛ التي تأوي من أُصيبوا بمرض البلادة والجنون والبلاهة، وكذلك فعلوا بنا؛ ساسة (المدينة الفاضلة).

هل ما يزال، وفي زحمة شؤون الحياة؛ كأزمة النقل، والبطون التي تبيت على الكفاف، والزيادة المسكوت عنها في أثمنة المواد الغذائية التي لا يُستغنى عنها أبدا، وقد تحكموا في تجارتها ورأسمالها؛ في أثمنة ما ليس لنا عنه بد من أن نشتريه، لأنه شيء كالهواء والماء؛ أنحيا بدون هذين العنصرين؟ قطعا لا، وإلا سيكون ذلك محض تفضيل الموت عن الحياة؛ أمام فريق التعذيب. أقول هل ما يزال من يتذكر (الطُّعْم) الذي غلف صلب صنارة (الصياد)، فتذوقناه جميعا؛ (الصياد) الذي لم يتفوه وقتئذ بغير ما خاطب به الصياد الهافاني (سانتياكَو)؛ بطل قصة الكاتب الأمريكي (إرنست ميلر همنجواي 1899م-1963م،Ernest Miller Hemingway)، والتي عنوانها بِـ(الشيخ والبحر)، السمكة التي كان يهُب إلى اصطيادها؛ مخُاطبا إياها؛ قائلا:

«- هيا؛ أأكلي قضمة صغيرة.

قال:

- أأكلي كبيرتي؛ أأكلي حتى ينغرز طرف الصنّارة في قلبك ويمزقه».

لم نكن أتعس من حظ سمكة (همنجواي)، التي نهشتها أسماك القرش النهمة، فلم يشحن الصياد الشيخ (سانتياكَو) بمركبه الخشبي الصغير وبسار وبشراع واحد؛ غير هيكل عظمي كبير؛ كان دليل مراسه في البحر؛ على الأقل أمام عيون زملائه الصيادين؛ الذين كثيرا ما تهكموا من شيخوخته في مدينة (هافانا) الكوبية؛ لأننا ما زلنا على قيد الحياة نُذكّر (الصياد) بالطُّعْم الذي غرّرنا به بالرغم من شُحّه؛ وهو يحمسنا إلى برنامجه الانتخابي، لنسرع إلى التصويت عليه في مكاتب صناديق الاقتراع، إلا أنه لا يُصارح؛ بقدر ما يُلمّح قائلا: «الصياد لا يُطعم السمكة مرتين».

كان (الصياد) المنتخب السياسي العتيد يثور من أجل قوت الضعفاء والمساكين والفقراء، وذوي الأجر المحدود، والأدنى في منظومة الأجور، ويستنكر ما تكدس من مال في يد من اغتنوا من عرق جبين المستخدمين والأُجراء، وكان يطالب بعودة المال إلى من يُفجّر الطبيعة بيد من حديد،

ويستخرج من الأرض ما قيمته ذهبا، فهبّوا من تجرعوا ما يشبه (الطعم) وُعودا؛ يشدون من عَضُدِه وهم يقولون: «بيننا وبينه صدق المبدأ الذي لا تنال منه نائبة».

فلما استتبّ به الأمر ذلك الفائز في الانتخابات البلدية أو البرلمانية أو الرئاسية؛ وضع ملء كفيه على أُذُنيه اتقاء لغط من انكفأوا عن طيب الخاطر، فامتطى ظهورهم وتسلّق الجدران، وقد تمارض بفقدان الذاكرة، وأَمرّ من هذا أن الذين غُرّروا بطعم الصياد الداهية رقصوا لعهد الحرية الجديد؛ كيف لا، وقد أصبحوا في ظل من كان يستميت من أجل تحقيقها، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون!

إذا كان ما ظهر وما بطن خُذلان، فالتاريخ لا يستحيي، فهو يُميط اللثام عن ما يقع وعن كل النوايا؛ سواء كان السعي بهذه الأخيرة لخدمة الوطن والمواطنين، أو كانت بهدف الضحك على الذقون؛ منابت اللحي، ولأهداف ومآرب شخصية.

# عُشّ القماريّ

كانت الشقة التي سكنت فيها منذ ست سنوات توجد في الطابق الثاني، تُطل جميع نوافذها على حديقة؛ تنبت بتربتها الخصبة شجرة؛ اِمتد جذعُها حتى جاوزت فروعها في العلو نوافذ غرفتي.

ففي ربيع عام تسعة بعد الألف الثانية الميلادية، وكان فصلا متميزا عن باقي فصول السنوات الفائتة خلال أربعة عقود من الزمن، فقد ارتوت الحقول في جميع مناطق البلاد بماء مطر غزير، فاعشوشبت الأرض بالكلأ، وأزهرت زهورا، ورياحينا، وخَشخاشا؛ اِستيقظت في أحد الصباحات، وكانت شمس الربيع قد بثت الدفء في الجو؛ على صوت هديل قُمّريّ لم تألفه أذناي، إلى جانب صوت هدير وسائل النقل؛ الذي اعتادت الأذنان سماعه في ذلك الوقت من الصباح، فهو يكون بعيدا شيئا ما؛ إلا أنه يُنبئ بحركة دؤوبة على السير، وسريعة، وكثيفة، وكان صوت نداء هذا النوع من الحمام البري يأتي من مكان قريب، فأرهفت السمع، ونظرت إلى شيء، فإذا هو أنثى قمري ذات لون رمادي؛ تتناول بمنقارها غصنا دقيقا؛ تحاول إدخاله في بعض أغصان أخرى؛ مُتداخلة ومُتشابكة؛ كانت تُشكل عُشا بين فروع الشجرة، فهي قد ثبتت آخر عود فيه، الذي سيغدو بعد حين بيت حضانة للصغار، ولحاضنات من حمائم القَمَاري.

وكذلك كنت أفعل في أوقات أول النهار؛ أُصبح على أنثى القمري بنظرة، فألقاها باسطة ريشها، وقد احتل جسمها جميعه العش؛ في دعة وسكينة؛ تسترق السمع، فتنظر فجأة في اتجاهي، وتحاول أن تتبينني بنظرة فاحصة، وإن كنت أحاول الاقتراب من النافذة بهدوء؛ بدون أن أثير ضجة تستنكرها.

في التفاتاتها، وفي نظراتها استحياء؛ بدون رد فعل يُذكر؛ استحياء من داهمت خَلْوته بدون سابق نبأ، وهو لا يريد البتة فضولك، ويمقت وقاحتك، ولكن خُلقه الدمث الذي لا يؤتى إلا من واهب هو الله؛ جعله يستقبلك بصبر

جميل، وهو يعلم أنه سيرتد إليك اندفاعك غير اللائق، فتندم؛ هكذا استقبلتني الحمامة وبنظرة فيها روع.

أدركت حينئذ لماذا الحمام مضرب المثل، فالهدوء، والكياسة، وتدبر لشروط الحياة من سجاياه، وأعني كيف اهتدى هذا الزوج من الحمام إلى اختيار شجرة عالية خلف عمارتنا؛ حيث لا جلبة ولا ضوضاء، وحيث لا ينكشف وجودُها لطائر كاسر يفتك بها وبصغارها، كما أنها مؤمنة أشد الإيمان بسُنّة الخالق في الحياة، فهي تؤدي ما فرضه الله عليها من مسؤولية الإنجاب، فهي قد رتبت أركان بيتها، وأثثته، وهي حامل والوضع وشيك، بدون تبرم ولا ضيق بما كُتِب لها، ومنذ ذلك الحين لم ألاحظ تهاونا من جانب الحمامة، فهي لم تبرح بيضها قط مدة طويلة قد تزيد عن شهر، وهذا تقدير فقط، فقد غابت عني فكرة تسجيل مدة الحضانة بالضبط؛ في مذكرتي كما درج عليه علماء الأحياء.

في يوم من الأيام رأيت رؤوسا لصغار الحمامة تشرئب؛ تستكشف معالم المكان المحيط بها، الذي كُتب أن وُجدت فيه، وازداد حجم الحمائم الصغار، وهي منفوشة الريش، ثم رأيتها مرة تتنقل على الأغصان، ثم هي مشرفة على البيت من أعلى سقف المنزل المجاور، وأغلب الظن أنها سافرت؛ لما قويت أجنحتُها على مغالبة الريح، وقطع المسافات الطويلة؛ إلى وجهة مجهولة.

وتعاقب على ذلك العش حاضنتان أُخريان، ودأبتا بنفس الطريقة على الاعتناء بالبيض أشد الاعتناء؛ مرة بعد مرة تظهر حمائم صِغار منفوشة الريش، ثم هي بأجنحة ذات دُربة على الطيران بعيدا، إلا أنْ حدث في الأسبوع الثاني من شهر شتنبر حادث، فقد هبّت رياح قوية، وسقطت أمطار فصل الخريف الأولى عنيفة، هذا الفصل الذي جاء مبكرا في ذلك العام، فانهارت عيدان العش الذي هجرته الحمائم، وتُرِك على حاله؛ مُتدلية حشائشه، وبقايا ريش، وأوراق، وعيدان جافة، من أعلى غصن الشجرة، ومن يدري

لعل في الربيع القادم سيأتي زوج قمري لترميمه، ليصير بيت حضانة مرة أخرى؛ لنفر من الحاضنات الوادعات.

ظلت تلك الشجرة التي تُنبئُنا في كل عام عن حلول فصل الربيع؛ بظهور براعم براقة، وطرية؛ في فروعها؛ باسقة، وتمتد فروعها وأوراقها حتى تدخل إلى الغرفة من خلال النافذة، وتُذكّرنا ببيت الحضانة ذلك الذي تتردد عليه الحمائم في كل عام، إلى أن سمعنا في صبيحة يوم من الأيام صوت منشار يقطع جذع شجرة، فهَرعنا لنُطل من خلال النافذة بخوف عارم، ونتساءل عن أي شجرة من بين أشجار الحديقة الخلفية سيُقتلع جذعُها، وستُستأصل جذورُها، فكانت المفاجأة صادمة، لقد رأينا كيف بدأ جذع شجرة بيت حضانة الحمائم، وفروعه يهوي إلى الأرض، ولما استفسرنا عن السبب؛ قيل لنا أن صاحب البيت الأرضي يريد أن يبلط الأرض التي تُبذر في تربتها بذور النباتات؛ بالأسمنت وقطع هندسية من الفخار المدقوق؛ ليتسع المكان لجلسات العائلة في ليال سمر صاخبة، أو تمهيد لبناء حجرة إضافية، فلم نعد منذ ذلك اليوم نسمع هديل القماري، وإنما ضحك، وتهكم، وجلبة، وضوضاء؛ لسهرات ربيعية، وصيفية، وخريفية؛ ماجنة سافرة، أما أن تكون شتوية فلا، لأن البدن الآدمي يصقِع[65]، وبالمثل فعل جميع الجيران، فقد اقتلعوا الأشجار، وسووا أتربة الحديقة، وبلطوها بمخلوط الرمل والأسمنت، وتفننوا في رصّها بقطع الطين المشوي، والشديد الصلابة، فأصبحت تلك الحديقة الغناء أثرا بعد عين، وكذلك صارت مدننا كثلا كئيبة من الأسمنت.

[65] صقِع الشخص؛ بمعنى أصابه أذى الصقيع والبرد.

# هبَّة نسيم

نظرتُ إلى الخارج من خلال نافذة غرفتي نظرة سجين ضايقته الحيطان؛ التي كانت تختزن برودة فصول الشتاء الطويلة، فامتد البصر بعيدا مدى بُعد السَّماء الزرقاء عن الأرض؛ إلى أشعة الشمس التي أضاءت الفضاء، وبسطت دفئا ربيعيا؛ بثَّ سعادة فريدة في النَّفْس البشرية، وما زاد من هذا الشعور الوحيد؛ هو تلك الخُضرة التي تتّشح بها فروع أيْكة وارفة الأوراق، وعشبُ الأرض ذلك الذي تدوسه أقدام حضرية، يستعجلها الهمُّ اليومي؛ في مدينتنا هذه التي لا تُبْقي ولا تذَر.

فاستحضرت ذاكرتي زمنا ولى، وسنين مضت، ومكانا ناء أحِنُّ إليه؛ ولحظة عصية لا يمحوها العمر الطويل، تُوقظها هبة نسيم أو نفحة أريج؛ هي مثيل لتلك التي اكتسبت الخواصَّ الحرارية؛ لذلك السطح من السطوح الأرضية؛ الذي ارتدى حُلّة خضراء من سيقان نبت غضّة، وسنابل اِمتلأت حباّ طرياّ؛ تنتظر شمس الصيف القادم لتنضج فيحين حصادُها، فتحضرني قولة الكاتب المصري أحمد أمين (1886م- 1954م): «كل شيء في الطبيعة جميل، وأجمل ما فيها شمسها».

فتتحرك هبّة النسيم تلك خفيفة على قمة تل مُحدّبة، ويُفاجِئها انحدار سفح، فتنزلق بدون ضجر، ويضُمها بحنان أبوي حوض فَيْضي، وتُذعن لواد ضيق؛ لتنفلت من بين أجرافه الوطيئة على سهل رحب، وهي تُلامس طَلّ الليل؛ الذي اِنتشر على أوراق عريضة تعصرها أشداق الأنعام، فيسيل ماء أخضر، وهي بذلك تُوزع بسخاء حرارة شمس نهاية الربيع، فتتمطىَّ لها أجساد، وهي ترمق الأشعة التي اندلقت عبر كُوة ضيقة، فتكشف عن هباء اللُّحُف والأغطية مُنبثّا في هواء الغرفة، وغَلَت لُزوجة روث البهائم، فتصاعدت بُخاراً، وروائحا تطفح بها أمكنة تنفرد بها، وتُشعِر كل زائر، أو عابر سبيل أنه حل

ببادية صِرفة، فلا تتملكه ريبة في ذلك، ولا يعجب إذا قيل له أن أصحاب هذه الأرض؛ تنفرج نفوسُهم وتطرب لهذه الرائحة؛ رائحة الأنعام.

وكل مُكوّن من ذلك الروث يُستنفع به، فتتناوله المدراة وقد جف، وتنشره في التربة ليزداد خِصبُها، وتُغذّي الجذور فتنمو لتُثمر، فيتحقق بذلك الزرع، ويمتلئ الضرع الذي ينز حليبا؛ يُلقَم للعجول والخرفان.

فانتظم قطيع من أكباش لها قرون لولبية وخياشيم مندفعة؛ تنمُّ عن فحولة، ونِعاج ذات نظرات سمحة؛ في قافلة تسلك مِسربا، تتقدمها كلاب وجِراء؛ في مداعبة، وهروب، ومطاردة، وصيحات ألم كاذب، يتأخر عنه راع، أو يلتقط زِبل ذوي الحوافر؛ الميبس بالشمس، ويجمعه وقودا للتنُّور؛ تعتلي هامته قبعة حيكت بنبات الدّوم المجفف، تتناول قبضته عصا من فروع شجرة، ويتدلى على جانبه الأيمن جِراب حيك بخيوط من صوف الغنم، فيه ما يُذهب عنه جوعَه، وناي من قصب جلبه من أجمة تتغذى بماء غدير لا ينضب، لن يُلجمه شيء يكون حاضرا في الخلاء، لذلك سيُخلص نفخَه من عِنانه، ويدعه، وأنبوبة القصب التي تستجيب، فتُصدر أصواتا موسيقية ترتفع ذبذباتها، وتنخفض، تهيم بها الآذان، وتجذب إليها مسامع نسوة في طريقهن إلى مجرى عين، ليغسلن الألبسة من جلابيب، وصدار صوفي، والألحفة، والأغطية، فمنهن ممتطيات حُمُر تضرب باستعجال بأظلافها الطريق الوعر، وأخريات راجلات؛ يستحثن الدواب على الركض؛ هامزات أردافها بعصي، وقد صبغت خدودهن حمرة، تنظر إحداهن إلى قوام الراعي خُلسة، ثم تعود فترفع المنديل متلثمة به في استحياء.

وهو يُمنّي نفسه بكسب وفير في نهاية الصيف، فيطلب يد امرأة في بداية الخريف، فهو عريس يرتدي جلبابا أبيض؛ يقتنيه من السوق، فيتحلق حوله أقرانه يُغنون بمديح يزهو به، ويضربون على الدفوف، ونافخ الناي يرقص بين يديه على النغمات، والجميع سائرون في اتجاه بيت فيه زوجة؛ امتدت إليها أيدي ناعمة غير عجِلة؛ صانعة لجمال فاتن ظاهر.

وتشتد هبة النسيم أحيانا، فتُميل رؤوس الزرع في موجات متتابعة، وتتلاعب بأوراق الشجر، والخَشْخاش الأحمر، ويرفرف في مسارها غسيل منشور على كتل صخرية وأخبِية، وعلى عيدان أكواخ من قصب يابس، يستحضره الراعي؛ اِحترق أحدها في فصل من فصول الصيف بفعل فاعل.

وتستمر النسمة تلك في هبوبها في كل بلاد؛ حاملة ذكريات وأحلام وحنين، وتأسف على سنوات عمر مضت إلى غير رجعة، فكم يا ترى من النفوس تحرك شجونَها هذه الهبة من النسيم، وحسرتها؟ كم يا ترى تجعل القلوب تغدو سمحة، ويملئُها الغفران، وتجعل إشراقة الشمس على مساحة من الأرض؛ أعز مكان تحب النفوس أن تخلُد إليه، وأنه أفضل ما يمتد على سطح الكرة الأرضية...؟

فما أعظم دورك يا هبة النسيم في حياة الناس، فإنك تحيي ذكريات السطوح؛ سواء كانت قفرا أو ذات مياه جارية ونبات ناضج!

# تأمُّـلات

حين يرقى تفكيرك في لحظات من الزمن؛ عن انشغالات الواقع اليومي؛ اِنشغال الإنسان بتوفير حاجاته اليومية؛ بوسائل متعددة، وطرق مبتكرة تفرضها تلك الحاجات، وهي قد تكون احتيالية ونصبا، وقد تكون بتراض، ومتكافئة الفرص، ولكل ذي حق حقه.

أقول في الوقت الذي يرقى فيه تفكيرك وتذهب بك تصوراتك وتسرح بمخيلتك؛ أبعد مما يتصور المرء، فتتأمل كائنك؛ بأنك إنسان يغدو ويروح؛ يسعى على ظهر البسيطة؛ مُسترزقا، وجانيا ثمارا بسُبل الحياة؛ ألا ترسم صورتك؟ فأنت كائن حي كباقي الكائنات الحية الأخرى من نباتات وحيوانات؛ تذرع على الأرض جيئة وذهابا؛ هذه الأرض كما وصفها علماء الفلك والجغرافية بأنها بيضوية الشكل، فهي أقرب إلى شكل كرة، وأنت، وبنو جلدتك مشدودون إليها، وفي ذلك عوامل وأسباب؛ يبحث فيها العلماء ويُحدِّدونها، فهي الجاذبية، وهي الحركة السريعة للدّوران؛ تَصوّرْ بأن هذه الأرض كوكبا من بين كواكب أخرى؛ تدور حول نفسها، وحول نجم عملاق وهو الشمس، فتُشكل ما يصطلح عليه بالمنظومة الشمسية.

وقبل أن يذهب بنا خيالنا بعيدا عن الأرض التي نسكن فيها، لأنه قد نسكن في يوم ما في القمر بوسائل تكييف، أو في المريخ بكيفية تعديل للحراة الباردة؛ نُعيد ترتيب العلامات والأشياء الجامدة والحية المحيطة بنا؛ أتعلم أنك لا تسود في الأرض بقدر ما تظل حيا تسير على الأرض، وأنك مكون من مكوناتها، وأنك عنصر من بين العناصر المشكلة لنظامها البيئي؟

الهواء المحيط بالكرة الأرضية فيه أكسجين يملأ رئتيك، وينتظم به تنفسك، ويضخ القلب دماءك، فتسري في عروق جسمك، أنت مجموعة من أعضاء، يعمل كل عضو منها حسب اختصاصه، وتصب أعمال جميع الأعضاء في نتيجة واحدة وهو أنك تتحرك؛ تجوب الكرة الأرضية، وإذا تحرك الهواء أضحى

ريحا، فتتنقل الكتل الهوائية مُكتسبة خصائص السطوح التي نشأت فوقها، قد تكون سطوحا جليدية أو مُتربة أو تُغطيها النباتات، إلى سطوح أخرى لها خصائص حرارية أخرى، فتُعدّل من طبيعتها، فيحدث تلاقح وتناغم واصطدام وتفاعل، وينشأ عن ذلك كله طقس بارد أو حار، أو طقس ممطر أو جاف، ذاك تنضَج به الثمار، والأخير تنمو به، لذلك تبقى الحرارة مقياسا يُعرفنا بطبيعة الأشياء، فأول ما يُفحص ما في جسدك المعلول هو درجة حرارته؛ أهي مرتفعة أم منخفضة.

تنتج الحرارة عن سقوط أشعة الشمس على الأرض، وتختلف درجة تأثيرها بدرجة زاوية سقوط الأشعة على العروض، ويكون ذلك السقوط بمقدار نتيجة المسافة القارة بين الأرض والشمس، فلو قُدّر وأن تغيرت هذه المسافة، ونقصت لاحترقت الأرض، وأصبحت رمادا، وإذا زادت جمدت الأرض، وصارت كتلة من جليد صلب، ولا أصور لك تراجيدية الإنسان في كلتي الحالتين.

بذلك المقدار تنشأ التيارات الهوائية، وتسقط الثلوج، والأمطار، وتندلق تيارات البحار، والمحيطات المائية؛ حاملة معها أسباب الجفاف أو الخصب، وتختلف برودة اليابسة، والماء، ووقت تغير حرارتهما، فهي أسرع في الأولى وأبطأ في الثانية، ولذلك مناخ محلي أو مِجهري، بالحرارة تذوب الثلوج، وتتحول إلى ماء يتحرك، فيجري على قمم الجبال جداولا وأنهارا ووديانا، أو يتسرب إلى باطن الأرض، فينحت الصّخر ميكانيكيا أو كيماويا؛ مُشكلا كهوفا كارسطية، ويتفجر عيونا.

فهناك إذن نظام كوني محكم؛ متوازن لا يعرف الخلل قط.

وللقمر؛ هذا التابع للأرض دور، فهو الذي ألهم الشعراء فتغنوا به، وناجاه العشاق في قمة هُيامِهم، لأنه الصاحب الوفي في عُزلتهم، وفي خَلوتهم مع الحنين، والاشتياق، والحسرة، وأثره على الأرض أيضا أنه يُضئ سطحها في ليالي الصيف الطويلة، وعلى ضوئه يحصد الحصادون سنابل حقول ناضجة،

ويجذب مياه البحار والمحيطات إلى مدها الكبير، أو تدور عنه الأرض، فتتراجع تلك المياه جزرا، وبتأرجح زحف الأمواج على السواحل يختلف هبوب نسائم البحر، وهو أيضا يكون له تأثير علمي طقوس الجزر والقارات.

أَوَ ارتقيت بفكرك ومخيلتك لتتأمل كائنك، وتكون على دراية بجميع هذا؟ لقد صرفك توفير ما يقيم أودك صرفا عن ذلك؛ إنك لست شيئا يُعتد به في هذا الكوكب المعمر زمنا طويلا من مليارات السنين، فهو أزلي بقدرة تفكيرنا، ولا ندري متى سينتهي وجوده.

# سُكون اللّيل

إذا بسط الليل ظلمته؛ أوى كل كائن حي إلى بيئته التي آطمأنت لها نفسه، ووقعت ألفة بينه وبينها؛ فلا يرتاح، وتَقِرّ عينُه إلا وهو ينعم بدفء جوانبها، فليس الإنسان وحده إذن، كذلك أجناس الحيوان والنبات؛ جميعها كائنات تستسقي ربها، فيُنزّل من السماء ماء يُحيي به الأرض، ومما تُنبته من نبات تتغذى عليه، ويبث سبحانه وتعالى من المسخرات أوكسجينا في رئتيها فينتظم تنفسها في شهيق وزفير.

هكذا يرحل قرص الشمس في مغيب؛ له مظهر يشد إليه العيون، ويرحل بعقولها بعيدا في ذلك المدى الواسع؛ الذي يُخيل لها أن لا حدود له، وتحيا النفوس أملا؛ لأجل هذا الأمل تسعى، وتستمد منه قوتها وآندفاعها، وإصرارها؛ تستميت من أجل ذلك الأمل الذي يلوح لها في الأفق؛ إنها الحياة المثلى التي يحاول الإنسان أن يحياها، وإن لم يكن في واقعه، ففي خاطره وفي خياله، فيسعد ولا يحزن.

وتغيب الشمس؛ ويزحف الليل، فتُجاهد المصابيح المصنوعة ظلمتَه، وتُغالبها في يأس؛ بدون أن تكون سببا في خلق شيء هو من عظمة خالق الكون، ولا يعقب الليل إلا نده النهار، وليس شيء آخر لأن كليهما من عظمة الله، ففي تعاقب الليل والنهار -الذي هو نتيجة حتمية لدوران الأرض حول نفسها- نظام كوني؛ هو فعل لكل مُتأمل، ولا يوجد إطلاقا فعل بدون فاعل، وإن كان هذا الفعل مبنيا للمجهول؛ فهذا المجهول لو قمنا برحلة الكشف عنه لألفيناه هو الله.

لا تستقيم الأشياء إلا بالعمل بما أمر سبحانه، وبترك ما نهى عنه، لأن في فعل المعصية ما يؤدي إلى الخلل؛ إلى ما يُزعزع اللّبنة في موضعها؛ فتتداعى البقية من مثلها من اللبنات؛ وفي هذا بناء دارس لا تقوم له قائمة، حيث يعمل فيه ما تأتي به الرياح وما تفرزه الحرارة؛ فيصيبه النخر؛ فهو تراب تذروه

نفحات الهواء المتحرك، كذلك سخر الله الليل للتأمل، والسكون، والتخفيف من أعباء النهار، وكذلك قيام الليل صلاة.

ليس الليل صمتا كله ولا هدوء، فهناك عين أم ساهرة؛ تحتضن رضيعها؛ تُرضعه وتحاول أن تخفف عنه بعض ألم الحمى، وحزم أب؛ يستعد لغد استعدادا فيه كد وجد؛ من أجل توفير ما يقيم أود أسرته، وكلاب حارسة تنبح، وذئاب تعوي؛ يُسمع لعوائها صدى يتردد في واد صخري، تترجّى لنفوسها شاة زائغة، أو خروف مُتخلف عن القطيع، وحفيف الريح، وهسيس؛ وليس جميع هذا الليل خير؛ ففي جنح الظلام يزحف السارق إلى أملاك الآخرين، أو من تبطش يداه بعورة أنثى غِرّ؛ بغير شروط الحلال؛ فيكون قد آرتكب فاحشة وساء سبيلا.

وما الليل إلا ذلك الجزء من الأرض الذي يتوارى عن ضوء الشمس، وما النهار إلا ذلك الجزء الذي شمله هذا الضوء، وبثّت فيه الأشعة الحرارة، فأجسامه ساخنة أو باردة، فاحتاج الإنسان إلى وسيلة لقياس الحرارة، فآكتسب بذلك ابتكارات.

أليست الحاجة إلى فهم كنه الطبيعة وتسخيرها هي أم الاختراع؟

والليل في حياة بني آدم على الأرض منذ أن خلقها الله وخلق آدم عليه السلام -كان أن أمره بأن يهبط إلى الأرض بعد أن كان له في الجنة غواية جره إليها الشيطان فله فيها مستقر ومتاع إلى حين- عنصر لديمومته واستمرار نسله، هب أن جميع أعماره نهار في نهار! ألن يغمض له جفن؟ أيظل يحدق في الفراغ؟ أتستطيع خلاياه الجسمية تحمل كل ذلك التحديق، وكل ذلك التفكير في مستقبل مجهول، أو الخوض في الغيب..؟ ليست الحياة كلها تعب، فهي أيضا راحة للنفس؛ التي لها رغبات، وشعور، وأشياء مجردة، وإنها لتفرح وتحزن لضياء، ولعتمة الغروب، ولظلام فيه سكينة، فهذه وظيفة الليل.

وأكثر الناس تفكيرا في الليل هم هؤلاء الأدباء الذين يُبدعون النصوص المنظومة أو النثرية، ويُحررون الأفكار، والعلماء الذين يصوغون النظريات

العلمية، والتي على أساسها أُختُرعت سبل، ووسائل؛ لرفاهية فرد القرن الواحد والعشرين، وفي آن واحد تهديد لوجوده ككائن؛ اقتضت حكمة الله أن يوجد ذلك الكائن، ولاغلو إذا قلنا لأول مرة في تاريخ الكون أنه مهدد في وجوده، أما إذا كانت هناك تواريخ أخرى ولت، أو آتية، فهذا من علم الله، ومن علم أولئك الذين يتخذون الليل للتأمل، والتفكير بالاستقراء أو الاستنباط، وفي العلل، وفي العوامل؛ وفيما سيؤول إليه هذا الكون.

تم الكتاب:
تمارة: في خريف 1446هـ: الموافق لـ 2024م.

# الفهرس


مقدمة ..... 5
غواصة الجليد نوتيلوس (Nautilus) ..... 11
عالم من الغرب الإسلامي ..... 17
سفينة الصليبي ..... 23
الصحفي الكاتب المقتفي للأثر ..... 29
الغواصة الفرنسية (لاكريول؛ La Créole) ..... 37
عظام إنسان (بيكين) المفقودة ..... 45
الكاتبة الفرسية وحلم جنة عدْن ..... 53
أجران من خشب (البُطم) ..... 59
واقعة (ساحة طريف) ..... 65
حكاية مخطوط ..... 71
معركة (أبي قير البحرية) ..... 79
شالة (المدينة الأزلية) ..... 91
الكتاب الرقمي؛ أهو نهاية عصر الورق المطبوع؟ ..... 103
موروث المغرب الثقافي ..... 107
الإعلام والإبداع الأدبي ..... 113
جيوسياسة غزو العراق ..... 117
فعل القراءة وأدواته ..... 121
رقيق المسلمين ورقيق الغربيين ..... 129
امتلاك الطبيعة ..... 135
المصير المشترك ..... 139
تاريخ أمريكا القريب ..... 145
الجغرافية السياسية المتغيرة ..... 157
حواران أجراهما المصطفى الصوفي ..... 163
حواران أجراهما عبد العزيز بنعبو ..... 181

سفر بالقطار السريع ..... 193
عرباوة؛ مدينة الغاب والأودية والتلال ..... 203
رحلة إلى مدينة شفشاون ..... 209
الكتاب والكتابة ..... 229
الصياد لا يطعم السمكة مرتين ..... 233
عش القماري ..... 237
هبة نسيم ..... 241
تأملات ..... 245
سكون الليل ..... 249

قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

أنا من بدل بالكُتب الصحابا ❁ لم أجد لي وفيا إلا الكتابا